

مُؤَلِّسٌ لُمُؤَلِّبَاتٍ

الإسلام في مجده الأول

من القرن 2 إلى القرن 5 هـ (8-11 م)

ترجمة وتعليق

إسماعيل العزلي



مكتبات دار الفقه الجديدة
المغرب

(هذه اوقات ٢٠٠٣

د/ رضى بنو العزاهي عبد الرسول
خليفة الهندسة - جامعة الإسكندرية

NC
297.03

لوم
3

مُؤَلِّسٌ لُؤْمِبَارْ

115

الإسلام في مجلدات الأول

من القرن 2 إلى القرن 5 هـ (8-11 م)

ترجمة وتعليق

إسماعيل العزبي



مكتبات دار الفنون الجديدة
المغرب

Pr. Maurice LOMBARD

l'Islam dans sa première grandeur

© FLAMMARION - PARIS

الطبعة 2000 1411 هـ - 1990 م
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مقدمة الطبعة الثالثة

أصبح كتاب «الاسلام في مجده الأول» عملاً كلاسيكياً يستحق بالشهرة التي يستحقها عمل جادّ به فرقة أسطى المرحوم، موريس لومبار الخالد الذكر، ولم تلبث الطبعة الأولى أن نفذت وتركت فراغاً في السوق بما حدا بالناشر إلى إعادة طبعه، وهذه الطبعة الثانية نفذت بدورها منذ عدة سنوات فلم تسمح الظروف الصعبة التي يمر به الناشر بإصدار طبعة ثالثة تستجيب للطلب الملحّ بين جمهور القراء من الجامعيين وغيرهم، وهذا الاعتبار هو الذي دفعني لأن أعهد به إلى دار مهمة للنشر سبق أن نشرت لي أربعة أو خمسة كتب في بيروت وتقوم الآن بنشر كتب أخرى في الدار البيضاء.

إنني لسعيد جداً أن أقدم الطبعة الثالثة من كتاب «الاسلام في مجده الأول» للقراء وأن أختتم هذه الفرصة لأثني على عميد دار الأفاق الجديدة لما أبداه بشأن هذا الكتاب وغيره من رحابة الصدر وإثراء اكتسبه من خبرته الطويلة في عالم النشر لتقيم التظلية.

أعتقد أن مقدمة الطبعة الأولى التي شرحت فيها خلفية الصالحي بالمؤلف القراحل وظروف ترجمة الكتاب لا تزال صالحة للطبعة الثالثة.

قلت الطبعة الثالثة ولكنه كان الأولي أن أتحدث عن الطبعة الرابعة لو اعتبرت الطبعة غير الشرعية التي صدرت للكتاب في بيروت، ولكن موضوع هذه الطبعة المسروقة لا يزال، على الرغم من مضي السنين يمر في نفسي الحزن والألم.

عطب انتباهي من ترجمة الكتاب مباشرة عرضته على الرئيس والمدير العام، السيد
امازور، للشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع، وعندما اطلع عليه تراءى له
أن لا يودعه ضمن عشرات الكتب التي كانت مركونة في خزان الشركة بسبب
ضخامة وسائل الطبع التي كانت تحت تصرفها، فالتفت فرارا بشأن الكتاب وعهد
به إلى شخص كان يعمل في إحدى دور النشر في لبنان ويعمل في نفس الوقت
وكيلا للشركة الجزائرية، ليعهد به إلى إحدى المطابع في بيروت لطبعه لحساب
الشركة، وبسرعة.

وكذلك سلم المخطوطة إلى السيد ع. د. وطلب منه الإسراع في طبع الكتاب.
ولما عاد هذا الشخص إلى الجزائر بعد وقت سأله الرئيس أمامي عن تقدم العمل
في الطبع وكم كانت دعشتا قوية حينما أجاب بأنه لا يزال يبحث عن طابع يسرع
في العمل فيه، ومرت الشهور ولم يصلنا خبر عن طبع الكتاب ثم عاد السيد ع. د.
بالمخطوطة كما هي محتذرا بأنه لم يعثر في بيروت عن طابع سريع ؟

ولكن الحقيقة هي أنه عثر فعلا عن طابع وطبعه بسرعة فائقة ولكن ليس
لحساب الناشر الجزائري، بل لحساب ناشر مزور في بيروت.

وكذلك ظهر الكتاب في بيروت قبل أن يسلمنا السيد ع. د. المخطوطة بعنوان
«الإسلام في عظمته الأولى»، ولما حصلت على نسخة من هذا الكتاب المزور لم
يقتض الأمر سوى قلب صفحاته لأدرك بسرعة أن الترجمة هي ترجمتي، بعد
حذف المقدمة والمواهب وبعد حذف اسم المترجم، لكني بضمن الناشر أصالة
الترجمة. كيف تقاسم ع. د. مع الناشر المزيّف ؟ وماذا كانت عمولاته أو مكافأته ؟
لا تعرف شيئا عن ذلك، ولكنه عندما رفع الرئيس والمدير العام بعد اقتناعه بالزور
الأمر إلى وزير الثقافة أصدر الأخير تعليماته بإلغاء توكيل ع. د. وبعدم الاتجاه
إلى خدماته بعد ذلك للوساطة لشراء الكتب التي كانت الجزائر تستوردتها من
لبنان.

وبعد ذلك أعطت الشركة أولوية في برنامجها لطبع الكتاب فصدرت الطبعة
الأولى في وقت قصير نسبيا. تلك صفحة محزنة من تاريخ الترجمة العربية لهذا
الكتاب ولكنه كان لابد من سردها للأمانة.

مقدمة المترجم

تربطني بهذا الكتاب الذي حرصت على أن يشاركني القارئ العربي متعني به واستفادني منه ، أكثر من وشيجة واحدة . فلي المكان الأول ، يدخل الموضوع الذي يعالجه ضمن الموضوعات التي تهني وأبحث بعض جوانبها . والكتاب من وضع استاذي الراحل ، موريي لومبار الذي أدرك له بالتوجيه والأرشاد والذي فتح أمامي آفاق البحث والعرفه الحديثة وفاد خطايا التردد في صبر وعطف في منعرجات التاريخ الاسلامي ، وكشف لي عن بعض أسرار هذه الحضارة الاسلامية التي ننتمي اليها ونعز بها جميعا . ولكن الرابطة الكبرى بيني وبين هذا الكتاب ، هي انه كان جزءا من محصولي العلمي ، حيث ان الأستاذ كان قد ألقي علينا خلاصته في فترات الترمي بجامعة السربون ، في شكل محاضرات . والقارئ يستطيع ان يتصور دهشتي حينما تصفحت هذا الكتاب لأول مرة واكتشفت انه سبق لي ان قرأته ! نعم ، فقد رست في ذاكرتي الخطوط الرئيسية لما يحتوي عليه من النظريات والأفكار ، كما نقشت فيها تلك الخططات والخرائط التي حسنا رايها ترسم بالعناصر على السبورة ، والتي لا تزال كراسي المدرسية التي اصغر لون ورقيها ، تحمل كثيرا منها ..

وقبل هذا وبعد ذلك كله ، تربطني بالكتاب تلك الروح التي كتب بها والتي سيلبسها القارئ منذ الصفحات الأولى : روح السلام المتفلسع والذي يطبع أدوات البحث لم يتج لي ان اعرف احدا يطبع مثله (كان الاستاذ لومبار يستعمل ثلاث عشرة لغة للبحث) ، وذلك مع تواضع ونزاهة في البحث ، وتعاطف مع الاسلام ، بلغ به حدا يتحدث معه عن القرآن الكريم بله « الكتاب الذي أوحى به الى محمد » نعم ، فان نظرة لومبار تخرج به من دائرة أولئك المستشرقين الذين سافروا انفسهم بطريقة مباشرة او غير مباشرة لمساعدة الاستعمار على فهم عقائده المسلمين و «الأهالي» ، بقدر ما كان بعيدا عن أولئك الذين يتظاهرون بليل الى السلفية ، او باقتناق الصوفية ، وعقيدتهم المسيحية اشد ما تكون صلابه ! فان الأستاذ لومبار الذي تعمق في تاريخ الاسلام والشرق ، لم يعرف هذه التلقية إلا من طريق الأرشيفات والخرفيات وآثارها

الحضارية . وأما السياسة الشرقية ، فلم يكن يتسع لها وقته ولا يعيل إليها جُده ..

كان الأستاذ لومبار هو الشرف على رسائلي ، وبعد انقضاء مرحلة الدراسة اتصلت بالعلاقة بيننا وشعنتي بعبقفه وتبادلنا عددا من الرسائل تلقيت بعضها أثناء إقامتي في بنغازي (ليبيا) وتلقيت آخرها مع انشغالي الفرنسي لرسائلي عن جغرافية ابن سعيد المغربي ، انشاء إقامتي في لندن في أوائل الستينات . وفي رسالته ، مثل ما كان الحال في مجادلته ، كان يحثني على مواصلة البحث والدرس (وبفضل إرشاده اتجهت لدرس دولة بني حوارة) ، وقد كان يرى أن العمل في مجال التعليم يساعد الباحث على مواصلة الدرس . ولكن ما الحيلة ! فحسني الشخص الذي لا يؤمن بالجبر والقضاء والقدر ، لا يستطيع أن يتكرر أن بدا خفية (ونسجها) العناية الإلهية (تمسك بغيوط غير مرئية متصلة بقطارنا ! فإن السنوات التي قضيتها في إدارة التعليم العربي على رأس لجنة التعليم العليا في نطاق جمعية العلماء ، والتجارب المتواضعة التي اكتسبتها في هذا المجال ، قدر لها أن تلعب أدراج الرياح ، حيث تفلتني مهنة الإعلام في المرحلة الأولى ، والديبلوماسية في مرحلة ثانية . إن فكرة التجاح والفشل فكرة نسبية بدون شك ، ولكنه إذا كنت قد حققت نجاحا موهيا ما ، فهو ، بالتأيد ، ليس هو التجاح الذي تمتد لي الأستاذ لومبار ، حينما علم أنني اشتغل في مكتب رئيس وزراء ليبيا .

ولهم إن هذا الكتاب الذي وجدت نفسي مدفوعا إلى ترجمته يرتبط بحياتي العلمية ارتباطا وثيقا ، الأمر الذي حثني على بذل أقصى الجهد حتى لا تفقد الترجمة شيئا من أصالته وعمقه . ولكنه قبل أن أمضي في عرض الملاحظات التي تمن لترجم كتاب ، عادة ، يجب أن أسارع لأخير المقاريء بأن الكتاب الذي بين أيدينا نشر (في سنة 1971) بعد وفاة موريس لومبار ، وبالتالي ، فهو لم يتخذ الشكل الذي كان يود المؤلف أن يفسده فيه . ومضمونه كما سبق أن أشرنا ، يمثل المادة التي ناقصا لومبار في شكل محاضرات في مدرسة الدراسات العليا (المبرون) وفي مدرسة المعلمين العليا ، خلال الفترة 1957 - 1960 . وقد قام جماعة من زملائه ، وعلى رأسهم المؤرخ بيروني والأستاذ تسوري ميچوبيل ، الأستاذ بالكوليج دولفرنس ، بإعادة هذا النص للطبع . وهذا الآخر هو الذي تولي وضع علامات الكتلة والنطق على أحرف الكلمات العربية بالطريقة التقنية المعروفة بين المستشرقين .

والطريقة التي اتخذتها للترجمة تقوم على أساس الترجمة «الشفافة» ، أي عدم إعمال أي معنى من معاني النص الأصلي . ونظرا « لخالطتي » المسافة لهذا النص ، فإني لم أواجه أية صعوبة في الترجمة ، وذلك فيها نما التعرف على الأماكن والأشخاص التاريخية وإيرادها بالاسماء

التي ترد بها في الكتب العربية . وهذه ، كما يعرف كل باحث ، مهمة شاقة للغاية ، ولم يكن من الممكن التغلب عليها لولا الساعسة القيمة التي قدمها لي من قبل موريس لومبار نفسه . فإن هذه المصنوعة هي نفسها التي واجهتها حينما قمت بترجمة « كتاب الجغرافيا » لابن سعيد إلى الفرنسية ، ولكن في صورة عكسية ، أي ، التعرف على الأماكن والأشخاص العربية وكتابتها كما تسمى بالفرنسية أو اللاتينية . وأنا اعترف أن يد لومبار طويلة وفضله كبير في أجال تلك الترجمة التي ستظهر قريباً إن شاء الله .

والمشكلة الأخرى التي واجهتها منذ البداية ، هي حجم المصوامش ومداها . فإن مما لا ريب فيه أن المادة الفنية التي يحتوي عليها الكتاب لتفري الباحث بذل مجهود للإضافة والزيادة بالتعليق والمصوامش ، ولكنه نظراً لأن العمل لم يظهر لي شكله الكامل بسبب الظروف المأسوية التي أشرت إليها ، فقد رأيت ألا تتجاوز هوامش المترجم الإطار الفعلي الذي ظهر فيه النص . وكذلك تجنبت التعليق عن صميم الموضوع بقدر الإمكان والتفت ببعض الشروح التي تتناول ، خصوصاً سير الأسيان ، والتي من شأنها أن تلقى ضوئاً عاماً على الموضوع . ولنفس الأسباب أحججت من الإحالة إلى مراجع المؤلف . فلو عاين لومبار وقدر لهذا العمل أن يخرج كاملاً ، لكان من المرجح أن تتجاوز مراجع الكتاب ألف مرجع . ونحن نذكر في هذا السياق أن كتاب المؤلف المعلنون « النقود من الأسكندر إلى محمد » يحتوي على 730 مرجعاً - بالإضافة إلى ببليوغرافيا عامة - مع أن النص لا يتجاوز 200 صفحة . والتعليقات التي وضعتها تخطئ شكل إدراج ضمن فوسين في النص متى كان التعليق صفحياً ، ولا يتجاوز كلمة أو كلمتين ، ولكنه متى كان طويلاً ، اتخذ شكل تخرج بالأرقام العربية ووضع في أسفل الصفحة .

وفي الخاتمة ، أشعر بالرضى بالطريقة التي قامت بها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بنشر هذا النص ، ولا سيما ما يتصل من ذلك بالمعطيات والعرائط التي بذل العاملون في قسم النشر مجهوداً فنياً يستحق التنويه لإخراجها على الصورة التي هي عليها . والشكر الوحيد الذي يظل من يخطني ، هو أن يظهر كتاب « الإسلام في مجده الأول » وصاحبه قد غارز هذا العالم ، لأنني أعرف أنه لو وصل هذا العمل إلى المسلمين في اللغة العربية في حياته ، لكان ذلك مبعثاً لسرور لا حد له في نفسه . ولكن الأشخاص بلعيون ، والنقود لأعمالهم ، متى كانت تستحق النقود .

اسماعيل العربي

الجزائر في 20 يونيو 1978

تجشيد

تعتبر العصور الوسطى العليا - ابتداء من بناء القسطنطينية في القرن الرابع حتى امتناع نطاق الحروب الصليبية - منذ القرن الحادي عشر الميلادي - تعتبر هذه العصور فترة شرقية في التاريخ .

وهذه الملاحظة تصدق، خصوصا على القرون الثلاثة التي تمتد من منتصف القرن الثامن حتى منتصف القرن الحادي عشر ، والتي تمثل قمة ما حققه العالم الاسلامي . فان المراكز الموجهة للحياة الاقتصادية والثقافية في العالم في تلك الفترة كانت كلها تقع في الشرق الاسلامي . وأما الغرب المسيحي، فلم يكن يمثل سوى فراغا ، حيث كان النشاط الاقتصادي والثقافي قد انحصر عنه منذ الانحطاط والتدهور الذي أصاب الامبراطورية الرومانية؛ ولغزو البراب (1) لأرضه .

ولكن فهم اقتصاد العالم الاسلامي بعد ما بلغ أوج نشاطه يتطلب نظرة الى الوراء ، وخصوصا ، الى عهد الفتوحات الاسلامية « الفترة التي تمتد بين منتصف القرن السابع ومنتصف القرن الثامن الميلادي » ؛ فان هذه هي الفترة التي تشكلت فيها معالم العالم الاسلامي الأساسية .

1 - تطلق كلمة « البراب » في هذا الكتاب على الصحابة المسلمة « القوط والوندال واليودجند والسويك واللاف الخ » التي قامت بطرد الامبراطورية الرومانية خلال الفترة التي تمتد بين القرن الثالث والقرن السادس الميلادي ، واستطروا اياهمرة الغرب وشكلوا دوللات هنا وهناك ، وذلك لتبرير بين هؤلاء الاقوام وبين اليسوعس سكان القرية الشمالية ؛ وذلك على الرغم من ان هذه الفترة لا يوجد ما يبررها من حيث الانشقاق ، حيث ان اليونان الذين وضعوا كلمة البربر كانوا يلقونهم على جميع الشعوب غير اليونان ؛ بما في ذلك الرومان ؛ ؛ وفي عهد متأخر تبنى الرومان هذه الكلمة ووضعوا القسم مكان اليونان وكانوا يسمون « البربر » جميع الشعوب التي لا تنتمي الى الحضارة الرومانية - للرجوع .

عهد الفتوحات :

قام بالفتوحات الاسلامية الأولى عرب الجزيرة من البدو الرحل وغيرهم ، فكانت هذه هي القوة العسكرية الأولى للإسلام . بقيادة قريش مكة الذين هم من الحضار . يمارسون التجارة ويجهزون القوافل . وفيما عدا الصحراء ومناطق الرعي في شبه الجزيرة العربية . اتجه الفتح العربي منذ البداية الى بلاد الهلال الخصيب . بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر .

ولكنه الى جانب هذا المنصر العربي (الأصلي) . فتح جيش الاسلام صلفوه للمجندين من أبناء البلاد المفتوحة . وهذه العناصر المحلية ستوسع نطاق حركة الفتح الأصلية . وكذلك اتجه الايرانيون الى فتح آسيا الوسطى ، بينما اتجهت العناصر السورية للمغربية الى فتح الرقبة الشمالية ، ليقوم البربر بدورهم (في مرحلة تالية) بفتح الأندلس وجزيرة صقلية .

وهؤلاء القائلون العرب ، أو غير العرب . سوف لا يشكلون الا أقلية في البلدان التي أخضعوها . وقد كان دورهم التاريخي هو تكوين منطقة دينية سياسية واسعة وتوحيد بلاد وشعوب مختلفة في مملكة كبيرة لينصهروا بعد ذلك في الشعوب القديمة التي أخضعوها . وبذلك استمرت اجتماعات والشعوب الشرقية القديمة في نشاطها التقليدي بدون انقطاع في ظل الاسلام وتحت لواء الخليفة وأما العرب الذين خرجوا من الصحراء ، فيستقرون في العراق وايران وفي مصر . وهي بلاد ذات واحات ومدن كبيرة عرف سكانها بتقاليد تاريخية قديمة ، وتبتد جذور الحضارة فيها الى أعماق التاريخ . فان بلاد الشرق قد أنتجت حضارة من أقدم حضارات العالم .

والمنصر العربي (الأصلي) الذي يشكل المرحلة الأولى للفتاحين . انما خرج من الصحراء ، وذلك على عكس العناصر التي خرجت من المناطق الخلفية ذات الغابات والأراضي الزراعية (أوروبا الوسطى) :

أو ذات المرامي (آسيا) ممن كانوا يشكلون الاحتياطي البشري للبرابرة الغزاة الذين استقروا في أمواج متعاقبة في أرياف الغرب ذي الغابات الواسعة والضعيف السكان . وفي هذه الحالة (حالة العرب) ، كان الفاتحون لا ينصهرون بسرعة في جموع سكان الحواضر ذوي الحضارة المتخوفة . وكذلك كان العرب ينزلون في المدن ، أو في ضواحي المدن التي سرعان ما تشكل نواة لمدن أخرى ، مثل الكوفة والبصرة والقيروان . وهذه الظاهرة تفسرها ضرورة المحافظة على نمط الحياة العربية بسيل سكان الحواضر العرب إلى التجارة ، وما يشعر به البدوي من اغراء المدينة وكل ذلك مع الكره الشديد للأعمال الزراعية والاستقرار في المناطق الريفية . فإن جميع عناصر العرب الفاتحين كانت توافقة إلى الاستمتاع بما توفره حياة المدن من المرات . ولكن العناصر التي لم تكن قابلة للانصهار ، سرعان ما تبدلح نحو الصحراء ومناطق الرعي ، واحسن مثال لهذه العناصر ، هم بنو هلال الذين سيستولون من صحراء الجزيرة العربية إلى ميناء في الرحلة الأولى ، ثم من ميناء إلى برقة وبقيّة بلدان الغرب في المرحلة التالية .

لقد احتفظت شعوب الشرق القديمة : الأرمن والفرس والعربون ، بكيانها تحت الفتح الإسلامي . لماذا كان دور الفاتحين تجاه هذه الشعوب ، يا ترى ؟

من الناحية السياسية كانت نتيجة الفتح ، قيام دولة إسلامية في رقعة فسيحة من الأرض كان الخليفة رمزاً لها . ومن الناحية الدينية كان من نتائج الفتح ، نشر الإسلام ، ذلك الدين الذي يقوم على القرآن الذي أوحى به إلى محمد . ومن الناحية اللغوية ، أدى الفتح إلى اتساع انتشار اللغة العربية ، وأخيراً ، فقد نجم عن الفتح الإسلامي ، من الناحية الاقتصادية اتحاد أراضي مختلفة في كتلة اقتصادي كبير . على أن انتهاء الفتوحات كان أيضاً بتقلص المنصر العربي واعتماده في

الشعوب القديمة : الآريين والسامين والمصريين والبربر والأندلسيين ،
وهذه أيضا هي الحالة في الرحلة الثانية (من الفتح) . وقد لاحظ
المؤرخون خصوصا خالة القوات التي ساهمت بها سورية وشعب
العنصر البربري بين سكان الأندلس في القرن العاشر الميلادي (2) .

كيف نعلم تلك السهولة والسرعة التي تمت بها الفتوحات الإسلامية
الأولى على يد عدد صغير من الفاتحين ؟

لقد كانت لدى العرب جميع الفرص التي تتيح لهم حسن استقبال
الشعوب القديمة السامية والسورية وما بين النهرين
ومصر واعتبارهم محروين لهذه البلاد . فالي جانب العلاقات
الاجتماعية والثقافية التي تربطها بالعرب ، كانت
هذه الشعوب قد خضعت عموما طويلا لحكم روما ثم لحكم بيزنطة في
الغرب ، وللاستعمارية الساسانية الفرس في الشرق . وكذلك كانت هذه
الشعوب في حالة ثورة دائمة ضد ادارة القسطنطينية واكثرهم (3)
وكانت ثورتهم ، كما هي حالة الثورات في الشرق دائما ، ذات طابع
ديني في الظاهر ، ولكنها ثورات اجتماعية في المصميم . وقد اهتم عرش
بيزنطة بالبدع ومخالفة للألوف ، وبمنظرة التساطرة والمذهب الذي
لا يعترف الا بطبيعة واحدة للمسيح ، وهي كلها نظريات تتعارض مع
المذهب الرسمي الذي تدّين به الكنيسة الشرقية . وفي ملكة الساسانيين ،
كانت المألوية والديانة اليهودية والمسيحية وغيرها من المذاهب تنتشر
معارضة للمذكية ، الديانة الرسمية .

وفي مقابل كل ذلك ، نجد أن اتجاه الرسالة الإسلامية نحو
الديمقراطية والمساواة ، واتحادها عن النظرة الوطنية الضيقة ، كان

2 - LEVI-PROVINCAL — L'Espagne musulmane au X^e siècle : Introduction — 2
rien et vie sociale, Paris, 1952, pp. 8 et suiv. :

3 - Créophon — مدينة السورية تقع على نقطة وادع مفرقا في القصداء لفرق الجسر —
Pythom تم قتلوا الساسانيين من بعدهم . (الترجمة)

يستجيب للحركات الثورية الاجتماعية والدينية في البلاد المفتوحة . وهذا الاعتبار : هو الذي سهل : على الأكل جزئيا ، الفتح الإسلامي . ومن جهة أخرى : فإن الرغبة في استتباب الأمن واستقرار السلام تدفع سكان المدن إلى الانسواء تحت لواء الفاتحين الذين ينتظرون منهم الحماية من الغزى وحيث البدو . والمقاومة المتصلة الوحيدة التي واجهها الفتح الإسلامي في نهاية الأمر ، هي تلك التي أبدعها البربر . الذين قاوموا قرطجة وروما قبل العرب . وقاوموا الترك بعدهم . وكذلك على البربر تحت الحكم الإسلامي في حالة مقاومة صريحة أو مكتومة .

وعلى كل حال . فإن عدم تشدد الفاتحين ، وفنودهم ، بل وتشككهم في الأمور الدينية ، قد سهل قيام علاقات مرضية بينهم وبين الشعوب المطلوبة على أسرها . وكذلك نجد أن الفاتحين لم يمارسوا الاضطهاد أو القهر لاجل هذه الشعوب على اعتناق الدين الإسلامي . والشرط الوحيد الذي فرضه العرب ذو طابع ضريبي . فإن معاهدة الصلح التي يوقعونها طبقا للإجراءات المعمول بها آنذ مع السلطات الدينية المحلية ، تضمن ، في مقابل ضريبة (الجزية) يقوم أعيان مختلف الجماعات بجمعها ، حرية العقيدة الدينية واستمرار النشاط الاقتصادي .

وقد تمت الفتوحات الإسلامية بسرعة كبيرة بحيث لم يقع أي انقطاع في مجرى الحياة العامة . بل أن الحالة السابقة للفتح قد استمرت كما كانت في جميع المجالات : المؤسسات والأجهزة الإدارية والموظفين والإجراءات وأعمال الكتاب وجمع الضرائب ، وأخيرا العملة المتداولة . فإن الدرهم الساساني المضروب من الفضة ، والدينار البيزنطي المضروب من الذهب . سيستمر تداولهما في البلاد المفتوحة حتى القرن الثامن الميلادي . وعلى الصعيد الاقتصادي . استمرت المدن وشبكات الاتصالات التجارية (وهي هياكل حيوية) بدون تغيير يذكر . فإن

طرية اقمح التي تجبي على الفلة السنوية في مصر والتي كانت توجه الى روما في البداية ، ثم الى القسطنطينية لدى تحول السلطة الامبراطورية الى هذه المدينة ، لم تلغها السلطات الاسلامية بعد فتح مصر ، والما اكتفت بتحويلها ، عن طريق البحر الأحمر ، الى عواصم الجزيرة العربية ، ثم الى دمشق ، عاصمة الخلفاء الأمويين ، وكذلك احتفظ المسلمون بحياة الضرائب ، ولكن لمصلحة الجماعة الاسلامية وحدها . وقد كان فرض الضرائب على غير المسلمين مظهرا من مظاهر المنح الاقتصادية ، حتى شعر الخليفة بالتهديد بفقد الدخل من الضرائب بصورة متزايدة ، نتيجة للإقبال على اعتناق الاسلام ، لفرض ضريبة عقارية شملت المسلمين وغير المسلمين على السواء .

والملاحظ أيضا أن الفتوحات الاسلامية لم ينجم عنها شيء من التخريب والتدمير . فإن الفاتحين المسلمين لا يحرقون ولا ينهبون المدن المفتوحة . والحالة الاستثنائية الوحيدة التي تستحق الذكر ، هي حالة قصور الساسانيين التي كانت تحتوي على كنوز من الذهب . وبالتالي ، فإن الفتوحات الاسلامية لم يرافقها اضطراب في الحياة المدنية . وقد كانت الشعوب المغلوبة توفر بطريقة طبيعية الاطارات الادارية والطبقات الذمعية . وكذلك لعب المسيحيون واليهود والفرس الذين اعتنقوا الدين الاسلامي ، أو الموالي ، كما كانوا يسون ، دورا حاسما في اقامة دعائم هذه الحضارة التركيبية ، الحضارة الاسلامية . وحتى الموضوعات اللغوية ، مثل تنظيم قواعد النحو (العربي) وبعض المسائل التي تتصل بتثبيت نص القرآن بصفة نهائية ، ستكون مجالاً لتدخل غير العرب من أبناء الشعوب الشرقية القديمة الذين كانوا يستعملون بتدريب تقني فائق .

وهكذا كان الشرق الاسلامي ، أي أراضي الساسانيين قديما (العراق وايران) وأراضي بيزنطية (سورية ومصر) ، بمثابة بوتقة

أشهر مختلف عناصر حضارة تركيبيّة تنتشر فيها بعد في جميع أنحاء العالم الإسلامي . شرقاً نحو آسيا الوسطى . وغرباً نحو إفريقيا (تونس وشرق الجزائر) والمغرب الأقصى وإسبانيا وصقلية .

ومن هذا الامتداد الحضاري : نشأت في القسم الشرقي في مثلثات الساسانيين والبيزنطيين القديمة ، حركة استمرار تعزّزت وأصبحت قاعدة الانطلاق ، وفي القسم الغربي قامت نهضة وتجديد حقيقي .

وعلى عكس نظرية بيرين المشهورة (4) : فنحن نعتقد أن الغرب لم تمكن من الاتصال بالحضارات الشرقية ، وعن طريقها بالحركات التجارية والثقافية العالية ، بفضل الفتوحات الإسلامية . فبينما نلاحظ أن الغزوات الكبرى التي قام بها البرابرة في القرنين الرابع والخامس الميلاديين قد نجم عنها تدهور اقتصادي في الغرب الميوقساني ثم الكرويانيني (نسبة إلى ثرلاند) ، نجد أن قيام الإمبراطورية الإسلامية قد كان من نتائج نمو مدعّس لهذا الغرب المسيحي نفسه . فإذا كان الغزو الجرمانى قد أسرع بتدهور الغرب ، فإن الفتوحات الإسلامية قد تسببت في انبعاث حضارته . وباختصار ، فإن المشكلة التي قامت في الغرب بشأن غزو البرابرة وبسبب الاستمرار أو التدهور ، يجب حلّها ، في حالة الفتوحات العربية في جميع أنحاء الملكية الإسلامية ، بالتأكيد بعدم وجود انقطاع . بل ، زيادة على ذلك ، فإن هذه الفتوحات كانت نقطة انطلاق عظيم في طريق النمو والتقدم والأزدهار .

4 - راجع : H. Pirenne, *Mohamed et Charlemagne*, 4^e éd., Paris-Bruxelles, 1937.

والغزوات الممثلة والتي نشرها P.E. Hobsbawm تحت عنوان : *Bedeutung und Rolle des Islam beim Übergang vom Antikum zum Mittelalter* (weg der Forschung, 202) Darmstadt, 1968.

انتشار الإسلام واللغة العربية والمنصر المبني :

يجب أن نطرح ثلاث مشاكل ، كلا على أفراد ووضوح ، وهي :
نشر الإسلام ، وتعرب البلدان المفتوحة ، وتأثير المنصر السامي فيها .

فانتشار الإسلام ، معناه اعتناق سكان البلدان المفتوحة للدين
الجديد . وقد ساعد على انتشار الإسلام الامتيازات الضريبية التي
كان يتمتع بها من يمتثلون للإسلام وينشرون تحت لوائه . وبعبارة
أخرى ، إلغاء الجزية التي يدفعها غير المسلمين .

وأما التعريب ، فيجب أن نفهم به معناه اللغوي فقط ، وأما الدم والعرق
العربي ، فهو لا يكاد يكون ملحوظا فيه (5) .

وأما التقاليد العربية الحقيقية ، فإنها لم ينتقل منها إلى البلدان المفتوحة
إلا الشيء اليسير . وأما الشيء الذي يسمى في كثير من الأحيان ، غلطا ،
بالتعريب ، فهو أنه يعني في الحقيقة اعتناق مجموعة من التقاليد والتفكير
السامية والشرقية ، وتقبل بعض الأفكار الأخلاقية والمعتقدات المقدسة ،
والروايات التي تتعلق بخلق الكون ، وإطارات التفكير والتطبيق ، مما هو
شائع بين الشعوب السامية (أو بعبارة أدق التي أصبحت سامية) من
المصريين وسكان ما بين النهرين ، وخصوصا طبقات السكان التي هي
بنتيجة الحراك للنشاط : سكان المدن الذين تجتمعت فيهم رواسب
الحضارات القديمة - تلك الحضارات التي علمتهم السدقة والسلوك
المهذب والفنون الثقافية والتجارية ، والحاجة إلى نظام اجتماعي ثابت

5 - ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن المؤلف يتحدث عن الفتوحات الإسلامية الأولى وهي
الفترة الرومانية التي حددتها السلطة هذا (بين القرن الثامن والقرن العاشر ميلادي حصر
البركاني) - وبالتالي ، فهو لا يلمح إلى الانتشار هنا تلك المراحل التي استغرقتها
الطامة ليسى حركات الهجرة العربية ، مثل التي وقعت أثناء غزو بني هلال لشمالي
أفريقية - «المترجم»

العالم ، كما جردتهم أيضا من « الفضائل الحربية » - وهي خصائص شائعة بين شعوب العصور القديمة - مما احتاج الامر معه الى الالتجاء الى الجنود المرتزقة . والفتوحات الاسلامية ، هي لولا وقيل كل شيء عبارة عن معارك انتصر فيها العرب البدو الذين خرجوا من الصحراء سالكين طرقا واضحة العالم لينقضوا على مدن حامية تحيط بها أرباب وفلاحون يدوتها بنا محتاج اليه من المنتجات .

والفتوحات الاسلامية بعد ذلك ، هي من عمل البربر وصنهاجة (الرحل) وسكان الجبال من قبيلة كتامة . وفي مرحلة تالية ، أصبحت من عمل الأتراك والأكزاد والديلميين . فمن هذا الاحتياطي من المحاربين المرتزقة ، جند الاسلام قوته العسكرية .

وأما تأثير العنصر السامي ، فهو شيء آخر . انه عبارة عن حضارة مدن الشرق القديمة ، وهي تركب من عناصر فارسية وعلينية ، انتشرت خارج الأراضي السامية بواسطة عدد من الطرق والوسائل . فقد انتشرت هذه الحضارة في المكان الاول عن طريق اللغة العربية التي هي لغة القرآن ، ولغة الحكومة ، ولغة الكتاب ، ولغة التبادل التجاري بين البلدان المتباعدة ، ولغة الحضارة الأدبية والعلمية . فان تفكير اليونان والآبرانيين والهنود والصينيين اما وصل اليها معظمه عن طريق الترجمة باللغة العربية ، أي بواسطة أداة سامية . وكذلك سلك التأثير السامي الطرق التجارية التي استخدمها المشارقة ، وهجرة جماعات صغيرة وتكوين مجتمعات دينية في نقاط استراتيجية في التجارة العالمية . وهذه الجماعات من الرواد متقوى وتتمتع بفضل مهاجرين جدد . وفي نفس الوقت اتسع نشاط هذه الجماعات التي كثر عددها وراحت تستكشف مناطق جديدة وتقيم الزود من المراكز ، بينما تحتفظ بمؤخرة مواقعها لتراجع اليها عند الحاجة ، وبوشائج تنقطع أحيانا ، بسبب الخلافات ، وتغوى أحيانا أخرى وتشتد ، بإعادة التكتل والتجمع . وكذلك تولدت الجماعات اليهودية التي

تكتب باللغة العربية أو الآرامية وتتحدث باللغة العربية ، والجماعات النسطورية التي تكتب اللغة السريانية وتتحدث باللغة العربية .

ونلاحظ أخيرا أن العمليات الثلاث التي طلتها باختصار : انتشار الاسلام والثقفة العربية والتأثير السامي (عن طريق الحضارة) ، كانت المدن مسرحها ، في بداية الأمر . فإن مناخ المدن كان ملائما لها ، نتيجة لنوع من الانسجام الذي كان موجودا من قبل . ومن المدن ، امتدت هذه العمليات الى البيئة الريفية . ونحن نعرف أن العالم الاسلامي كان خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر ، مركزا لحركة عظيمة لعمران المدن . والمناطق التي قوي فيها عمران المدن ، كانت هي المناطق الأولى والتي تأثر أكثر من غيرها بهذه العمليات . وأما المناطق الأخرى ، فستظل وقتا طويلا تعيش على هامش هذه الحركة . بل أن بعض المناطق ستقتل الى الأبد من هذا التأثير . وكذلك نرى معارضة تقوم في القرية الشمالية بين المدن الواقعة تحت التأثير العربي والتأثير الشرقي ، وبين جبال البربر التي لا يكاد التأثير الاسلامي يمس في سكانها الا قشرة سطحية .

فضاء الفتوحات : العالم الاسلامي

يشمل الامتداد الجغرافي للفتوحات الاسلامية ما بين آسيا الوسطى وأسبانيا - في داخل هذه الحدود أو في المناطق الخاصة لتفوذ الاسلام الاراضي التي تقع في قلب العالم القديم . وقد كانت هذه الاراضي في ذلك العهد ، أهم مناطق العالم من الناحية الاقتصادية ، بإنتاجها الزراعي والصناعي والمعدني ، وخصوصا بتنظيمها التجاري : تجهيز الموانئ ، وشبكة طرق القوافل ، وأخيرا بشاغل سكانها . وقد أصبحت موارد تلك الاراضي منذ الآن تتمتع بقنوات واسعة للتسويق كما كانت موضوعا لنشاط اقتصادي فسيح الرقعة .

كانت الأراضي ذات التربة الخصبة هي : الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات ومصر ، وهي بلدان قديمة ذات ولحات وإسكانيات للري : وكذلك تشمل هذه الأراضي سهول المروية الشمالية الخصبة التي تنتج القمح والزيت كما تشمل الاندلس .

وأما الأراضي التي تملؤها احتياؤها على المعادن ، فهي تشمل القوقاز وبلاد الأرمن ومرتبة الشمالية وإسبانيا .

ولكنه الى جانب هذا الانتاج المدني المباشر ، كان العالم الاسلامي يسيطر على الطرق المؤدية الى مناجم الذهب الرئيسية في العالم : المروية الجنوبية الشرقية والسودان وآسيا الوسطى .

وأما المراكز الصناعية التي سجلت تقدما كبيرا ، فهي تقع في إيران وبلاد ما بين النهرين وسورية والدلتا المصرية .

وقد كان لدى العالم الاسلامي موانئ كبيرة تستقبل سفنه وتشمل على أحواض لبناء وتصلح السفن ، وتقدم البحريين للسافرين على شواطئ الملاحة . وفي هذا المجال كان لدى العالم الاسلامي ثلاث مجتمعات فسيحة : موانئ الخليج العربي والبحر الأحمر التي يسير منها البحريون العرب والفرس سفنا في اتجاه المحيط الهندي . ويكمل هذه المجموعة نظام الملاحة النهرية في دجلة والفرات . وتأتي بعد ذلك موانئ سورية ومصر ، وفي مقدمتها ميناء الاسكندرية الذي تكمله الملاحة في نهر النيل . وأخيرا ، موانئ مضيق صقلية ومضيق جبل طارق . وتلتحق بها الملاحة في نهر الشيبيلة وقرطبة (الوادي الكبير = Guadalquivir)

وكذلك كان لدى العالم الاسلامي عدد من المدن التي كانت مراكز لتجارة القوافل وتنشع بتنظيم محكم للنقل وتشرف على طرق التجارة التي تنطلق من بلاد ما بين النهرين (نهر سورية شمريا والى إيران

وآسيا الوسطى شرقا) ومن الجزيرة العربية : وطرق التجارة التي تـر
عبر الصحراء . وهذا النظام الذي يقوم على شبكة من طرق المواصلات.
يتطلب توفير حيوانات النقل الضرورية (الجمال والخيـل والبغال والحمير)
وموئلين وصلا ومرشدين أكفاء وتجارا ومجهزين لتقائـل يـسدونها بالزاد
والعتاد . وقد كان سكان الشرق الذين يطلق عليهم اسم « السورين »
أو « المشارقة » والذين كانوا يسـكون برامـج التجارة العالمية : غير
خائف للفيتيين في هذا المجال .

ومن جهة أخرى ، فقد كان رصـيد الذهب الآتي من قصور الساسانيين
ومن الكنائس البيزنطية ، موردا يعزز قوة العالم الاسلامي الاقتصادية ،
تلك القوة التي تقوم ، خصوصا ، على الدور الذي كان العالم الاسلامي
يلعبه بوصفه محتكرا لتجارة المرور (الترانزيت) بين الشرق الأقصى
والحيط الهندي والغرب من جهة ، وافريقية الوسطى والبحر الأبيض
المتوسط ، من جهة أخرى .

وكذلك كان الاسلام يحتل موقعا حيوا عند مفترق الطرق التجارية
الكبرى في ذلك العصر ، ولم يكن يفتـل من سيطرته سوى طريق تجارية
واحدة : تلك الطريق التي كانت تربط الشرق الأقصى ومنغوليا وآسيا
الوسطى متجهة الى السهول المجرية . انها طريق الرحـل . تلك التي تبتد
في شمال الحضارات الآسيوية القديمة وحضارات البحر الأبيض المتوسط .
طريق ثانوية عريضة . وكذلك كان يفتـل من سيطرة العالم الاسلامي
مركز تجاري واحد ، وهو : بزنطة .

وهكذا تتضح لنا قيمة موقع العالم الاسلامي في قلب العالم القديم .
فالاسلام ليس بحضارة هيبت الى الأرض من كوكب آخر فجاء ، وبدون
مقدمات . ولكنه يتصل اتصالا وثيقا بالبيئة والمناخ التاريخي الذي يحيط
بـهده وبالرقعة الجغرافية التي انتشر فيها .

وفينا يتعلق بالمناطق التي يقطها السود ، من شواطئ افريقية الغربية حتى شواطئ افريقية الشرقية ، فقد كان مجيء الاسلام اليها حدثا تاريخيا عظيما وبشكل اساسا لتاريخ افريقية الحديثة .

ومن جهة المحيط الهندي ، سينتشر الاسلام في تلك الاصقاع حتى يشمل أندونيسيا .

وفي آسيا الوسطى ، سيتعرض العالم التركي والصين معا ، لنفس التأثير . فان الفتوحات الاسلامية الاولى ، سيكون من نتائجها اعتناق الترك للدين الاسلامي . وهؤلاء الترك سيتقومون بدورهم بنشر الاسلام في الصين .

وأخيرا ، فقد سلك الاسلام ، من جهة بيزنطة والغرب المسيحي ، الطرق المؤدية من البحر الأبيض المتوسط الى أوروبا الوسطى وحتى البلاد الواقعة على بحر البلطيق . وقد كان انتشار الاسلام في هذا الاتجاه مصدر التقاء للتيارات ومثار تفاعل ، اذا تذكرنا مطامح اسكندرناوة للتوسع ، من جهتها ، في اتجاه البحر الأسود وبحر قزوين .

وجميع هذه المناطق والبلدان ، كانت تشكل آفاقا اقتصادية واسعة لنشاط المسلمين الاستكشافي . وقد ترك الاسلام في كل منها آثارا لا تمحى من الناحية الدينية بانتشار هذا الدين بين السكان ، ومن الناحية التجارية ، كما تشهد بذلك قطع النقد الاسلامية التي اكتشفت في هذه الاصقاع . ومن جميع هذه البلدان كان التجار المسلمون ينقلون سلعا متنوعة يتخذون منها أساسا لتيارات قوية للتبادل التجاري .

وأما مركز العالم الاسلامي ، فهو يقع في المناطق التي تمتد بين الخليج العربي والبحر الأحمر ، والبحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأسود ، وبحر قزوين . وكذلك نجد أن العالم الاسلامي لتلقي في أعضائه منطقتان

اقتصاديتان كبيرتان : المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط . فان هاتين للتقتين اللتين اجتماعا في العصر الهليني ، ثم انفرتا لتشكلا عالمين متنافسين ، الروماني - البيزنطي ، والبري - الساساني ، ستلتحمان وتشكلان وحدة اقتصادية من جديد ، بفضل الفتوحات الإسلامية .

وهذه الوحدة تقوم على أساس علاقات تجارية واسعة بطرق القوافل وبالطرق البحرية ، والعملة الشائعة التداول ، الدينار الإسلامي ، واللغة التجارية الدولية حينئذ ، اللغة العربية . وقد سهل قيام هذه العلاقات ، فتتح العالم الجديد وتقبله للفنون والتقنية وتشجعه لنشر طرق الانتاج في جميع البلدان الإسلامية والمتنافس بين طرق الانتاج البيزنطية والشرقية .

وأخيرا ، كان من أهم العوامل التي سهلت الوحدة الاقتصادية المذكورة عودة ظهور أسواق الاستهلاك الكبرى للتجارة العالمية في المنطقة العربية للبحر الأبيض المتوسط ، في شكل مدن جديدة (الفيروان ونونس وفاس) واتعاش بعض الأسواق القديمة (مثل اشبيلية ولرطة وبلرم) .

فان هذه المراكز الجديدة الواقعة في غرب العالم الإسلامي سترتبط ارتباطا وثيقا بالمراكز الشرقية القديمة المتنافسة لها والتي من بينها مراكز أنشأها الهلينيون ، مثل الاسكندرية واللاكية ، وأخرى بناها العرب ، مثل القاهرة وبغداد .

وهذه الحقيقة الأخيرة جوهرية . فان قيام شبكة جديدة من المدن واتعاش مدن قديمة ، سيد العالم الإسلامي الجديد بامار اقتصادي واجتماعي وثقافي . وكذلك ارتبطت كل مدينة بأخرى بشبكة من العلاقات التي كانت مهمة ، لان المدن كانت تقطع الارتكاز والمراكز المحركة للحياة الاقتصادية في العالم الإسلامي ونحن نلاحظ أن سيطرة المدن

وغوثها كان من الأمور الرئيسية الثابتة خلال الفترة التي ندرسها ، أي بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي . فمن سمرقند إلى قرطبة . كانت الحضارة الإسلامية تتركز على المدن التي يتردد عليها الرجال وتستقبل السلع والأفكار الآتية من كل صوب . وهذه الحضارة الموحدة ، حضارة تركيبيّة تقوم على أساس حضارات أقلّية رفيعة أو بدوية قديمة .

وكذلك تصور العالم الإسلامي . وكأنه سلسلة من الجزر ، التي هي المدن ، ترتبط بينها بالطرق التجارية .

وهذا التنظيم الذي يقوم على أساس أهمية المدن . سيتعرض لضربات قاسية نتيجة للأزمات والاضطرابات والغزوات التي وقعت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر . فإن هذه الأحداث سيكون من نتائجها قطع التيارات الكبرى للتبادل التجاري . وبالتالي خلق المدن وتدهورها .

وفي المرحلة التاريخية التالية ، سيفقد العالم الإسلامي وحدته ويعاني من نتائج انقسامه . وسيكتسي الإسلام طابعا وطنيا فيكون هناك إسلام تركي وإسلام فارسي وإسلام سوري وإسلام مصري وإسلام مغربي . وبذلك نشاهد انقطاعا في الحضارة الإسلامية وظهور العناصر المميزة للأقاليم والتي تركبت منها الحضارة الإسلامية بوضوح .

واعتبارا لما تقدم ، فنسند إلى درس العالم الإسلامي في الصفحات التالية ، (بلدا بلدا) . وسنبحث حالة كل بلد من الناحية الجغرافية : الظروف الطبيعية والأطوار الفيزيقي والبشري ، ومن الناحية الاجتماعية والاقتصادية : تركبة الحضارات القديمة الساقية وامتدادها في الأرض التي نمت فيها ، وعناصر السكان ، والتقنية التي لها ، والأطوار الذهنية والمعتقدات التي دخلت فيها — مع اعتبار التغيرات التي طرأت

عليها تحت تأثير عوامل جديدة ، فبعد فترة وحدة الخلافة : خلافة بني أمية ، التي انتهت في منتصف القرن الثامن ، أخذت الخصائص الانقلابية تظهر وتتلور في إطار الدول والممالك التي يمكننا أن نسميها «قومية» إلى حد ما ، بشرط ألا نقسم هذه اللفظة مدلولاً حديثاً جداً : الأمويون في الأندلس ، والطولونيون والفاطميون في مصر : والطاهريون والسامانيون في إيران الشرقية (6) فهذه الحركة المتميزة والمتنوعة والتي نسميها البعض - خطأ في رأينا - « تقطيع أوصال الخلافة العباسية » ، نقتصر نسيبها بإعادة بناء العالم الإسلامي على أساس « بلاد الإسلام » .



6 - يمكننا أن نضيف إلى هذه القائمة صنهاجة في المغرب ، «المرج» .

القسم الأول

أراضي الإسلام الفضاء والشبكات

الفصل الأول منطقة البرازخ

ستكون جزيرة العرب هي البلد الأول الذي نعالجه ، وهو البلد الصحراوي الذي خرج منه الاسلام . وبعد ذلك تأتي المناطق التي فتحها المسلمون في المرحلة الاولى : مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين .

دور الجزيرة العربية :

لكي نفهم الدور الايجابي ، والسلبى في نفس الوقت ، الذي لعبته الجزيرة العربية في العالم الاسلامي ، يجب أن نتعرض للعناصر البشرية التي كانت تميز الجزيرة في العصر الجاهلي ، ولعمد ترتيبها في الاطار الجغرافي الذي يتكون من الواحات والصحراء التي تستغل بصفة عامة للرعي . ففي الواحات الشمالية الغربية ، مثل بئر (المدينة المنورة) يعيش مزارعون مقيمون ، وجد من بينهم محمد (صلى الله عليه وسلم) أنصاره الأوفياء ، الأنصار الذين سيتكون منهم جيشه في المرحلة الاولى .

وبعد هؤلاء يأتي سكان مدن مكة والطائف وجدة والقريشيون الذين يشتغلون بأعمال المصارف ويمسكون بأعنة تجارة القوافل ، والتجار الذين يبيعون ويشترون عن طريق موانئ الجنوب - موانئ اليمن وعصان . وأخيرا يأتي دور البدو الذين يعيشون في القسم المعمر من

الصحراء الوسطى . وهم يشتغلون بتربية الحيوانات والثقل ويراقدون التوابل ، ويشتغلون بخصائص حرية متناوذة .

فأما الأنصار ، فسرعان ما أبدعهم البورجوازية الملكية ، حينما أدركت أهمية الدين الجديد لتجارها وأنصوت تحت لواء الإسلام ، وقد اعتمد حزب الأمويين في الغزو على قوة البدو الحرة ، أولئك البدو الذين ستركبون لهم الأسلاب والقلائم والذين سيغسسون غودهم السياسي حتى يستقر لهم الأمر في دمشق ، من حيث أنهم سيسيطرون على طرق التجارة وبذلك فقد قلب الجزيرة العربية (العجاز ولجد) كثيرا من سكانه ومن قوته الاقتصادية . وكذلك انصهر البدو تدريجيا في حضارات مدن الشرق القديمة حيث شتمت الناصر المحلية في ملء الدواوين والكتابة باللغة الفهلوية أو اليونانية وتلمب دورا سياسيا في غاية الأهمية .

على أن الحركة كانت لا تزال مستمرة في عهد الأمويين بين شبيبة الجزيرة العربية والبلدان المفتوحة ، وكثيرا ما دفعت السلطات بالبدو المعصاة الى الصحراء . وكذلك قام الخليفة عبد الملك في أوائل القرن الثامن الميلادي بإبعاد قبائل بني هلال وبني سليم الى منطقة قناة السويس (سيناء) حيث كانوا يراققون القوافل ويميشون حياة البدو على السلب والنهب . وأخطأ هؤلاء القوم هم الذين سيطلقهم الفاطميون في منتصف القرن العاشر عشر الميلادي لتخريب افريقية . ومع ذلك ، فإن خلفاء بني أمية حافظوا على صلات عاطفية بالصحراء العربية عن طريق حاشيتهم والمقرين اليهم ، وبسبب تأثيرهم بالشعر الجاهلي الذي يصف حياة الصحراء . وكذلك كان للخلفاء قصور مبنية بالحجر ، ولكنه كانت لديهم أيضا خيم يضيرونها في صحراء سورية ، وبادية الشام . على أن هذه الصلة بالصحراء والبادية ستقطع حينما تولى الحكم العباسيون وأعوامهم من بني خراسان الذين جاؤوا من شرق إيران .

وابتداء من القرن الثامن ، سيتهجر المركز السياسي لشبه الجزيرة العربية التي أمثلتها الدولة الجديدة . وهذا ما وقع بصفة خاصة لمركز شبه الجزيرة التجاري : فإن مكة والمدينة قد كفت كلتاهما عن القيام بدور المركز الرئيسي لتجارة القوافل ، ونظرا لتحويل طرق القوافل البيزنطية والآرامية إلى سورية والعراق نتيجة للفشحات ، فقد فقدت هذه المنطقة دور الوسيط ومركزها التوجيهي القديم . ولما تمت للخلفاء السيطرة على الطرق التي تمر بالبحر الأحمر والطرق التي تمر بالخليج العربي . ابتداء من القرن الثامن ، أحلوا الطرق البرية التي تمر بوسط الجزيرة العربية . فقد كانت السفن في عهد الأمويين لا تزال تفرغ شحنات القمح المصري في ميناء جدة . ولكن شبه الجزيرة العربية أخذت تعاني من التسلل الاقتصادي تدريجيا ، حتى أصبحت في عزلة في العهد العباسي . وكذلك نجد أن شحنات القمح المصري لم تعد توجه إلى مكة والمدينة ، كما كانت الحال من قبل ، بل حوت إلى ما بين النهرين وإلى بغداد ، وقد كان ينقل بواسطة السفن التي تبحر البحر الأحمر والخليج العربي ، حتى ميناء مدينة البصرة . ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه النتيجة السلبية فقد استمر نشاط جاني في الطرق الكبرى في الجزيرة .

ولكن مجالا معيناً استحققت فيه شبه الجزيرة العربية بدور إيجابي ، حيث سبقى محور الحياة الدينية الإسلامية ، بشكة والكعبة ، والمدينة ، وقبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وبالطرق التي تنتمي عند مكة آية من مصر ، وسورية ، والعراق ، والمحيط الهندي ، والحجاسة ، استقبل قلب الجزيرة العربية تيارات متضاربة من الأفكار والمذاهب والديانات ، مثل الزردكية واليهودية ، والمسيحية الشرقية ، والبوذية ، والمقائد السحرية الآنية من بلاد الزوج ، وكلها تجد لها ردود فعل في القرآن . وهذه الطرق

تسما هي التي سلكها النعمون . وهي الآن طرق يسلكها الحجاج .
فالحجاج المقاربة يسلكون الطرق التي تمر بالقاهرة وبرزخ السويس .
والحجاج الإيرانيون يأخذون الطرق التي تمر ببندلا والكوفة .

وحركة الحج الواسعة النطاق تجم عنها الفئاح شبكة جديدة من الطرق
ونيارات اقتصادية من نوع خاص : التجارة التي تتمثل بالحج لتزويد
الحجاج بالمواد الغذائية والنقل والأردية والأشياء التذكارية . ولكن
الحجاج أنفسهم يستغلون موسم الحج ليقوموا ببعض العمليات
التجارية . والحكومة تجني من كل ذلك رسوما وضرائب . وموسم
الحج يستغله البدو أيضا اقتصاديا فالأدهم الخاصة .

وعلى كل حال ، فإن بقاء شبه الجزيرة العربية محورا للحياة الدينية ،
قد أتاح لهذه المنطقة دورا إيجابيا كان بعيدا عن الاستغلال السياسي .
حيث أن السلطة الدينية — الخليفة — إنما كان مقرها دمشق أو بغداد
أو القاهرة . وأما المدن الحجازية الرئيسية فهي لا تعدو كونها أماكن
مقدسة .

والدور الآخر الإيجابي لشبه الجزيرة العربية ، هو أهميتها في تجارة
العبيد الذين يستجلبون من الحبشة والصومال وبلاد الزنج . فإن استيراد
العبيد إلى الموانئ العربية — تلك التجارة التي بدأت قبل الإسلام —
قد استمر والتسع بحيث انتهى إلى مدينة زبيد سوق خاص للعبيد السود ،
في القرن التاسع الميلادي . وكذلك أصبحت المدينة مركزا لتعليم العبيد
الذين يباعون بسر مرتفع ، فنون الفناء والموسيقى والرقص ، وقد
برز بعضهم فنالوا شهرة واسعة . بل أن بعض العبيد الصقالية والهنود
كانوا يرسلون أيضا إلى هذه المدرسة ليتعلموا فن الفناء المدني الذي
كانت له حظوة خاصة عند الخلفاء العباسيين . وهذا الفناء يرافقه نوع
من الموسيقى انتشر في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، ثم ذاع في البلدان
الغربية (الأروبية) أيضا .

وأخيرا ، فإن أول ظهور الحصان العربي المولد من الحصان البربري
والحصان الأيراني ، إنما وقع في مرتفعات نجد حيث وجد السائح
الملائم .

وكذلك نجد أن دور شبه الجزيرة العربية في العصر الإسلامي يتلخص .
فيما يلي :

إن شبه الجزيرة العربية لم تعد طريقا لتجارة المرور (الترانزيت) ،
فهي لا تساهم في تيار التبادل التجاري الدولي إلا بالطرق الجانبية ، وقد
كانت لشبه الجزيرة تياراتها التجارية الخاصة والتي تسلك طرق الحجاج
الذين يقصدون الأماكن المقدسة . وفي نفس الوقت كانت هذه المنطقة
مركزا لتوزيع الرقيق وتربية المييد وتعليمهم . وهي مركز لتربية الخيول
العربية ذات الأنساب المحفوظة لخمسة أجيال .

دور مصر :

يقال عن مصر أنها « هبة النيل » . وقد يكون من الملائم أن نضيف
أنها من صنع الله . ففي هذا البلد يبدو الإطار الجغرافي ذا أهمية خاصة .

فقد شهد وادي النيل قرونا متعاقبة عمل الفلاحين الذي لا يفتر ،
وهم يشيدون ويقومون بصيانة نظام واسع للري يستلزم عبودية وسخرة
جسدية وقواعد محكمة لتوزيع الماء وتجنيدها مستمرا لتليد العاملة ، ونظام
التسخير بدأ في العهد البيزنطي واستمر العمل به في العهد الإسلامي .
وبعض أوراق البردي تشتمل على عدد كبير من الرسائل التي تتعلق
بالسخرة ومصادرة اليد العاملة ، من الفلاحين الذين كانوا دائما على
استعداد للتجنيد والاستخدام .

والمحصولان الرئيسيان في مصر هما ، القمح والكتان . وفي العهد
الإسلامي ، كانت مصر ، وهي إحدى أنهار العالم القديم ، تبعث بشحنات
قمحها إلى مكة والمدينة في المرحلة الأولى ، ثم إلى بغداد فيما بعد .

وأما السكان المصري الذي أثنى عليه بلين (1) في عهد الرومان . فقد ظل يحتفظ بسمته في العهد الاسلامي . ونحن نلاحظ أن القطن الذي كان يزوع في سورية ، لم تبدأ مصر في زراعته الا في القرن التاسع عشر الميلادي ، أي بعد بدء زراعة قصب السكر في وادي النيل بوقت طويل .

وقد امتازت مصر في العصور الوسطى العليا (كما هي الحال الآن) بكثافة السكان في المناطق الواقعة على ضفاف نهر النيل . وقد وصف أحد الكتاب الذين استلقت نظرهم هذه الظاهرة ، الشريط (الأخضر) الذي يمتد على جنبات النهر ، بأنه يشبه شارعاً في إحدى المدن . فالى جانب المدن القديمة الموجودة في هذه المنطقة بنيت مدن جديدة . وموقع القاهرة وحده يشتمل على عدد من المدن التي من أهمها : الفسطاط (القرن السابع م .) المسكر (القرن الثامن م .) القطائع (القرن التاسع م .) ، القاهرة (القرن العاشر م .) . وقد بلغت القاهرة أوج عظمتها في القرن العاشر حينما بلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة .

وكذلك توجد تجمعات سكانية مهمة على طول النهر ، من أهمها قوص وأسوان « حوالي مائة ألف نسمة » الواقعة عند الشلال الأول .

ونهر النيل طريق مهم للمواصلات ، والأرض على جنباته ترتفع باستمرار من الدلتا حتى أسوان ، وتمر فيها طرق للنقل على ظهر الجمال والحصير . ولكن النهر نفسه كان يمتاز بنشاط ملاحى قاصر ، حتى قيل أنه كان يوجد فيه من السفن عدد يماثل ما كان يوجد في بغداد والبصرة مجتمعين . والسفن التي كانت تجري في النيل هي ، إما من السفن القديمة ذات

١ - Plin «الكبرى» عالم طبيعي روماني ولد في نوميديا سنة 23 م . وشرح كتاباً في العلوم الطبيعية يعتبر موسوعة في علوم العصور القديمة ، وقد حققه أثناء ثورة البركان فيزولف في سنة 79 م - تلك الثورة التي دلت فيها مدينة هركانيوم وديوميس . «الترجمة»

الأشجرة المرمية ، أو من السفن الحديثة ذات الأشجرة المثلثة المثلثات
التي تسمى « اللاتينية » : والتي بدأ استعمالها في القرن التاسع الميلادي.
وهذا النوع الأخير من السفن يسمح بالتقاط الريح من قريب ، وهو
عامل مهم في الملاحة النهرية .

والسفن التي تستعمل للملاحة في نهر النيل ، مثل السفن الإسلامية
في البحر المتوسط وفي البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي ،
يتطلب بناؤها كميات كبيرة من الخشب وقد كان لدى مصر في العصر
البيزنطي داران لصناعة السفن . أحدهما في الإسكندرية ، لصنع قطع
أسطول البحر الأبيض ، والأخرى في قليزما ، لصنع السفن التي تسير
في البحر الأحمر .

وأما في العصر الإسلامي ، فقد كان لدى مصر شأن دور لصناعة
السفن . فإلى جانب الدارين السابقين . كانت توجد ثلاث دور في
القضاة « جزيرة الروضة » ، والقضاة والكس في القضاة » ، ودار
في دمياط ، ودار في الرشيد وأخرى في الصالحية على الذراع الشرقي
لنهر النيل . وقد كانت الحاجة كبيرة إلى الخشب لبناء السفن وللبنا
والتشييد في المدن وللإستهلاك الصناعي ، في صناعة الزجاج والخزف
وخصوصاً لمراحل علي عصير قصب السكر - وعلية تنقية السكر كانت
تجري في مصر ، البلد المشهور بنشاط الكيماة في العصر الهليني .

ونظراً للحاجة المتزايدة إلى الخشب . فقد كانت مصر عاجزة عن تحقيق
الاكتفاء الذاتي . وجميع الأشجار في مصر ، بما في ذلك أشجار النخيل
كانت مسجلة . وقد خصص احتكار الدولة لبناء السفن كل جذع شجرة
أو قطعة من الخشب تصلح لهذه الغاية . ومع ذلك ، فإن البلد كان في
حاجة إلى استيراد الخشب من الخارج . فالأشجار قد كان يستورد من

الهند عن طريق نشاط التهريب الذي كان يقوم به تجار البندقية من
شومالي ، بحر الأدراتيكا الجديدة .

والحضارة المصرية التي لا تنك ما بقي يحتاجها من الخشب كان يعوزها
الحديد أيضا . ولسد حاجتها إلى الأسلحة ، كانت مصر تستورد السيوف
الهندية والسيوف الفركية التي تسمى « الفرنجية » . ونظرا لاعتماد
مصر على الاتصالات مع البلدان الأخرى ، فقد كانت حضارتها مرهونة
بالظروف . ولولا مولد مصر من الذهب لما عبرت حضارتها ، وذلك
لأن الخشب والحديد كلاهما جوهري لكل حضارة تعتمد على المدن .

وأما سكان مصر ، فقد كان معظمهم من القبط (وهي نسبة أفريقية
تعني مصري) . ولكن اسم البلد القديم هو « مصر » وبالجمجمة
« مصرم » . وفي المصور الوسطى كان يطلق اسم « بلاد مصر » على
البلد كله ، و « مصر » على العاصمة أيضا .

والتماذج الفيزيائية لسكان مصر ثابتة ولا تكاد تتغير . ونحن لكي
تأكد من ذلك ، يكفي أن نقارن الأنواع الموجودة حاليا بالبحث المخطط
منذ عهد الفراعنة . والفة مصر ، هي اللغة الهيروغليفية التي تطورت حتى
أصبحت اللغة القبطية . وأما الحروف الهيكلية ، فهي الحروف اليونانية
التي حرفت أشكالها بإضافة بعض الرموز . وسكان مصر يشكلون كتلة
واحدة . والنصر الأفريقي فيها كان يقيم خصوصا في الاسكندرية ، وهي
مدينة خارجية تبدو وكأنها انصقت الصاقا بالأراضي المصرية . ولما استولى
العرب على الاسكندرية في سنة 643 م ، هربت منها حاشيتها ومعظم الأسر
الأفريقية ، وبذلك اختفى هذا النصر « اليوناني » الأثيني . ولكنه
في مقابل ذلك بقيت مستعمرات يهودية مهمة لم تندمج في السكان ، ولم
لكن تختلط بالأمم ، في مدينة الاسكندرية ، وفي بلبيس التي تقع على
الذراع الشرقي للدلتا ، وهي منتهى الطريق الآتية من سورية ، وفي

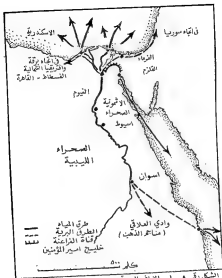
أسوان . وفي جزيرة في النيل تقع مقابل أسوان . وهي المنطقة التي تسافر منها القوافل في اتجاه بلاد النوبة والحيلة والبحر الأحمر وفي اتجاه القنطرة أيضا .

وكما حدث في البلدان الأخرى الفتوحة ، لم يقع أي انقطاع في نشاط سكان مصر الاقتصادي . وكذلك عرفت الحياة الدينية استمرارا ، لأن كثيرا من الفئات التي تعتق الاسلام ، انما تقوم بذلك لغرض من دفع الجزية المفروضة على غير المسلمين ومع ذلك فإن دخل الدولة من الجزية في النصف الثاني من القرن السابع (في عهد معاوية) ، لم يكن يقل عن خمسة ملايين دينار . وهذا الرقم هبط في عهد هارون الرشيد ، في أوائل القرن التاسع الميلادي ، الى أربعة ملايين دينار ، ليعطى مسن جديد بعد ذلك بقليل الى حوالي ثلاثة ملايين دينار فقط .

وكذلك استحوذ مصر في غير عسر من المذهب السني الى الشيعة ، في عهد الفاطميين .

والعنصر القبطي لم يكند يتأثر بالفتح العربي الذي قام به عدد صغير من الغزاة الذين أحسن السكان استقبالهم واحترامهم ، كما كانت الحالة في الشرق ، محررين للبلد وباعثين لنهضة .

كانت الشعوب الخاضعة لبيزنطة تائرة ضد حكم القسطنطينية . وقد اتخذت هذه الثورة في مصر ، ، مثلما كانت الحالة في سورية صيغة دينية : كانت هرطقة المذهب القائل بوحدة طبيعة المسيح تتعارض مع المبادئ الأرثوذكسية التي تقوم عليها الكنيسة البيزنطية الرسمية ، وكانت عواطف أنصار هذا المذهب وطنية ، واعتبرها بيزنطة سلبية . كتب ميشال دو سميرمان في هذا السياق يقول : « لم تكن قائمة صغيرة بالنسبة إلنا أن نتخلص من نسوة الرومان وفتاتهم ، ومن غضبهم وغريرهم الوحشية



علينا . لكي نعلم بالهدوء . والحق أنه لم نفع إليه مقاومة « وطنية » في مصر الخليفة، وأما ثورة الأقباط في سنة 829 — 830 ميلادية ضد المأمون فقد كان سببها أمور تتعلق بالفرائب . ومن ثم ، فهي تعتبر من ضمن الحركات الاجتماعية الهامة التي تسببت عن الظروف الاقتصادية الجديدة والتي شهدتها العالم الإسلامي في ذلك العصر .

وكذلك دخلت مصر ، وهي بلاد ذو حضارة قديمة لم يكن يتسري المنصر البشري فيها أي تغير ، تحت الحكم الإسلامي ، وهي تعاني من النفس في الخشب والحديد .

ولكن اتجاهها الزراعي ذو أهمية عالية ، ولا سيما من القمح وورق البردي والكتان . وقد حملت مصر إلى العالم الإسلامي خصوصاً تقنية النسيج وصناعة السجاد وصناعة ورق البردي الذي كان لا يزال مستعملاً حتى تعميم استعمال الورق في القرن التاسع الميلادي وأخيراً قدمت مصر إلى العالم الإسلامي كنيات كبيرة من الذهب الذي كان مغنياً في قبور الفرانجة — ذلك الذهب الذي استخلص وأدخل في دائرة التدفد المتداول ، وسيطرب منه الدينار المصري الجميل الذي تساوي ثلاثة دنانير منه ، حسب ما يروي فاسري خسرو ، ثلاثة دنانير ونصف من دنانير نيسبور (2) .

بلاد ما بين النهرين وسورية :

إن المنطقة التي تمتد في شكل قوس في شمال الصحراء العربية والتي تشمل سورية وما بين النهرين ، هي التي تسمى « الهلال الخصيب » . وهذه المنطقة لا تتكون من أرض متجانسة ، بل هي عبارة عن مجموعة من الواحات التي تفصل بينها عضاب محصاة وسهوب جافة كثيراً ما تتحول إلى صحراء قاحلة بين حافة عضاب وجبال الأمانسول (سلسلة

2 - راجع :
NASIR, KEOGRAW, SAFERNAME, TRAD. SCHIFER, SAFER NAMES. — Relation de voyage de Nasir Khosrow en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse, pendant les années helgtes, 437-444 (1033-1042), Paris 1888, p. 132.

الجيال التركية المشرقة على البحر الأبيض ، وكتلة الجبال التي تمتد في شرق تركيا) ، وحافة الهضاب والجبال الإيرانية (زغروس ولورستان) والبحر الأبيض (من جهة سوريا وفلسطين) . وأما الواحات ، فهي في معظمها متوسطة الاتساع ولكنها خصبة الأرض بفضل امكانيات الري المتوفرة فيها ، وهي تستلزم عملا كثيرا . ومتى انعمت صيانة التربة فيها ، تحولت الأرض بسرعة إلى سهوب صحراوية (وهو ما يحدث في أوقات اضطراب الأمن) ، وحينئذ تصبح مسرحا ومرعيا للبدو الرحل .

وفي غضون الفترة التي ندرسها ، كانت المنطقة السفلى الواقعة بين النهرين كثيرة الغصب ، بفضل الأعمال الزراعية التي أنجزت قبل عهد الساسانيين . وقد اتست مساحة الأراضي الزراعية فيها بغضل المناطق التي ولدت لها وسائل الري والتجفيف حديثا ، ولا سيما الأراضي الواقعة على جوانب البطائح ، حيث ينصب نهر الفرات ، وفي جنب الكوفة . تلك الأراضي التي يكثر فيها الغصب حاليا ، قالى هذه الأراضي والمستغلات أبعدت قبائل الرط (القجر) بحيواناتها ، التي تتكون خصوصا من الجاموس ، من ضفاف نهر السند (Pindas) وهناك أقاموا بعض الوقت حتى ثاروا على الحكم وقالوا إلى نفوسهم الأناضول السورية « القرن الثامن الميلادي » . وإلى هذه المنطقة أيضا التجأ الزنج الذين قاموا بثورة وقلعوا السلطة في مراكز مسطحة وفي أكواخ مخفية وسط غابة من القصب (3) .

3 - بدأت ثورة الزنج التي استمرت نحو خمسة عشر عاما ، بقيادة رجل ظاهر بالقدرة إلى أن اليك محمد بن محمد بن عبد الرحيم ، في سنة 255 هـ . - وقد نجح هذا المراسي في كسب ثقة السيد الزنج الذين اتفقا سوفا واختاروا مدينة السمرقند مركزا لحركتهم بعد أن طردوا واليها وأمرتهم وأصلوا السيف في أعاليها . ولقد انطلقوا بمطبعة واسعة حشدوا احتلها في سنة 267 هـ ، ولم تكن جيوش الدولة العباسية من الصمود في وجه طائفة الزنج إلا سنة 267 هـ . حينئذ أقر ميم أبو الشيبان الخواري الخليفة الثاني ، وأمرها بتلك الوقت من القضاء على ثورة الزنج في سنة 270 هـ . مراجع : 1- كمال الدين الكرم ، ج 70 من 159 ، - (الترجمة) .

وقد اعتمدت الحكومة في الدولة العباسية سياسة للأصهار والتبعية الزراعية ، تقوم على نظرية أبي يوسف يعقوب ، أحد علماء الفقه والأصول في العصر العباسي (4) . وهذه النظرية تمنح حق الملكية والأغذية من الضرائب لكل رائد يستوطن الأرض اللوات ويعيها ، الأمر الذي نجم عنه اتساع الأراضي المروية والمستصلحة ، ولا سيما في سواد العراق . وقد أخصبت هذه الأرض ذات الثروة السوداء والتي كانت تستغل لإنتاج المواد الغذائية لسكان المدن ، بواسطة الطمي الذي يحمله النهر .

وكذلك عرفت المناطق السفلى الواقعة بين النهرين . والتي كانت مركز الخلافة العباسية ، ازدهارا مدنيا عظيما . وقد كانت بغداد والبصرة والكوفة وواسط وسامراء (5) ، التي كان سكانها يعدون بشرات الآلاف ، من أهم كبريات مدن هذه المنطقة . وكانت أرض سواد العراق ، يخصصها الطبيعي تنصبه الأرض المصرية ، وبفضل عمل الفلاحين والمزارعين وعمال الري المستمر فيها ، تمد هذه المدن جيما بما تحتاج اليه من المواد الغذائية ، ولا سيما من التمر والقصب والشعير ، بل وأيضا بالأرز الذي كان يزرع في المنطقة منذ عهد الساسانيين والذي يستعمل زراعته الى حوض البحر الأبيض المتوسط في العصر الاسلامي . ولكن هذه المنطقة ، على الرغم من خصبتها وفرة إنتاجها ، كانت تستورد القمح من مصر ، والدقيق من سورية .

وكما ذكرنا ، فإن الواحة الواقعة بين النهرين لا تشكل وحدة ، وإنما هي تنقسم الى عدة مناطق ذات خصائص مختلفة ، أولا توجد خوزستان

4 - هو مشنوب بن ابراهيم بن حبيب القاسبي الكوفي ، أبو يوسف 182-113 هـ . صاحب الأمان أبي حنيفة والقيده وأول من نشر مذهبه . كان قنصيا من خلفاء العباسية وأول من وضع الكتب في الأصول . وقد ولي القضاء أيام المهدي والهادي والرشيد ومات في خلافته ببغداد . من أهم كتبه : الفرائع ، د ، الآثار ، دهر سنة أبي حنيفة ، و ، الرد على مخالفة بين الناس ، د ، المرجع .

5 - فتح سامراء التي تسمى أيضا ، سر من رأى ، على الضفة اليمنى لنهر دجلة على بعد 100 كيلومتر شمالي بغداد . وكان المنجم العباسي جو القدر شريفا والعلقة ، جامعة قسمة ، وأهم الفروخ اليوم ، قصر الخوارج ، المترجم .

التي تقع في الجنوب الشرقي لما بين البحرين والتي تشمل حوض فاروژ . حيث كان الساسانيون قد قاموا بتنفيذ أعمال مهمة مثل حفر السدود وقنوات الري تصلح للاستخدام أيضا . ومنذ نهاية عهد الساسانيين كانت هذه المنطقة تنتج كميات كبيرة من قصب السكر . تلك النبتة التي استجلبت من الهند والتي استوعل في الاتجاه الغربي في العصر الاسلامي . وقد كانت منطقة خوزستان أكبر مورد للسكر الى جميع بلدان المشرق الاسلامي . وكان هذا السكر يشمل مختلف الانواع . ومنها البني . والسكر الشوب الذي نثره حاليا . والسكر الشفاف الذي أمكن انتاجه بفضل التقدم التقني الذي حققته مصر . وأما اليد العاملة في مزارع قصب السكر . فقد كانت تتألف من العبيد الزنوج . الذين يستجلبون من شواطئ الرقبة الشرقية وينقلون عن طريق جنوب شبه الجزيرة وعسل والشوالملي الايرانية . مكران - كيرمان : يصلوا الى خوزستان .

وأيضا بعد ذلك سواد العراق الذي يستند بين البطائح وخط ينطلق من تكريت الى هيت . وهذه المنطقة عبارة عن حقول على مد البصر ينضجها القمح والسمير والأرز وأشجار التخليل .

وأخيرا تأتي المنطقة العليا لما بين البحرين (الجزيرة) التي تشمل سلسلة من الواحات على طول دجلة (الموصل وآمد وديار بكر) والخابور حتى منطقة نهر الفرات . وهذه المنطقة في الوقت الحاضر ، عبارة عن سهوب قاحلة يجوزها العرب الرحل طلبا للرعي . ولكنها في العصر الاسلامي ، كانت عامرة بالسكان المقيمين .

والاقتصاد الذي اشتهرت به هذه المنطقة عند الجغرافيين العرب ، هو قطن الخابور الذي كان يصدر الى الموصل ، ثم الى بغداد ، حيث كان

يمزج بالحبر وتُصنع منه الأقمشة البغدادية المشهورة ، أو إلى الخلائط وغيرها من مراكز صناعة النسيج في أرمينيا .

ومزارع القطن كانت تروي بواسطة قنوات حفرت تحت الأرض ، ونظام الري هذا مأخوذ عن آسيا الوسطى .

وبعد ما رفعت الحدود التي كانت تفصل بين الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الساسانية التي أصبحت تشكلان العالم الإسلامي ، أمكن تكيف القطن وزراعته في الشمال ، ثم في جنوب سورية . وهذه المنطقة أصبحت في العصور الوسطى المورد الرئيسي للقطن لجميع بلاد البحر الأبيض المتوسط .

ومن منطقتي الفرات حتى مرتفعات الأرض السورية : تمتد سهوب ومرابي ، ولكن الأرض في الاتجاه الجنوبي تصبح صحراوية تدريجياً (بادية الشام) ، ولو أن تربية الحيوانات أمر ممكن دائماً بالاتّجاع بين جوانب بادية الشام (في الصيف) ووسط المنطقة (في الشتاء) . وتربى في هذه المنطقة ، خصوصاً الجبال التي تستعمل للتعليق .

وهذه المنطقة مركز مهم للاتصالات تنطلق منه شبكة من طرق المواصلات في شكل مروحة . فعند هذه المنطقة ينتهي طريق للملاحة البحرية من المحيط الهندي والملاحة النهرية عن طريق دجلة ثم الفرات وتُتصل بسورية الشمالية ، والطريق البرية التي تربط إيران وبغداد ، مارة بمنطقتي الفرات في سورية قسماً . (6)

وسورية ، مثل بلاد ما بين النهرين ، تتكوّن من عدد من الواحات الغنية الخصبة ، تتلقى كميات معتبرة من المطر الذي تحمله الأمطار الغزيرة التي تحفر مجاري وتقتلع الأشجار ، وهي تهبط سيولاً من كل

6 - راجع المرفقات المرفقة بكتاب :

R. BOUSSAUD, *Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale*, Paris, 1927.

الحصى والصخر المرتفعة . ففي كيليس ، أصبح من الممكن زراعة المحاصيل الاستوائية ، بفضل توفر وسائل الري . وأهم هذه الزروع هي قصب السكر والقطن . وفي البقاع تصلح زراعة القمح . وكذلك تزرع المحاصيل الاستوائية في الغور ، في الأردن . وأهم هذه الزروع هي قصب السكر والقطن والأرز الذي أدخلت زراعته إلى المنطقة في العصر الإسلامي .

وأما واحة دمشق التي تروي منطقتها المياه التي تهبط من الجبال التي تفصل بين سورية ولبنان ، ومن حرمون (جبل الشيخ) فهي عبارة عن حديقة غناء واسعة الأرجاء (القوطة) ، تختلط فيها أشجار الجوز بأشجار التين والزيتون وغيرها من أنواع الثمار . وقد كانت المربى التي تصنع في دمشق تنتج بسعة عالية في المصور الوسطى . وكانت تصنع من الثمار الدمشقية وتطلى بالسكر السوري . وبالمثل ، كانت الشواطيء السورية عبارة عن ولحات من الحدائق ، ولو أنها تمتد على مساحات محدودة ، وذلك لأن كثلا جبلية تهبط فجأة إلى البحر . والشواطيء السورية عبارة عن شريط من السهول كبيرا ما تقطعها الجبال .

وهذه الشواطيء تنتشر فيها المراسي التي كان يتردد عليها البحارة الفينيقيون ثم البحارة الهلينيون والرومان والبيزنطيون ، وأخيرا البحارة المسلمون . ودور صناعة السفن ، تلقي الخشب الذي تنجبه سورية الشمالية ولبنان . وهذه الشواطيء ، تشكل واجهة البحر الأبيض المتوسط للبلدان الواقعة على الخليج العربي .

ومن الناحية الديموغرافية يعتبر سكان سورية امتدادا لسكان بلاد ما بين النهرين ، وهم من الناصر السامي ، وذلك فيما يتصل باللغة والعادات والتقاليد واطار التفكير على السواء والسوريون يشكلون حافة العالم العربي ، والبوقة التي انصهرت فيها العناصر السامية التي خرجت من شبه الجزيرة العربية في عدة موجات ، كانت آخرها هي الغزو الذي وقع

في القرن السابع الميلادي . ففي سورية تتعايش جنبا الى جنب فئات من السكان غير الآريين الذين جاؤوا اليها حديثا من شبه الدائرة التي تشكلها الجبال الشمالية (آسيا الصغرى وأرمينية وإيران) ، بل وتوجد فيها جميع العناصر التي توجد في افريقية وآسيا . وذلك لأن سورية كانت مفتوحة وتشكل ممرا تتنوع مختلف العناصر بالجذب خاص الى مدنه الكبيرة ذات الحضارات القديمة ، والسكان ذوي المنشأ الاجنبي والمتعددي الاصول . وهؤلاء السكان يستعينون بالرقيق وبالجنود المرتزقة من مختلف الألوان والفئات ، من الآتراك السود والصقالية . للقاعدة اذا هي من الساميين ولكن ليارات عديدة جديدة من السكان اختلقت واقدامت فيهم مع مرور الزمن ، وقد زاد اختلاط العناصر ، خصوصا ، في العهد الاسلامي .

ولكن اللغة ستظل العامل الأكبر في هذا الاختلاط . وهنا لا بد من أن نلاحظ السهولة التي يسكن الانتقال بها من لغة سامية الى أخرى ، بسبب الاصل الثلاثي الصوت الذي تحتفظ به الكلمة حتى حينما يكون النطق مختلفا .

والسوريون الذين كانت آفاق النشاط الشرقية مغلقة في وجوههم في العصور الوسطى بسبب « الحائط » الساساني ، تحولوا الى البلاد الغربية التي يسيطر عليها البرابرة . وقد استمر الامر على ذلك حتى استنزف الغرب احتياظه من الذهب . وهذا الشعب سيجه مجالا فسيحا لنشاطه الاقتصادي في المناطق التي وحدها الاسلام . وهذه المجموعة من العناصر ستجه الآن من جديد بنشاطها نحو بلاد ما بين النهرين وهنا ، كما هي الحالة في المحيط الهندي ، سيغفل اليقافة والساطرة في منافسة وكذلك التحم العالم الأرميني بالغطيج العربي والبحر الابيض المتوسط ، وأصبح يند في اتجاه الغرب شبكة من العلاقات الاقتصادية والثقافية .

وضمن هذا التقارب سيحصل في طياته منافسة واصطداما ، بل وتفصلا خصوصا بين الجانب السوري وما بين النهرين في المنطقة .

كانت دمشق عاصمة الخلفاء الأمويين . والمدينة تقع على حافة بادية الشام . ونظرا للشورات وحركات المضيان التي كانت تضطرب بها منطقة ما بين النهرين ، ولا سيما الكوفة والبصرة ، فقد رأى آخر خلفاء بني أمية ، مروان الثاني ، نقل العاصمة من دمشق الى حران ، في المنطقة العليا بين النهرين .

ولما اتصر العباسيون ، لم يختاروا دمشق عاصمة لهم . فإن نفوذ الأيرانيين ، والقوات العسكرية الخراسانية ، والمستشارين الذين جاءوا من إيران الشرقية ، والبرامكة ، وجعوا كفة اختيار منطقة ما بين النهرين لاقامة أسس الدولة الجديدة . وهذه المنطقة التي تنتمي إيران ، آرامية ، ولكن التقاليد الأيرانية قد استقرت فيها منذ عهد الساسانيين . وبعد محاولات لبناء عاصمة قام بها الخليفة العباسي الأول ، أبو العباس السفاح ، وكلها جرت في منطقة الألبار ، حيث ينصب نهر عيسى في الفرات ، قام الخليفة العباسي الثاني ، المتصور ببناء بغداد على الطرف الآخر من نهر عيسى ، حيث ينتهي نهر عيسى الى دجلة . والأرض التي بنيت عليها بغداد ، كانت حينئذ عبارة عن عدد من القرى ودير للنساكرنة

وأما سكان العاصمة الجديدة ، فقد جيء بهم من مختلف أنحاء المملكة ، ولكن الأصل المتخلف فيهم آرامي . وعن طريق نهر عيسى ونهر الفرات ، وعن الطريق التي تصل بالس إلى النطاكية ودمشق والقدس ، أمكن أحداث وصلة بين مركزي العالم الاسلامي ، بلاه ما بين النهرين وسورية .

12

13

14

15

16

الفصل الثاني العالم الإيراني

إذا خرجنا من العالم السامي الذي يتحدث اللغة العربية والآرامية ، تلك المنطقة التي شأهدت الانتصارات العربية ، وإذا خرجنا من منطقة البرازخ التي شهدت في جميع الأزمنة تنافساً بين طرق الخليج العربي وطرق البحر الأحمر ، بدت لنا النجود الإيرانية كما لو كانت عالماً آخر ، يسكنه خلق آخرون يتحدثون لغة أخرى ويمشون في إطار حضارة تختلف تماماً عن الحضارة السائدة في المنطقة السابقة .

تطوُّد دود ايسران

كانت إيران في العهد الساساني تشكل وحدة مع ما بين النهرين . وأما عاصمة الساسانيين فقد كانت أكتريفون التي تقع في أرض آرامية . ولكن تيارات التبادل (الحروف الهجائية والألفاظ اللغوية والمهارة التقنية والأفكار) كان قويا بين المنطقتين .

والفتح العربي الذي سار على طول الطريق التي تربط ما بين النهرين بإيران وآسيا الوسطى ، والذي طرد آخر الملوك الساسانيين ، كان أشبه ما يكون بنزعة ممتدة . فبعد احتلال ممرات ومضائق سلسلة جبال آسيا الغربية التي تشرف على إيران وما بين النهرين والخليج العربي ، تم للعرب الاستيلاء على الواحات والمدن التي تمتد على طول طريق القوافل

التي تسامر وادي ديبالي ، والاتصار في معركة نهاوند في سنة 642 م
وقتل يزدجر الثالث في مرو ، في سنة 652 م .

وقد شهدت الخلافة الأموية ، استقرار قواعد جدد يثقلون استعماراً
حقيقياً للأرض من الجنود الذين كانوا يقيمون في البداية في أحياء تبني
بجانب المدن القديمة الأهلية ، وهي عبارة عن مدن صغيرة قائمة بنفسها
ولها قلاعها ومساجدها وأسواقها الخاصة بها وكذلك تكونت مناطق
سكنية مزدوجة : المدينة القديمة الأهلية التي تؤدي إليها أربعة أبواب
(وتسمى بالفارسية : شهرستان) وبجانبها مدينة من مدن الفواحي (تسمى
بالفارسية : بيرون وبالغربية الريض) ، وهي مدينة الجنود القواة . وهذا
الازدواج للمدن واضح ولاسيما في خراسان وفي ماوراء النهر وفي مرو ،
وبخاري وسمرقند . وهذا التجميع بلغ في بعض الحالات ، مثلما في بلخ ،
حداً قامت معه مدينة ثانية منفصلة ، على مسافة بضعة كيلو مترات من
المدينة القديمة .

كان الأنصار الأوائل للدولة العباسية ومستشارو الخلفاء الأوائل
ينتمون إلى شمال شرقي إيران ، خراسان وما وراء النهر . وفي عهد
بني العباس ، انتهت حركة استعمار الجنود للأرض وحل محلها اتجاه
معاكس . فقد أصبحت إيران مركزاً قوياً للقوة وذا تأثير خطير
النشأ في جميع أنحاء الشرق الإسلامي وقد رافق صعود القرامطة
السياسي انتشار اللغة الفارسية والأدب الفارسي . ففي أواخر القرن
العاشر وأوائل القرن الحادي عشر وضع الفردوسي ، ككتاب الملوك
« الشهنامة » . بل أن القرامطة كانوا يبدلون جهوداً لنشر اللغة الفارسية
بين الترك في آسيا الوسطى وفي الهند . وهذه الجهود تستمر حتى
عهد كبار المنغول .

وقد ظهرت محاولات نشر النفوذ والثقافة الفارسية بين الفراء
 الساميين ، خصوصا على مستوى المدن . فقد انتهى عهد المدن
 المزدوجة وأصبح الاتجاه الآن الى توحيد المدن التي كانت تعاني من
 ظاهرة الانفصال . وكذلك أصبحت « شهرستان » كما تسمى المدينة
 الموحدة بالفارسية مقرا للحكومة ومركزا للإدارة (قصر الحاكم
 والكتائب الإدارية) والنشاط الاقتصادي (الأسواق) والسبني
 (المساجد الكبيرة) .

وفي ضواحي المدينة القديمة وعلى جنباتها ، كانت تبنى أحياء
 شعبية جديدة (بدلا من مدينة منفصلة) . وفي نفس الوقت أصبحت
 مقرا لأسر الأمراء التي تتمتع باستقلال نسبي عن بغداد ، بتصورها
 ومظاهر أبنيتها وسائلها لنشر النفوذ والثقافة الفارسية . وبذلك استقر
 نفوذ النخبة الإيرانية وسيطرتها على طول طرق القوافل المؤدية الى
 الغرب والمؤدية الى الشرق والجنوب .

البلاد الإيرانية :

إيران بلد واسع يتكون من صحراء مشبعة بالملح ومن سهوب قاحلة
 وجبال عارية ، بالإضافة الى بعض المناطق الخصبة التي تشبه واحات
 من الحدائق والعيان المروية . وبالتقياس الى السهوب والصحراء ،
 تعتبر هذه الواحات جنان وارفة الظلال . في قلب الواحة ، تقوم ،
 عادة ، مدينة كبيرة تزين جنباتها حدائق غناء ، تسري بنظام للسري
 يتكون من قنوات مدلت تحت الأرض ، وذلك تخاديا لتبخر كلاء فيها
 تحت تأثير حرارة الشمس .

وقد شاهد العصر العباسي الذي كمل الأعمال الكبرى التي بدأها
 الساسانيون ، نموا كبيرا في المساحات الزراعية المروية ، الأمر الذي
 سمح بازدهار المدن الموجودة وبناء مدن جديدة وهذا النظام الإيراني

للري سينتقل عن طريق الصحراء والواحات ليصل الى جنوب الجزائر « فجارة » وجنوب المغرب الأقصى « خماره » بل ان قبائل الطوارق التي وصل اليها هذا النظام يسمونه « النظام الايراني » (1) .

وهذه الواحات تمتد عند اقدام الجبال الداخلية وسلسلة جبال آسيا الوسطى التي تقسم البلد الى منخفضين صحراويين . والمياه النازلة من الجبال تحبس بمثابة لتتجمع بها مراكز العمران المجاورة ، وهي عبارة عن سلسلة من المدن التي تستخدم محطات الطرق القوافل . وفي هذه الطرق تسير جبال ذات سنامين ، تربي في منطقة بلخ ، احدى حواصم خراسان ، والحياد الايرانية التي تحمل على متنها فرسا منجحي السلاح من النوع الذي تمثله النقوش البارزة في آثار الساسانيين . والمشتغلون بتربية الجبال ، ومعظمهم من الأكراد ، يحتلون حافات الهضبات التي تهبط الى ما بين النهرين . وكردستان ولورستان ، وهي أراضي ينتجها البدو الرحل ، كانت دائما تحتفظ باستقلالها تجاه الدول الكبيرة والادارات البيروقراطية التي تحتل السهول المجاورة ، مثل قدماء ملوك الفرس والساسانيين والخلفاء . وقد كان هؤلاء الأقوام الذين يحيى من غائلتهم تنظيم الأمن العام في السهول ، دائما مصدر تهديد بغزواتهم لهذه المنطقة . وكذلك نجد منطقة واسعة للرعي غير خاضعة للتأتون — كما هي الحالة اليوم — تمتد بين سهول ما بين النهرين والهضاب الايرانية ، وتفصل بين البلدين .

وللنفوذ الى هذه المنطقة ، كانت توجد ثلاث ثغرات ، وهي متهي طرق القوافل ومحطات الأمن العام أولا ، توجد الطرق المؤدية الى أرمينيا مارة بسوادي دجلة وبثلى Bile ثم بجزيرة ابن صر ، الى

1 - راجع :

H. GABLOT : Dans l'ancien Iran, Les Techniques de l'eau et de la grande hévorie Annales H.S.C., 1943, pp. 499-519.

أخلاق ، وثأيا الطريق الكبرى المؤدية إلى إيران من بغداد مارة بوادي
ديالي ، وتصل إلى كرمانشاه وهمدان ، ومن هناك تتجه إلى زنجان
وأذربيجان وأرمينيا ومدينة أطرازلند ، أو إلى أوان ، ودرند (باب
الأبراب) وآمل ، وأخيرا توجد الطريق التي تخترق « الجبال » وتصل
إلى الري (طهران) ومن هناك تتجه عن طريق خراسان نحو آسيا
الوسطى .

وكذلك يوجد خط للسير يؤدي من بغداد إلى خورستان وإلى فارس
(شيراز) .

ومن الجنوب الشرقي أيضا ، يجد إيران حاجز من السكان البدو
وسكان الجبال المصاحبة لهم البلوتش (سكان بلوخستان) والأفغان الذين
تلقهم الساسانيون من آسيا الشرقية إلى هذه المنطقة . وهنا أيضا ، لا تمتد
الطرق التجارية ومراكز الحضارة وال عمران ، إلا في شريط ضيق من
الأرض تحرسه عدد من القلاع والحصون : بلخ وهراة ، وقندهار ،
وغزنة ، وكابل .

وكذلك يجب أن نذكر في إيران ، بين سكان أطراف الجبال والأخاديد
الوسطى ، وهم من الرحل الذين يعتمدون في معيشتهم على الرعي ،
وسكان المنخفضات الصحراوية وخط الواحات الذي يمتد ، أما في
الداخل على حافات وسفوح الجبال ، أو في الخارج (إيران الخارجية) :
خورستان ، وأران (الأراضي « ريشية » التي تقع جنوب الفوقاز) ،
وطبرستان (الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين) ، وأ الواحات الواقعة
في آسيا الوسطى : مرو ، وما وراء النهر ، وخوارزم (دلتا نهر
أموداريا « جيحون » ، عند بحر الأرال) .

وكانت الدولة الساسانية قد أقامت في ولايات النفوذ أربع حكومات

مدينة أو عسكرية . وكانت هذه الولايات هي أذربيجان التي تمتد في الشمال الغربي ، وقارس ، التي تقع في الجنوب الغربي ، وسجستان ، في الجنوب الشرقي ، وخراسان ، في الشمال الشرقي . وهذه الولايات تتفق مع ثلاثة الممالك الكبرى : فان باب أذربيجان يفتح على أرمينيا والقوقاز ، وباب زغروس يفتح على ما بين النهرين ، وباب قندهار يؤدي إلى الهند ، وباب خراسان يوصل إلى السهوب التورانية وآسيا الوسطى والصين .

وهذا التقسيم قد احتفظت به الدولة العباسية في العصر الإسلامي .

أذربيجان :

أذربيجان بلد جبلي يشكل استمرارا لأرمينيا ووصلة مع الهضاب الإيرانية ، وهي منطقة جبلية جافة في الداخل ، ولكنها تزرع الرطوبة على المنخفضات والسهوب المجاورة التي تصبح خصبة بمجرد ما تتوفر لها وسائل الري . وأذربيجان تشكل أيضا ممرًا يمر به الطرق التي تتجه نحو أرمينيا حتى ألماتوند ، ثم إلى همدان وبلاذ ما وراء النهر . ودور أذربيجان التجاري كان دورا عظيما . وقد كانت أسواق ومعارض كبيرة تعقد في تبريز . وإلى الشمال ، تقع برذعة ، في آران ، وهي تشكل إحدى الثغور المتقدمة للدفاع عن إيران في الغرب ، بسفيق باب الأبواب .

وباب الأبواب يفتح في سور ذي غواصل من الرصاص الذائب بين شح غزوات سهوب الخزر والتوران .

جنوب بحر قزوين :

يفصل حاجز شيق ولكنه مرتفع إيسران عن جنوب بحر قزوين ، وهو كتلة جبال البرز ، حيث يوجد بها بركان يقع على ارتفاع ما يقرب من 6000 متر عند ، دماقند (Damasend) وعند السفوح الجنوبية لجبل البرز ،

تنتشر الواحات ، تستخدم محطات على الطرق التي تسر برزجان وقزوين والسري ودامجيان وبسپام . وأهم هذه الواحات هي السري . وفي هذه المنطقة يجري نهر ، نهر كزيل أوزن ، ينصب في بحر قزوين ، بعد ما يخترق سلسلة جبال تسير موازية لها طريق تؤدي من الهضبات إلى ميناء آمل ، على بحر قزوين . والسري كانت مستودعا كبيرا للسلع التي تحملها القوافل التي تسير في اتجاه خراسان وفي اتجاه بغداد وفي اتجاه فارس . وهذه المدينة المشهورة بصناعة الخزف تحتل مكانة مهمة في عالم التجارة والثقافة .

وفي القرن الثالث عشر ، اختفت السري وتضاءل دورها ، لتحل محلها طهران التي كانت إحدى ضواحيها . وقد لعبت الري دورا هاما ، خصوصا ، خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر ، يشهد به ما وراء ابن خردذبه ، في منتصف القرن التاسع الميلادي . قال الري كان التجار الروس ، أي الصقالبة والسكندنبايون ، يحملون السيوف والفرار . ولكن هؤلاء الروس ، أو المجوس ، كانوا يقومون أيضا بغارات نحو الجنوب للذهب والذهب .

وقد كانت برزعة ضحية لهذه الغارات مرتين في النصف الأول من القرن العاشر ، في سنة 913 م . وفي سنة 944 م .

وفي شمال البرز ، تمتد حافة ضيقة يكثر فيها الطمي ، على ضفاف بحر قزوين ، ولكنه لا يوجد في هذه المنطقة سوى عدد صغير من المراعي النخبة . وهذه المنطقة تمتاز بطقسها الحار والرطب وببواثها الوحش ، بحيث كانت طيرستان تعرف ببلد الحصى . وهذه أيضا هي الحالة في جيلان ومزندران والديلم . وفي الطابات الواسعة ذات النباتات الغزيرة التي تنتشر في هذه المنطقة تعيش الثور والحمور .

وأما الديلم ، فقد ظل عبودا طويلا مستودعا للاحتياطي من الرجال :
 المييد والجنود المرتزة وحرس الخليفة . ولم يستقر الاسلام في الديلم
 الا في اواخر القرن التاسع الميلادي ، وكان ذلك خصوصا بفضل الدعاة
 العلويين . ومنذ نهاية عهد الساسانيين ، أدخل الى الديلم عسك من
 الزروعيات : الأرز ، والقمطن وقصب السكر ، والبرتقال ، وشجر التوت
 « صناعة الحرير » . وقد شجع الخلفاء المسلمون هذه الزروعيات
 التجارية والصناعية فعمرت ازدهارا كبيرا ، أدى بدوره الى ازدهار
 حياة المدن .

— ونحن نذكر بأن هذه المنطقة كانت مرحلة هامة في انتشار تربية دودة
 الحرير من آسيا الوسطى نحو أذربيجان واران وأرمينية ، ولكن طريقا
 قد أوصل هذه التقنية الى سورية الشمالية أيضا ، تحت الامبراطور
 أجوستينيان الأول ، في القرن السادس الميلادي . ومن سورية الشمالية،
 توغلت تقنية تربية دودة الحرير في جميع المناطق الملازمة على ضفاف
 البحر الابيض المتوسط في العصر الاسلامي .

— خراسان :

تشتمل منطقة خراسان على عدد من الجبال التي تربط البرزبامير *Pamir*
 ولكنها قليلة الارتفاع (أقل من 3000 متر) وبين تفرجات هذه الجبال ،
 نجد كثيرا من المنخفضات التي يسهل المرور منها ، ولاسيما ، على
 « طريق الحرير » المتجهة الى آسيا الوسطى ، والتي كانت أيضا الطريق
 التي سلكها كبار القزاة الذين يأتون من الشرق (الأتراك والمنغول) .
 وخراسان تحمي إيران من الشرق ، كما تحميها أذربيجان من الغرب .
 وخراسان عرفت بالتنظيم العسكري (مرزبان) الحكم . فمن هذه
 المنطقة انطلقت حركة بني العباس في القرن الثامن الميلادي ، بتأييد جيش

خراساني . وعند أقدام الجبال ، تنتشر المدن التي تحيط بها حقول
وغياض خصبة تنتج الأرز والقطن ، وخصوصا الحبوب .

وأما المنطقة الغربية من خراسان التي تقع فيها نيسبور وطوس (مشهد) .
فقد كانت هسري جميع إيران الشرقية . ومدن هذه المنطقة مهمة .
ومن أهم هذه المدن التي لعبت أدوارا كبيرة ، حسبما تقول الرواية
الآيرانية التي ردها القردوسي في الشهامة ، بلخ (بكتسر) ومسرو
(مرجيان) وهسرات (أرسا) . ولكنه يجب أن نضيف إلى هذه المدن
الثلاث نيسبور ، أو « شبور الجديدة » .

وبلخ تقع مقابل مجرى نهريجيون (أموداريا) وماوراء النهر وعند أقدام
الكتلة الجبلية التي تمتد بين بامير وكوان لوان (مضائق باميان وكابل
وبشاور) . ومن هذه الممرات والمضائق يمكن الدخول إلى الهند عن
طريق قندهار وكابسا ، وهما مملكتان الغريقتان بوذيتان ، يترج فيهما
تأثير الثقافة الآيرانية والثقافة الهندية .

ومن هذه المضائق تمر الطرق التجارية التي تربط إيران من جهة
وتوران والهند ، من جهة أخرى . وهذه الطرق هي التي سلكتها
جيوش الغزاة والدعاة والبشرون وتوغلت منها مختلف أنواع النفوذ ،
ومنها دخلت البوذية من الهند إلى إيران ، وبما كان يسر الحجاج
الأتون من الصين ، مثل هيوان تسانج (629 — 645 م) .

وعند مضيق باميان ، كانت تقع تائبيل منحوتة من الحجر الصلد
ليوذا .

وعلى هذه الطرق ، في بلخ ، كان يوجد دير بوذي كبير يكاد يكون
مدينة مستقلة بنفسها ، يسمى « الدير الجديد » كان يشرف عليه كاهن
كبير ، أو « بومكا » . وبعد الفتح الإسلامي ، اعتنق هذا الكاهن

الإسلام وحولمتلكات ذيره الى الدولة . وهذا هو أصل البرامكة الذين كانوا أمراء ومستشارين لأوائل الخلفاء العباسيين .

وكذلك دخلت الى بغداد العادات والتقاليد التي كانت سائدة في شرق ايسران والهند والصين مع البرامكة وغيرهم من ذوي النفوذ من أبناء هذه المنطقة . وكان جعفر البرمكي أول من أدخل الورق رسميا في مكاتب الدولة وأسس مصنعا لصنع الورق في بغداد في سنة 794 - 795 ميلادية ، في عهد هارون الرشيد . وقد كان هذا المصنع نواة لسلسلة من مصانع الورق انتشرت في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وكان أول ما ورد ذكر الورق في مصر ، سنة 796 ميلادية .

ومسرو (ماريجان) عبارة عن واحة في عرض الصحراء وهي مرحلة مهمة في طريق القوافل التي تسير بين نهر أموداريا وايسران . ومسرو في هذه المنطقة تشبه في وضعها تدمر في سوريا .

وأما نهر جيحون (أموداريا) ، فكان يقطع في تشارجوي (آمل) في اتجاه بخارى وسمرقند .

ونيسبور التي هي مدخل إيران من الشرق ، كما أن أنزويجان مدخلها من الغرب ، كانت ، مثل المدينة الاخيرة ، مدينة تجارية كبيرة بل أن نيسبور ستصبح في القرن العادي عشر الميلادي ، بعد ما فقدت بغداد كثيرا من مكاتها ، أهم من بغداد نفسها ، من الناحية الاقتصادية وأكثر منها سكانا وأوفر حراة . وقد اتخذها السلاجقة عاصمة لهم . ولكن المنغول غلبوا عليها وأصبحت اليوم عبارة عن قرية لا يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة .

وقد حل محل نيسبور مدينة مشهد (طوس) التي يوجد فيها ضريح الإمام الثامن علي الرضا ، مزار الشيعة الأيرانيين . والجبل الذي يندب نيسبور ومشهد يحتوي على معادن مهمة : الفضة ، وخصوصا الرصاص .

وهذه المنطقة يخرقها عدد من الأنهار التي تنزل من جبال الكتش
الجرداء وتروي مناطق خصبة .

وأما هراة (اسكندرية آسيا) (2) ، فهي مدينة تجارية كبيرة .
تقع على طرف مستديرة تمر ببلخ ، ومسرو ، وهراة ، وقندهار ،
وغرة ، وتحيط بمنطقة الكتش القريبة لكهط الى حوض كابل ووادي
السند (Indus) . وهذه المنطقة أيضا مهمة بمعادنها الحديدية التي تقع
غير بعيد من هراة ، والتي كانت تستغل طبقا للطرق القديمة المعروفة
في الهند لصناعة التولاذ ، وخصوصا الصنع أسلحة تصدر الى الخارج .

بوجستان :

تتشكل سجستان على منطقتين مختلفتين : سلوح جبال الكتش
الجنوبية ، حيث تمر الطرق التي تصل بين قندهار وهراة و مرو وبلخ ،
وهي منطقة مفضلة بطرق مواصلاتها الكبرى . فأما قندهار التي تروي
تربتها المياه النازلة من الجبال ، فنطلق منها الطرق التي تتجه الى
الجنوب الشرقي ، لتصل الى الهند وتنتهي عند قنديل المشهورة بتربية
الجمال البكرية . والمنطقة الثانية ، هي الحوض الصحراوي الذي يحيط
بحيرة تستغل مياهها الري ، وحيث ينصب ذراع دلتا تغير مراكز
العمران فيها باستمرار . وفي هذه المنطقة موقع للحفريات أسفر التنقيب
فيه على نتائج معتبرة . والمنطقة خصبة بفضل شبكة واسعة من أعمال
الرياء . وهي مشهورة خصوصا بإنتاج القمح بحيث تعتبر هذه الواحة
مغزنا ومستودعا للحبوب لتموين المناطق الواقعة في الجنوب الشرقي .
وكذلك تسمح المراعي الواسعة الموجودة فيها بتربية اللرباني الهندي (3).

2 - هراة هذه هي التي يطلقها الشاعر الفري حين يقول :
هراة أرض غنيها واسع ينسرج في يده ما يلقى
ما أسعد ملحا الى قومها ينسرج في يده ما يلقى

3 - الترجوم .

3 - حيوان الفري من القفلة البقرة على طريقة مقام واحد . الترجوم .

وقد كانت هذه البلاد تتمتع بكثير من الرخاء ، وكانت زراعت مركزا لل عمران فيها . ولكن تيمورلنك غرّب هذه المدينة في سنة 1384 ميلادية وقضى على نظام الري فيها . وأثر ذلك ، أخذت حالة البلد تتدهور تدريجيا . وهذا يدلنا على مدى ضعف الأسس التي يقوم عليها رخاء يعتمد قبل كل شيء على نظام الري يستلزم عملا منتظما جماعيا يجري تحت إشراف ومراقبة دقيقة .

مكران :

تتمتد منطقة مكران في أقصى الجنوب على شواطئ بحر عمان ، وهو بلد صحراوي قاحل لا يكاد يصلح للحياة . فإن سلسلة من قسم الجبال يصعب المرور فيها تمزل عن داخل البلد مكران ، وبعض موانئ صيد السمك التي تقع على شواطئه والتي هي مراكز صغيرة للملاحة بين الخليج العربي وشمال الهند . وأما واحات مكران الساحلية ، فينبو فيها النخيل والقطن . وهذه الواحات لعبت دورا مهما حيث كانت مرحلة لنقل زراعة قصب السكر من الهند إلى ما بين النهرين . وفي داخل المنطقة ووراء حاجز الجبال ، تسر طريق تؤدي إلى أسفل وادي السند ، وهي منطقة جافة لا يقصدها إلا القليلون ويسكنها خلق لا يزالون على الطبيعة الأولى (البالوتش) . ومع ذلك ، فإن الجيوش الإسلامية الأولى اجتازت هذه المنطقة في طريقها لفتح وادي السند . وبعد فتح كرمان وسجستان 634 - 644 م ، قام المسلمون بمحاولة غير مجدية لفتح ديبول . ولكن حملة مظفرة بقيادة محمد بن القاسم وجهها الحجاج بن يوسف ، سلكت طريق مكران وفتحت الديبول ثم صمدت مجرى السند مستقلة عن خلافة بغداد .

وفي سنة 872 م ، ضمت السند الى ممتلكات يعقوب بن الليث الصفري (4) في بلاد ما وراء النهر وخراسان ومجستان وكرمان . تلك الممتلكات التي كانت تشمل جميع ايران الشرقية وما وراء النهر والسند . وكل هذه الاراضي ، أصبحت الآن خاضعة لأسرة من الامراء تكاد تكون مستقلة عن خلافة بغداد .

تخلف الشيا الجبلية التي تشكل الطرف الجنوبي للهضاب الإيرانية بحيث يسهل المرور عن طريقها إلى الداخل : كرمان ، وهي عبارة عن منطقة يفصل بينها وبين عسان الذي يمثل زاوية شبه الجزيرة العربية ، مضيق هرمز الذي يوصل على عدد من الجزر والراسي ، وبينها كيش ، وهو أكبر ميناء على الخليج الفارسي ، ابتداء من القرن الحادي عشر ، ولا سيما بعد ما حل محل ميراف الذي دمره زلزال هائل في أوائل هذا القرن . ومن هرمز ، تطلق طرق تتجه إلى البلاد الداخلية ، نحو تبريز وقارص ونحو كرمان وراه طابس ونيسبور ، إلى زرنج وورامبا ونور هرة وبلخ . والقرن الحادي عشر الميلادي ، هو العصر الذهبي لهرمز ونيسبور . وقد كانت عدن في سنة 1513 وهرمز من سنة 1515 تقاطعا لستراتيجة ومراكز تجارية مهمة للبرتغاليين في المحيط الهندي .

ان کرمان (او کرمانی عند ابطیوموس واسترابون) لا تزال تسمى واحات مرتبة عند سفوح جبال ذات تماريح طويلة تلتقي بالبحر الفخار

4 - عقوبت بن القيس الصيرفي : از پرسه : پنهان عن الشد ابراء الاسلام دعاه واعظمه
 خلا : وقد كان في سفره يحمل الصلح (الصلح) في خراسان وظهر في ذلك الوقت الشدة
 الطوط في سنة الثمان : القائلون انهم جميع قتلوا في سركند : وبعد
 فوركته فلبس على سبستان (247) هـ : ام اسقطه هرا وروشن : وارتفعه
 الترك فقتل منهم وشدت جرحهم لانه الي خراسان وروى : ام اسقطه
 وشركا واصحابي في فارس : وكنت الي غلبته بغداد التي يات
 فادبه وكنت انصبي به الامر : اني ان طبع في بغداد فوجدت انيها ومنه
 المرح : ٥

الآيرانية : ولحات حارة الطقس ، تظل فيها أشجار الخيل . مزروعات أهمها الأرز والحناء والنيلة . وحقول الخيل تمتد نحو الشمال حتى ولحة طيس التي كانت تملك حينئذ مائة ألف نخلة . وأما تربية الجمال فيلوم بها السدان مستغلين في ذلك المراعي التي تمتد من الصحراء (في الشتاء) حتى المناطق التي يسود فيها جو أكثر اعتدالا في الأرض المرتفعة (في الربيع) والمعادن الموجودة في جنبات الجبال ، كانت مصفرا لنشاط كبير في مجال استخراج الحديد والرصاص والنحاس وتحويله وفي مجال الصناعات التقليدية ، وجذوع شجر التمر الهندي ، توفر الفحم الضروري للمراجل ولإنتاج الفولاذ الهندي - مثلما هي الحالة في هراء ، ونحن نجد ضمن الملاحظات التي سجلها السائح ماركوبولو . ملاحظات عن « الهندواني » ، أو الفولاذ الهندي الذي يصنع في كرمان ويستعمل لصنع الأسلحة (5) .

وأما مصانع النسيج الواقعة في كرمان فهي تستعمل الصوف الذي تنتجه قطعان الماشية وشمع الماعز الذي يربى محليا ويجري طبع قطع النسيج بالألوان ، بواسطة قطع من الخشب الثقوب ، على الطريقة الهندية - الصينية التي تتبع أيضا في مراكز النسيج الكبرى المجاورة : في فارس .

فارس :

تمثل جبال فارس استمرارا لجبال زغروس ، ولكنها تنخفض وتصبح أكثر بساطة في فارس فإن أودية مستطيلة منقطة تسارعا قمم جبسال تقطعها مضائق مرتفعة . ويمكننا أن نميز ثلاث مناطق بوضوح في فارس : المنطقة التي يشتد فيها قبط ورطوبة لا تطاقان ويسود فيها وخم وتحيط بها دمال مشربة بالبتروول يكثر فيها الرياح . وهذه المنطقة تملك

5 - اراجع :

M.C. Bailly de Mercey « *Ateliers Industriels du Khouestaran et de la Transoxiane au IV^e siècle de l'Église*, *Journal Asiatique* 1^{re} série, II, 1823 et III, 1824.

بعض المراسي التي تجري معاملات تجارية عن طريقها في الخليج العربي ، ولكنها تربطها طرق ودية مع داخل البلد ، وهي : جزيرة كيش وسيراف وجنابة . فاما سيراف فقد كانت مستودعا كبيرا للتجارة بين بلاد ما بين النهرين والهند ، كما كانت مركزا مهما لصناعة السفن ، وخصوصا السفن التجارية الكبيرة . وتستعمل هذه الصناعة الساج الذي يستورد من شواطئ الهند الغربية ، والذي يبنى به قطع الأساطيل التي تبحر عبر الخليج العربي ، ومياه جنوب شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر ، وبعض قطع الأسطول المصري في البحر الأبيض .

وقد شهدت سيراف أوج نشاطها في القرن العاشر الميلادي ، بعد عهد البصرة ، وقبل عهد هرمز . وتشمل تحول المراكز البحرية (الموانئ) في الخليج العربي - البصرة وابلة وعبدان وأخيرا سيراف وهرمز وجزيرة كيش - انصلا قويا بالتقلبات السياسية والاقتصادية التي نجمت عن ظهور حركة القرامطة والنزاع بين السامانيين والبرلوك وتدهور مركز بغداد وازدياد عظمة بيسبور .

وتشرف على الشواطئ بلاد جبلية يسكنها قوم يشتغلون بتربية الخيل والجمال ويصلون في النقل بواسطة القوافل ، كما يمارسون نشاط تربية الفهم الذي تمون مراكز السج في فارس بصوفه .

وهنا أيضا يخضع انتجاع قطمان الفهم لمناطق الرعي ، لتقلبات المواسم بين أراضي الشواطئ التي تسود فيها الحرارة ومناطق فارس الأصلية المعتدلة الطقس .

وقارس يتكون من منخفضات مقفولة مرتفعة عن مستوى البحر ، وتنتاز ، بالمقارنة الى الهضاب ، بما تشتمل عليه واحائها المروية من الفيض والحدائق الغناء . وفياض شيراز ، كثيرا ما تغنى بها شعراء فارس في القرن الثالث عشر الميلادي .

وهذه الحقائق تنتج الخضروات والأعجاز والفواكه ، وخصوصا العنب الذي يستخرج منه خمر كانت له شهرة عالمية . وقد نقلت نبتة هذا الكرم الى اسبانيا حيث تأقلمت في التربة والجو ، وكانت الخضور التي تنتجها تحمل اسم شيراز بحريف وتسمى « جيرز » Jerez .

وفي هذه المنطقة ازدهرت حضارات قديمة كانت تقوم على مدن مثل بيرز يبوليس وبازرجاد . ومنها أيضا خرجت الحركات الاولى التي وجهها الساسانيون في المصور الوسطى والتي تستهدف نشر النفوذ الايراني في مختلف الأصقاع . وأما الحركات التالية ، فقد كان موطئها خراسان في ايران الشرقية ، وقد راققت ظهور الدولة العباسية . ولكن هذه الحركات كانت تحمل تيارات ثقافية أجنبية ، هندية وصينية ، وبالتالي ، فقد كانت أقل قوة من الحركات الاولى .

ومنطقة فارس مشهورة خصوصا ، بصناعة النسيج . وكان اتساج فارس من الأقمشة مع اتساج خراسان والدانا المصرية ، أهم اتساج في العالم الاسلامي . وقد استمرت التقاليد الايرانية القديمة بعد الفتح الاسلامي ، خصوصا ، في مجال التطريز بالآبرة . وتسبق التسوجات بقطع مدنية وبالأحجار الكريمة واللؤلؤ . ولكن ايران تلقت طرقا تقنية جديدة من مصر وأرمينيا في العصر الاسلامي : فقد كانت تصنع هناك الأقمشة « الدبيقية » (من دبيق في مصر) والسجاد الأرميني .

وقد كانت يحيط بشيراز عدد من المصانع الصغيرة للنسيج من أهمها : لسا ، ودار بيجرد ، وليريزباد «نور» التي كانت تنتج أيضا ماء ورد ، يعرفه بالفوري ، للتصدير الى مختلف أنحاء العالم .

الجيال :

والآن نعود الى النقطة التي بدأنا منها ، حافة جبال زغروس، من طريق منطقة جبلية تمتد على 1000 كيلو متر طولا ، 200 كيلو متر عرضا ،

تتكون من أخاديد كبيرة متوازية ، وكانت في العصر العباسي تحمل اسم « الجبال » . وهذه المنطقة يخترقها نهر واحد . نهر ديبالي : الذي يجري بشكل مستقيم الانحدار بين سلسلة من الجبال : والذي لعب دورا مهما في اللواصلات بين الهضاب الايرانية وسهول ما بين النهرين . وعند مصب هذا النهر الذي يشكل طريقا طبيعية للواصلات : تقع بغداد التي كانت بمثابة رأس جسر ايراني في بلد ارامي ، تماما مثل الكرتيفون : في العهد الساساني ، ولكن بغداد كانت أكثر شمولا من عاصمة الساسانيين .

وهذه المدينة المستديرة ، تفتتح عن أربعة ابواب تدل أسماؤها على أربعة اتجاهات لملاقات بغداد الخارجية : ففي الشمال الشرقي يقع باب خراسان ، وفي الجنوب الشرقي يفتتح باب البصرة . وفي الجنوب الغربي باب الكوفة ، وفي الشمال الغربي باب سورية .

فأما طريق خراسان ، فقد كانت الطريق التي سلكها بنو العباس للفقرون . وهذه هي الطريق التاريخية القديمة التي تمر بكرمنشاه ، وبيستون ، وهاوند ، حيث خاض المسلمون معركة حاسمة ضد الجيوش الايرانية ، انتصروا فيها وفتحوا طريقهم الى همدان . وبعد كرمشاه تخترق هذه الطريق مضيقا في جبل زغا (3240 مترا) ، ثم تنحدر على حافات الجبل ، نحو همدان ، مارة بجناب تنطلق منها الطرق المؤدية الى السري والى زنجان . وهذه المنطقة المهجورة تتكون من منحدرات كثيرة الحصص ، تشكل الحافة الداخلية للجبل . ومع ذلك ، فإن بعض الوصلات تنتشر هنا وهناك ، عند منابع الانهار والجداول التي تنزل من الجبل : همدان ، واسفهان الثان ترتبطها طرق القوافل مع فارس في الجنوب ومع الري في الشمال ، وكنتاهما تقع على الطريق الكبيرة المؤدية الى خرابان والى ما بين النهرين .

ومهما يكن من أمر ، فإن ولاية الجبال كانت ذات أهمية قصوى للواصلات مع إيران في العصر العباسي . وقد وصف لنا ابن خردذبة الذي

كان صاحب البريد في الجبال ، في عهد الخليفة المتمدن (870 - 892 م) في كتاب المسالك والممالك ، الطرق الكبيرة المؤدية الى بغداد بمثابة ، مرحلة فمرحلة .

وصاحب البريد ذو منصب مهم للغاية ، يتجسس لديه معلومات واقية : فهو الذي يشرف على المراسلات الرسمية ويجمع المعلومات عن غيره من موظفي الدولة ، وكان على اتصال مستمر مع الدواوين المركزية . وكتاب ابن خرداذبة الذي وضعه ليستمع به الموظفون الذين يقومون تحت إشرافه ، يسمح لنا بمتابعة خطوط المواصلات في ذلك العصر بكل دقة .

التخوم والطرق

ملتقى الطرق في اسيا الوسطى :

يشكل ملتقى الطرق في آسيا الوسطى الصورة الخلفية للحضارة والاقتصاد في العصر العباسي . فهذه الطرق الشبكية تضي أهمية خاصة على منطقة لم يكن لها أي دور في نشر الإسلام وتعزيز جاذبه ، ولكن ما قامت به هو توسيع مجاله الاقتصادي .

وعدن هذه المنطقة وواسعها التي تتوفر وسائل الري فيها والتي كانت مزدهرة في خراسان وخوارزم في عهد الساسانيين ، كان يسكنها اقوام من التجار الاثرياء الذين كانوا يستخدمون شبكة واسعة من العلاقات التجارية وكانوا يتحدثون لغة تجارية هي اللغة الصفدية . وقد زاد استقرار الحكم الاسلامي نشاط هؤلاء التجار حدة واتساعا . وكذلك استقرت جماعات من التجار في بلخ ، ومرو ، وبخاري ، وسمرقند وكشغار . كما اتسع لطاق تنقل الاشخاص وتبادل السلع والافتكاس والطرق التقنية . وقد تمايزت مختلف التيارات والوان النفوذ جنسيا

الى جنب ، ثم اختلقت وانصهرت في مدن الواحات الايرانية - وهي مناطق كانت دائما معرضة لغزوات التوران الرحل .

ولذلك بني سور طويل يمتد على مئات الكيلو مترات منذ عهد الساسانيين ، للدفاع عن هذه الواحات ، بما في ذلك المساحات الزراعية ، بين بخارى وسمرقند وباب الأبواب (وهو يشبه سور جزيرة القرم ابدى بني في عهد الامبراطور أوجستينيان الأول) . ولكن مثل هذه الأسوار قليلة الجدوى في مقاومة الغزوات الكبيرة .

وأما المسلمون ، فقد أقاموا مراكز متحركة « رباط » متقدمة . نأثت تستعمل للدفاع والهجوم معا . ومن هذه المراكز سينتشر الاسلام في سهوب آسيا الوسطى عن طريق الغزو والفتح . وهذه الحملات ، تشبه تلك الحملات التي شهدا التبتون على بلاد الصقالية . وقد ظلت فرغانة وقتا طويلا تحت سيطرة أسرة طانج التي أدخلت اليها الورق وفي النقش على الخشب ولكن معركة تالاس التي وقعت في سنة 751 هبطت جدا للنفوذ الصيني في المنطقة . وفي نفس الوقت تسربت اليها القبائل التركية التي سيطر عليها وتشر فيها اللغة التركية تدريجيا .

— وباختصار ، فقد كانت آسيا الوسطى مسرحا لثلاث تيارات من النفوذ : النفوذ التقني الصيني ، والنفوذ الديني الاسلامي ، والنفوذ اللغوي التركي . وفي غضون الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والقرن التاسع الميلادي ، استقر الأتراك في منطقة تالاس وفي الشاش وفي فرغانة وفي كشتاريا . وفي القرن الحادي عشر ، سينزون المناطق الواقعة وراء أمو داريا ، ثم يستولون على جميع إيران الشرقية ويتقدمون حتى سورية والافاضول ويؤسسون الدولة السلجوقية .

ولكن هؤلاء الأتراك قد أصبحوا إيرانيين . والحضارة التي كانوا يحملونها حتى أقصى التخوم الغربية لفتحاتهم ، إنما هي الحضارة

الآريانه التي تشمل على عناصر تركية . وكذلك يسكن القول . دون أية مجازفة بالخطأ : بأن الأتراك قد خلقوا الآريين في حمل مشعل النفوذ والفتنة الآرية الى الخارج .

كان هؤلاء الغزاة ، من الناحية الدينية ، من الشاميين ومن أتباع مذهب ماني أو حتى من الساطرة . وقد التزموا جانب التسامح مع الديانات التي استقرت في المدن الآرية القديمة التي ظلت متمسكة بالبوذية والمزدكية والمناوية وعقيدة الساطرة واليهوية . ولكن السامانيين ، سينولون ، ابتداء من منتصف القرن العاشر الميلادي ، نشر الدين الاسلامي بين هذه الملل والنحل .

جرت تحركات مهمة ومتعددة للشعوب في المنطقة التي تمتد بين إيران والشعوب التركية . وهذه هي المنطقة التي تقلص عنها النفوذ الصيني أمام الاسلام ، بعد معركة تالاس . وكذلك تنقل التبت البوذيين في اتجاه الشمال بينما اتجه الأتراك الى الجنوب . وقد تقدم المانويون ، والكرلوك الشاميين ، والغز حتى وصلوا الى خوارزم . وهذه الشعوب التي لم تكن قد أسلمت بعد ، كانت تشكل احتياطيا كبيرا من العبيد . وقد كانت « بلاد الأتراك » مقصدا للنخاسين ، كما كان الذين يشنون غزوات من الرباطات يسبون كثيرا .

وفي نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر ، اعتنقت قبيلة الغز التي تقع أراضيها على نهر سيرداريا ، الاسلام ، وتأسست منها أول أسرة ملكية تركية مسلمة — الغزنويون . وفي نهاية القرن الحادي عشر ، أسست قبيلة تركية أخرى قامت فيها سلطة السلجوقيين الذين ملكوا خراسان بعد سقوط دولة السامانيين وكذلك قامت قبيلة أخرى ، القيشق ، (Kipchaks) باحتلال جنوب روسيا (1054 م .) وطاردت البجناك (Pechenegues) حتى البلقان . وفي البلاد التي تمتد وراءهم سيحتل البولوق (Polovcses) حاقلات الطرق المجاورة لانهار روسيا .

الطرق المؤدية الى السهوب الأوربية الآسيوية :

كانت العلاقات مع السهوب الأوربية - الآسيوية تجري خصوصا ، على طول نهر الفولجا الذي كان تحت سيطرة الخزر ، من إيتل الواقعة على شواطئه بحر قزوين ، وعلى طول نهر الدنيبر الذي كان تحت الزوس (كييف) . وإذا صعدنا مجرى هذه الأنهار ، فنصل إلى الغابات الشمالية التي كان يعيش على حافتها البلغار ، وهم شعب تركي لم يكن قد خرج تماما من حياة التنقل الى حياة الاستقرار . وكان البلغار ينون مدتهم من الخشب عند ملتقى نهر كاما (Kama) بنهر الفولجا (Volga) في أطراف الغابات . ولكنهم لم يكونوا يعيشون في هذه المدن إلا في فصل الشتاء . وغير بعيد من هذه المنطقة ستقوم ، فيما بعد ، مدينة كازان (Kazan)

وأما بلغار (Bulgar) ، عاصمة بلغاريا ، فقد اعتنق أهلها الإسلام في وقت مبكر .

ومثل البلغار ، كان البرطاس لم يخرجوا بعد من حياة التنقل الى الاستقرار . وقد انطلقت المحاولات الأولى لإسلامهم من الحي الإسلامي في إيتل (التي تقع غير بعيد من المكان الذي قامت فيه استراخان فيما بعد) . وأما خاقان الخزر ، فقد اعتنق اليهودية . ومثل مدينة بلغار ، كانت مدينة البرطاس تقع عند ملتقى نهرين ، أوكا وكاما ، عند حافة النابة . وهناك ستقوم فيما بعد مدينة نوفجورود (Novgorod) (Oka)

وفي داخل الغابات كان يعيش الفلنديون ، والفنلنديون الأجوريون ، والسلاف ، وهي الشعوب التي تشكل ما يسميه العرب « بلاد الصقالية » . وهذه البلاد تشكل احتياطا كبيرا آخر للعبيد ، يمتد حتى الغابات الجرمانية والبرمان (Illerime) ومن هذه المنطقة تستورد ، الى جباب العبيد ، الفراء والعسل والجلود البلغارية الناعمة والتي تستعمل خصوصا

تصنع أحذية عالية الساق لركوب الخيل ، والكمايل من شجر القيقب
« الخنج » .

ومن البرطاس ، تسير الطرق المواتية للأنهار ، مارة بيلغار وكيف
لتتصل إلى اقل وشواطيء بحر قزوين ثم إلى طبرستان والري وكذلك
توجد طريق أخرى تربط سهوب البرطاس وبلغار مباشرة بخوارزم
وغراسان .

ونجد الملاحظة بأن الطريقين كانتا متنافستين بنشاطهما التجاري .

علاقات العالم الإسلامي بالهند والصين :

تم فتح المسلمين للسند من الجنوب منذ سنة 712 م . ولكن التوغل
في الهند عن طريق ممرات الهندكش ، انما وقع تدريجيا بعد معركة
تالاس . واما المنطقة الواقعة خلف بلخ وطخارستان الجبلية التي تسكنها
أقوام بعيدة عن الحضارة ، فقد تم الاستيلاء عليها تدريجيا في القرن
التاسع ، على يد الفاطميين ثم على يد الصفاريين الذين استقروا في نهاية
الامر في كابل . وهذه المدينة قد قامت بجهود لنشر الاسلام بين سكان
جبال كالمركستان وهذه الشعوب التي عرفت بمصيبتها ، كانت هي الاخرى
مستودعا كبيرا للاحتياطي من العبيد . ولكنه مع مرور الزمن ، تمكن
المسلمون من السيطرة على الادوية وطرق القوافل والبركات الهامة ،
مثل مضيق غزنة الذي يقع على الطريق بين كابل وقندهار .

وكذلك استقر الأتراك في هذه المنطقة ، وقام الغزنويون في سنة 962
ميلادية ، بتأسيس أول دولة تركية مسلمة مستقلة في إيران .

وفي غضون الفترة بين 1014 — 1025 ميلادية ، قام السلاطين
الغزنويون بفتح شمال الهند ونشر الاسلام في تلك الأصقاع ولكنهم

سينسحبون منها حينما يدفعهم السلاجقة خارج آسيا الوسطى وإيران الشرقية .

للسفر من إيران إلى الصين ، كانت توجد طريقان : تتجه إحداهما إلى الشمال عن طريق تشقنت وتالاس وأقصو ، بينما تتجه الأخرى إلى الجنوب ، عن طريق قرغانة ، وكاشغر ، وإاركند وخوتان ، وللتقي بالاولى عند طوان - هوانج (Touen-Houang) حيث تشكلان طريقا واحدا كبيرا يؤدي إلى السور الكبير وإلى عاصمة مملكة تانج (Tang) وفي القرن الثامن الميلادي كانت غارات التبتيين (Tou-Fan) المستمرة على الواحات التي تمر بها الطرق الشمالية مصدر تهديد للتبادل التجاري . ولكن معظم التبادل التجاري في هذه الفترة ، كان يجري عن طريق البحر ، من الخليج العربي حتى قانطون ، حيث استقرت جماعات مهمة من التجار المسلمين واليهود منذ القرن الثامن الميلادي .

وفي القرن التاسع الميلادي ، عاد الأمن إلى طرق التجار البرية في هذه المنطقة . فإن التبتين قد تمقلوا بعد ما اعتنقوا الديانة البوذية . وبين النظام الإسلامي والنظام الصيني ، قام الأتراك بدور مسيرى التوافل وحياة الطرق التجارية ، وبذلك أمكن استئناف النشاط التجاري . وقد قدر السمودي اللغة التي يسترقها السفر إلى الصين بأربعة أشهر .

وفي هذه الحقبة بدأت الجماعات الإسلامية في الاستقرار في الصين .

أهمية شبكة الطرق : دولة السامانيين :

كانت الدولة الطاهرية (820 — 872) التي كانت تحتل كرمان والري ، والدولة الصفارية (867 — 903 م) التي قامت على أنقاضها ، قد رسمت الخطوط الرئيسية لوحدة إيران الشرقية . فإن يعقوب بن الليث الذي كان قد استولى على سجستان ، قد تمكن من إضافة مناطق

هراة ، وماوراء نهر جيحون ، وفارس الى ملكه ، قبل ان يمني بالفشل في نهاية الامر .

وفي هذه الحقبة ، كان السامانيون منهمكين في التضال مع بني بويه (932 - 1055 م) . وهذه الخصومة المستمرة بين الدول الأربع ، ليس لها أهمية تذكر حتى من الناحية الاخبارية ، ولكنها كانت تستهدف السيطرة على محطات القوافل والطرق التجارية في آسيا . وامارة السامانيين كانت حارسة الطرق التجارية ، كما كانت تجارة القبيد فيها ذات أهمية خاصة .

والسامانيون ينحدرون من أسرة ايرانية قبيلة . وكان سامان خودادة . هو مؤسس دولتهم وباني مدينة سامان التي تقع غير بعيد من بلخ . وقد كانت الدولة السامانية تسمى ، وراء الاسلام ، لاحياء مجد الساسانيين والارتباط بهم ، بينما كانت الدول التي تسيطر على المناطق القريبة ، من جهتها ، تبذل لربط نفسها بسلالة النبي (صلى الله عليه وسلم) . وبعد ما اعتنقوا الاسلام ، وضع السامانيون أنفسهم في خدمة بني العباس . وفي سنة 820 ميلادية ، عين الامون جميع الاخوة السامانيين (وكانوا اربعة) ولادة ، في سمرقند ، وفرغانة ، والشاش وهراة . ولكنه لم يبق في الحكم من بين أفراد الأسرة في سنة 892 ميلادية ، سوى اسماعيل بن أحمد . وفي عهده ازدهرت عاصمة ملكه ، بخاري بحيث فاقت عظمتها سمرقند نفسها . وفي سنة 893 قام بحملة على الانسراك واستولى على تالاس . وفي سنة 900 دخل الى خراسان . وفي سنة 902 استولى على طبرستان (الري وقزوین) . ومن هناك انفتحت امامه الطرق الى بحر قزوين والى بغداد .

وقد بلغت الدولة السامانية أوج عظمتها في عهد نصر الثاني 913 - 942 م الذي امتد ملكه ، ليشمل تالاس ، وفرغانة ، وكشغارية في

الشرق ، وخوازم وبلغار في الشمال ، والمنطقة التي تمتد من الري حتى بحر قزوين في الغرب ، وما بين سجستان وقندهار في الجنوب .

وفي عهد نوح الاول (943 - 954 م) استكملت الدولة السامانية لشاغلها التوسعي ثم أخذت في الانحطاط والتدهور وكان نوح قد دخل في نزال مع بني بويه للسيطرة على الري .

وأما دولة بني بويه ، فهي تنسب أيضا الى الساسانيين . وقد اعتمدت هذه الدولة في توسعها على الجنود المرتزقة الذين تجمعهم من الديلم ، وسعت هي الأخرى للسيطرة على طرق التجارة في آسيا الوسطى . وقد استولى أحد أمراء الدولة على الري واصفهان وسيراف ثم احتل الجبال . وفي سنة 945 م ، دخل الى بغداد ، حيث أصبح خليفة ، وظل على الخلافة حتى سنة 1055 ميلادية ، لدى ظهور السلجوقيين .

وأما السامانيون ، فقد كان قدهم للطرق التجارية الغربية سببا في تدهور دولتهم . وفي سنة 977 ميلادية ، استعان الغزنويون ، وهم أسرة من الرؤساء المحليين ، بالجنود المرتزقة الأتراك ، فاستولوا على كابل وطبرستان . والغزنويون ليسوا إيرانيين ولكنهم أتراك تنسبوا بالثقافة والتقاليد الإيرانية . وقد عملوا لحماية الكتاب الإيرانيين وتشجيعهم كما ساروا على نهج السامانيين الثقافي .

وكذلك كانت الدولة الغزنوية دولة تسيطر على طرق التجارة . وعندما استولوا على البحر الهندي الذي يقع عند الكتش ، وعلى خراسان ، قاموا في سنة 1030 م بنزو خوازم وجرجان والري وطردوا منها بني بويه . وأخيرا ، احتل الغزنويون شمال الهند ، حيث توقف تقديمهم بعد ما قري ضلخ السلجوقيين .

كان الأساس الذي تقوم عليه ثروة مدن السامانيين ، هو التجارة في العبيد . وكانت تجارة العبيد رائجة في الرقيق المستورد من بلاد الصقلب في مرو ، ولبسبور ، والري ، وبلخ وبخاري ، وسمرقند وهراة ، عن

طريق خوارزم ، وفي الرقيق المستورد من الهند عن الطريق كابل .
خصوصاً ، وفي رقيق الأتراك الذي يدخله النخاسون عن طريق مراكز
الحدود . ومعظم هؤلاء يعاد بيعهم للخصي أو للتدريب العسكري .
وقد احتل العبيد في الجيش وفي الحياة السياسية في الدولة السامانية
مراكز عالية ، واستمروا على ذلك حتى سقطت الدولة نتيجة لعصيان
المعالمك .

وعاد الملوك والأمراء في اختيار حاشيتهم وحرسهم من بين العبيد
الأتراك ، عادة إيرانية .

وقد كان الفضل بن يحيى البرمكي . من بين الذين ساهموا بقصة
خاصة في نشر هذه العادة التي سيكون من نتائجها افتتاح العالم الاسلامي
لتدريجيا للنقود التركي . .

وفي عهد المأمون ، قدم أمير خراسان الطاهري اتاوة الى الخليفة هي
عبارة عن 20000 عبد تركي ادخلوا في حرس المأمون ولكن العبيد
الأتراك لم يحتلوا مراكز القيادة في عهد المأمون ، وانما أتاحت لهم
الفرصة ليصبحوا ضباطاً في خلافة المتصم (833 - 842) . وعلى
اثر الاضطرابات التي أشترك فيها 70000 تركي في بغداد ، قام الخليفة
بالنشاء سراء في 836 ميلادية ، سبياً للتخلص من نفوذهم . ولكن
المتصم لم يلبث أن أصبح لعبة في يد الأتراك من جديد في سراء ،
فعاد الى بغداد .

ان أحمد بن طولون ينحدر من سلالة عبد تركي جاء من بخارى .
وقد كان المؤسس لدولة بني طولون في مصر . وفي سنة 935 م ، قام
الاشقيد بدوره ، وهو ابن عبد جاء من فرغانة ، بتأسيس دولة
الاشقيديين في مصر . والجدير بالتسجيل أن أهمية عبيد فرغانة في حراسة

الملك ، لم تكن تفل في عهد ملوك ميديا عما كانت عليه في عصر خلفاء
بغداد .

وابتداء من قيام الدولة السامانية ، سيطر النفوذ التركي وشتند .
فالترك هم الذين يشكلون الحرس في قصور بخارى . والنخاسون
يقومون بشراء العبيد في نطلق واسع على الحدود من القبائل المتنافسة .
والقارات توجه من الرباطات ضد سكان المناطق المجاورة ، للسبي . والفرق
بين العبد والجندي المرتزق غير واضح ، لأن العبد والجندي المرتزق
كلاهما يرسل الى الغرب مع دفع التعرقة الجبركية عليهم عند اجتياز نهر
جيحون . ففي السنة الأولى ، يحارب العبد واجلا ويميش في ككنة .
وفي السنة الثانية يملطه القائد (الحاجب) فرسا . وفي السنة الثالثة
يتلقى حزاما من نوع خاص ، وهو يساوي ليشان الامتياز . وحينما
يصل الى السنة الخامسة يتلقى سرجا وأسلحة فاخرة . وفي السنة السادسة
يسمح لباسا للاستعراض . وفي السنة السابعة يرقى الى مركز قائد طيبة
ويسمح الحق في حمل شارة مميزة « قلنسوة عالية من الفرو » . وباب
الترقيات مفتوح امام العبد بحيث يمكنه أن يصبح رئيس الحاجب ،
أو رئيس حكومة . ولكن هذا التقدم نظري وكثيرا ما تنف في طريقة
المناورات والمؤامرات .

ودولة السامانيين ظهرت في مجتمع ايراني - تركي ، ولكن حضارتها
ايرانية .

لقد كان القرن العاشر الساماني في ايران الشرقية وفي البلاد الواقعة
وراء نهر جيحون ، فترة تاريخية حاسمة في النهضة الثقافية الايرانية
وذلك فيما يتعلق باللغة والآداب والعلوم على السواء .

استمرار النصوص الحضارية الآرامية :

ظهرت أول النصوص المعروفة والتي تدل على اكتمال اللغة الأدبية الآرامية في خراسان . ولكن هذه اللغة ، الفارسية ، لم تكن لها قاعدة من اللغة العامية المحلية ، بل من اللهجة العامية المستعملة في فارس والمنقولة إلى خراسان . في أية فترة من التاريخ وقع انتقال هذه اللهجة من فارس إلى خراسان ؟

يقول كريستن (6) أن هذا الانتقال وقع منذ عهد الساسانيين . ولكن الأرجح هو أنه إنما تم في العصور الأولى لحكم المسلمين . وليس من شك في أن طاهر بن الحسن (7) قد كان له دور في اعتلاء وتنمية اللغة الفارسية .

عهد نصر الثاني ، كان يعيش رودكي (8) ، أول شاعر فارسي لا نعرف شيئاً عنه وحفظت له قطع من أشعاله : كتيبة ودمنة ، التي ترجمت عن الهندية بالنظم الفارسي . وهذا العمل سبق أن ترجم في عهد كسرى

6 - واجمعي :

A. Christensen, *Fires sous les Sassanides* 2^e éd. 1944, p. 44 et suiv.

7 - طاهر بن الحسين بن مصعب الفخارسي 150 - 207 هـ من قبيلة الموزنة والقبيلة والوسيم أدبا وعلمية والترجم شجاعة ، وهو الذي وفد الملك الساساني الفارسي ، وألف في برهانية من أشعار خراسان ، وسكن بغداد ، فالتقى بالمعمر بن أبيه ، وكانت أبيه منزلة عند الرشيد ، ولا ملك الرشيد دولي الأمين ، كان الأمين في مرو ، فانتصب طاهر قزويني إلى بغداد ، فهاجمها وغزى بالأمين وقتله 198 هـ ، ووطد الهيمنة للأمين ولولاءه هرقة بغداد ، ثم ولّاه خراسان 205 هـ ، وكان الأمين كان يطعمه له قيثا في نفسه فقتله أثناء الأمين دون ممانعة ، وربما شعر طاهر بذلك ، لأنه بمجرد أن استقر له الأمر في خراسان ، قطع خطبة الأمين يوم الجمعة فقتله أحد رجاله في تلك الليلة بمرور القوي .

8 - هو جعفر رودكي ، وألف في البلاغ والقرابة من رودك سمرقندة ووافي فيها 940 هـ ، عاش في بلاد نصر الساماني ، وقيل أنه نظم 30000 بيت من الشعر المترجم .

أبو شروان إلى الفارسية ، كما ترجمه ابن المقفع إلى اللغة العربية في أوائل العهد العباسي .

ولكنه ، إذا كانت قصائد من الشعر الفنائي قد لظمت في عهد الطاهريين والصفاريين ، فإن اللغة الفارسية لم تعرف الأزدغار إلا في عصر السامانيين .

والمشكلة الأخرى التي تواجه الباحثين ، تتعلق بشكل الشعر الفارسي . فإن أوزان الشعر الأيراني تخضع لنفس القواعد التي يخضع لها الشعر العربي الجاهلي . فبال شعر الأيراني إذا ، عربي .

وفي عهد المنصور (بن نوح الساماني) (961 — 976 م) قام وزيره ، الهفسي (أبو علي بن الفضل) (9) بترجمة تاريخ الطبري بلغة طبرستان الفارسية التي تكتب بالأحرف العربية . وكانت هذه بداية الشعر الفارسي .

ولي بخاري ، كان ابن سينا (10) يحرر كنه الطبية والفلسفة الكبيرة باللغة العربية — واللغة العربية كانت دائما هي لغة العلم ، مثل اللاتينية في أوروبا حتى القرن الثالث عشر الميلادي ولكن ابن سينا وضع أيضا ملخصا لأحد كتبه في الفلسفة باللغة الفارسية .

9 - كان الهفسي وزيراً لصاحب الملك بن نوح والمنصور بن نوح السامانيين . وكان له من المؤلفات كتاب البلاغة وكتاب القواعد . وقد توفي في خراسان في سنة 1020 هـ . «الترجم» .

10 - هو الحسن بن عبد الله علي . الرئيس . عرف الملك . صاحب المصنفات المتعددة في الطب والطق والطبيبات والأدوية . أصله من بلخ . وقد عاش خلال الفترة بين 370 — 428 هـ . وألّى بحلب فاستألفه بالعلم . فقد ابن سينا الورع في همدان . وكان الجليلي للطب وكتب الرسائل بينه . ومن أهم مؤلفاته التي يقع عددها نحو مائة كتاب : القانون في الطب ، والفلسفة ، والسياسة والسرر الطبية الشربة ، ولسان العرب (عشر مجلدات) في الفقه . وله كان الرئيس أيضا شاعراً نظم الشعر الفلسفي الجيد «الترجم» .

وقد كان الأمير الساماني، نوح الثاني، يشجع الشعر الملحي الفارسي. وكذلك ترجمت نواحيق قديمة (وبعضها من الأساطير ولكنها تشتمل على معلومات مهمة) ، من اللغة الفهلوية الى اللغة الفارسية . وهذه الروايات ، هي التي أمر نوح الثاني . الشاعر ديبقي بنظمها شعرا . ولكن الشاعر اغتيل بعد شروعه في هذا العمل بوقت قصير . وقد واصل هذا العمل الفردوسي الذي ولد في وقت ما الفترة بين 932 - 934 م . في ضواحي طوس (مدينة لم يبق منها اليوم الا آثارها التي تقع في جنة مشهد) .

وقد تم التحرير الاول للشهامة في حوالي سنة 994 ميلادي ولكن التعديلات والزيادات التي أدخلت عليها جعلت العمل في «كتاب الملوك» يستمر حتى سنة 1010 ميلادية . والسفر التام للشهامة يحتوي على 50000 «ديستيك» (11) ، وهو ما يساوي ثمانية أضعاف حجم الألياذة .

ولكن العصر كان شديد الاضطراب . ولما انهارت الدولة السامانية . اتجه الفردوسي الي الرجل الجديد الذي وضعت الاقدار مقاليد الحضارة الإيرانية في يده ، السلطان محمود الغزنوي ، الذي أهدى اليه الشاعر هذا العمل الذي يشتمل على 100000 بيت من الشعر . ولكن محمود الغزنوي ، لم يسمع وقته للاستماع اليها كلها . ولما رأى الفردوسي قلة مكافأة السلطان ، أثر ذلك على نفسه ، فوضع مكان الاعداء والتعجيد لمحمود الغزنوي قصيدة هجاء فيها ثم لاذ بالفرار . وقد مات الشاعر . في طوس مهجورا متسيا بين سنتي 1020 - 1025 ميلادية .

11 - بيتان متكلا المعنى في اللغة الفارسية «التفريع» .

وهذه القصة الأدبية لا تخلو من مغزى . فإن تأثر الأمراء الأتراك بالثقافة الإيرانية، لم يكن الا سطحيا ، ومع ذلك، فإن النفوذ الإيراني، سينتشر في شمال الهند بفضل السلاطين التوغلوين .

ومن ثم . يمكننا أن نميز عدة فترات في التأثير الإيراني : فإن نخبة من الإيرانيين نزلت الى الخارج قبل الفتح العربي وبعده . ونشاط هذه النخبة وأثرها لا يمكنه المؤرخون والجغرافيون الآخرون الا بصورة غير واقعية . فإن جماعات إيرانية قد استقرت على الشواطئ الغربية لهند ، ولا سيما في الجزرات وبومباي ، ابتداء من القرن الثامن الميلادي . وكذلك كان للإيرانيين منشآت على سواحل افريقية الشرقية قبل الفتح العربي . وهذه المنشآت قويت بعد الفتح . نتيجة لهجرة الإيرانيين .

والحركة الثانية لهجرة النخبة الإيرانية ، وقعت في العصر العباسي . وهذه الهجرة وقعت عبر الملكية الإسلامية حتى الشواطئ السورية (غربا) حيث سينقلون معهم الفنون البحرية المنتشرة في المحيط الهندي . والمؤرخ المشهور ، اليعقوبي ، والأمير الرستمي (عبد الرحمن) الذي أسس دولة تيمرت في أفريقية الشمالية ، كان كلاهما فارسيا .

وأما الهجرة الثانية ، فهي من عمل الأتراك المتأثرين بالنفوذ الإيراني . مثل التوغلوين والسلاجوقيين وهذه الهجرة ستمتد حتى تبلغ الأفاضول .

الفصل الثالث

المغرب الإسلامي

لم يقع أي انقطاع في تيسار الحضارة في البلاد القديمة في الشرق (إيران سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر) ، بل اتصلت وشانج الحضارة البيزنطية الساسانية بالحضارة الإسلامية ، واستمرت المدن والمصانع والحرف والفنون كما كانت في السابق . والشرق كان مستودعا لجميع القوى الحضارية المحركة : الإسلام واللغة العربية والخصائص التي تميز الجنس السامي والنصر الأيراني « الاطارات الذهنية ، وطرق التفكير والطرق التقنية والاكتكار المائدة والأشكال الفنية » .

وأما بلاد المغرب (افريقية والمغرب وصقلية وإسبانيا) التي ستلقى هذا النفوذ : فهي بلاد خضعت للنفوذ البربر ويسود فيها نمط الحياة الزراعي ، وأسلوب معيشة البدو الرحل . والماضي الحضري القيسي والروماني فيها أصبح منسيا ، ان لم تنف آثاره تماما ، وتدهور المدن الذي نجم عن الأزمة التي واجهتها الامبراطورية البيزنطية . زاد بسبب غزو البرابرة . ومع ذلك ، فإن نواتج من المدن ظلت قائمة : قرطاجنة ، وفولوييليس « في شمال مكناس » ، ونيسس وسبتيم ، وقادس ، وملكا ، وهيباليس ، وقرطبة وطولطوم ، وسيزاريا أو جستا ، وباغوموس . ولكن هذه المدن التي تميز في طريق التدهور ، أصبحت تواجه ضغطا نتيجة لنمو الأرياف وانتشار الأساليب الريفية في إسبانيا وصقلية .

وأما افريقية الشمالية ، قد كانت المدن فيها مهددة بانتشار حياة البدو الرحل واتساع نطاق المجالات التي يتردد عليها الجمالون . وسرى ضيق

الرقعة التي شملها غزو الامبراطور جوستينيان وضغط الحكم البيزنطي وعدم استقراره في هذه المناطق .

وبالمقارنة بالبلاد القديمة التي استنزفت قواها بالاستغلال الطويل لمواردها ، فإن البلاد الجديدة ، أو التي استعادت جديتها في المغرب الاسلامي ، تنطوي على امكانيات اقتصادية جديدة وعلى موارد بشرية زاخرة ، وهي مصادر عظيمة القوة . وهذه البلدان الجديدة سنستلقت نظر الشرقيين : الأمويون ، سيتجهون الى اسبانيا . والأندلس : الى الغرب الأقصى . والرستميون الى الغرب الأوسط . والأغصانية الى افرقية . والقاسميون الى الغرب الأوسط ، ثم الى افرقية . وجميع هذه الأحزاب والنحل ، قصدت الى الغرب الاسلامي الذي عرف الاستعمار منذ أحقاب بعيدة ، لتجرب حظها فيه .

وبلاغات هذه الدول والدويلات سيجع بالخامرين من كل نوع وبالتجار والعلماء والأدباء الذين تفرجهم المكافآت والوظائف الشاقة . وهذه هي الحالة خصوصا بالنسبة الى بلاط قرطبة الذي لم تكن توجد فيه عناصر محلية لتوفر له ازدهارا ثقافيا مستقلا . وهؤلاء المهاجرون ، سيكونون رواد الحضارة الشرقية وسيتقلون معهم الى المغرب العلم والمعرفة الشرقية .

الفرقية الشمالية :

شاهدت القرون السابقة للنشج الاسلامي تدهور المدن أمام زحف البدو الرحل . وهذا التدهور لم يتأثر باعادة فتح بيزنطة لافريقية الشمالية في عهد الامبراطور جوستينيان . فإن الإستعمار البيزنطي الذي لم يكن يستد الا ما يقرب من قرن « 533 — 647 م » لشمال افرقية والذي لم يشمل سوى رقعة ضيقة ، لم يكن من شأنه أن يوقف الاختناق المزاييد مع مرور الزمن لحياة المدن .

فقد كانت الأراضي المجاورة للمدن والأرياف التي تغذيها : محاطة بالبربر الرحل : وكانت الغزوات وحملات التاديب تتوالى . وأما الأرياف التي كانت خاضعة للسلطة العسكرية البيزنطية : فقد كانت تنحصر في مناطق المواصلات . التي تمتد بين كتل الجبال التي كان البربر القيصون يعززون استقلالهم فيها . وكذلك نجد أن النفوذ البيزنطي لم يتوغل قط في الهضاب المرتفعة والمناطق الصحراوية حيث كانت القبائل الرحل تستغل بكل حرية .

والى جانب تخلص المناطق التي يشملها نفوذ المدن : كانت عملية التخلص من النفوذ الروماني تزداد اتساعا مع مرور الزمن وكان البربر يسترجعون ماضيهم شيئا فشيئا . وهذا هو نفس التطور الذي وقع في سورية ومصر ، حيث حلت أنماط الحياة الآرامية والقبطية محل النفوذ الهليني . والفرق بين هذين التطورين المتتابعين في الظاهر ، هو أنه ، بينما كان الماضي الحضاري الذي يقوم على المدن ، هو الذي اُبهرت في المشرق ، نجد أن الماضي الذي اُبهرت في شمال إفريقيا ، هو ذلك الذي كان يقوم على حياة البدو والاتجاع . والتغيير الوحيد الذي وقع ، هو ظهور الجمل الوحيد السنام .

وعلى التخلص من النفوذ الروماني التي بدأت منذ وقت بعيد ، لم يسكن الغزو البيزنطي من وقفها . فإن عددا متزايدا من البربر يتخلون عن اللغة اللاتينية وعن اللغة الفنية ، وخصوصا لغة المدن المكتوبة - ليعودوا الى اللغة البربرية واللغة اللبية القديمة ، التي تحتفظ بقوى قديمة منها والتي لا صلة لها باللغات السامية واللغات الهندية الأوروبية . واللغة اللبية القديمة لغة شفوية وليس لديها أدب مكتوب . وفي الوقت الذي استرجع فيه البربر لغتهم ، استعادوا أيضا عاداتهم وتقاليدهم القديمة (القائلون) وهياكلهم الاجتماعية : الآثار القبلي ، دليل الى الديمقراطية والمساواة . وقد أدت روح

الاستقلال والتسك بالثقافة والاعتزاز المفرط بالفردية في البربر ،
الى تزيق البلاد واقسامها الى جمهوريات جبلية صغيرة محافظة ، او
الى قبائل من الرحل .

ولكن سكان المدن ، استمروا مع ذلك ، على استعمال اللغة
اللاتينية واللغة الفينيقية . وقد تسكنت اللغة الفينيقية من الاحتفاظ
بسكانها في بعض المناطق في افريقية . وهذا من العوامل التي ربما
فمرت لنا انتصار العرب السريع في المدن الشرقية . واما اللاتينية فقد
ظلت وقتا طويلا لغة المدن . فان آخر النقوش التي عثر عليها في
نولوييليس ، يرجع عهدها الى القرن السابع الميلادي . والمؤرخ
اليقوي (القرن التاسع الميلادي) يتحدث عن الافارقة الذين يتحدثون
اللسان « الافريقي » .

ولكن اللاتينية ستطور الى لغة عامة رومانية (1) . وفي القرن
الثاني عشر ، يغيرنا الأندلسي ، بأن سكان جفصة في جنوب تونس
يتحدثون لغة خاصة ، هي خليط من اللاتيني والافريقي .

ولكن المدن استقبلت الفاتحين العرب بدون مقاومة تذكر . والمقاومة
في افريقية سبواجها العرب في الهضاب والجبال والصحاري .

وبعد الفتح الاسلامي ، ستمد المدن ومناطق المواصلات بين كثر
الجيال اللغة العربية ، بينما تستمر جبال البربر وقبائل الصحراء على
التحدث باللغة البربرية .

وفي هذه الاثناء ، أخذت الديانة المسيحية تقلص مع تقلص المدن
والنفوذ الروماني . وكذلك أصبحت الكنيسة الافريقية التي لعبت دورا

1 - واجمع :

T. LEWICKI. Une langue romaine oubliée de l'Afrique du Nord.
(en français) ; ROZEMER. Orientalismon, XVII, 1933, pp. 43-440.

كبيرا في القرن الرابع الميلادي وفي عهد سانت أجستين البربري ، تعاني من الضعف والتمسوق ، خصوصا نتيجة لاضطهاد الوندال الآريين للمسيحية . ومن جهة أخرى ، فإن المسيحية لم تدخل قط الى بعض المناطق في افريقية الشمالية . والنصوص البيزنطية التي يرجع عهدها الى القرن السادس للميلادي ، تحدثنا عن وجود كثير من القبائل التي لا تزال على الوثنية ، أو عادت الى الوثنية .

وللبربر ميل قوي الى التدين ، وجد ما يرضيه في الطقوس الدينية السحرية التي تطوي عليها الديانات الوثنية الافريقية التي كانت سائدة قبل أن يدخل الفينيقيون والرومان ألهمهم الى هذه البلاد . وكثير من الخصائص التي تميز الطقوس الوثنية التي تقوم على السحر في بلاد البربر قد وصلت اليهم بدون شك من افريقية السوداء (وربما كان العكس صحيحا) .

وفي المصور للزخرفة القديم ، كان البربر على اتصال بالافريقية السوداء التي تمتد في جنوب جزيرة المغرب والتي انصهرت تدريجيا حتى السودان تحت ضغط الجبالين البربر . ولكن البربر سوف لا يستعيدون دياناتهم الوثنية التي كانت منتشرة قبل المسيحية والاسلام في صورتها الأصلية .

ومن جهة أخرى ، كانت توجد في افريقية في عصر الرومان ، جماعات مهمة من اليهود الذين كان أصلهم يرجع الى عناصر فينيقية ، أو متأثرة بالفينيقيين ، أو ممن اعتنقوا الديانة اليهودية من سكان المدن . وعن طريق المدن وهجرة القبائل التي تزايدت مقدرتها على الحركة منذ نهاية العصور القديمة ، تمكنت اليهودية من التوغل الى داخل بلاد البربر ، في الهضاب والجبال والصحراء ، وخصوصا في جراوة بالأوراس ، ونقوسة ، في جنوب تونس ، وبين كثير من قبائل الأطلس والقبائل التي تنتقل في جنوب المغرب الأقصى . وكذلك يسكننا اقتفاء أثر انتشار

اليهودية عبر الصحراء . والرواية الإسلامية تخبرنا بأن هؤلاء اليهود كانوا ، منذ أقدم العصور يمارسون التجارة ويزوللون الفسوف التقليدي .

ولما اختفت المسيحية من شمال افريقية ، ظلت اليهودية محتفظة بوضعها في هذه البلاد ، وأخذت تربط نفسها بعلاقات من جديد مع المراكز التي كانت خاضعة للبيعة الرسمية في المشرق - تلك المراكز التي كانت مراكز التجارة العالمية أيضا .

وقد كانت طرق انتشار اليهودية في القرن التاسع الميلادي تسير بالجماعات المستقرة في الهند والصين ثم بشعب الفخر الذي اعتنق اليهودية ، ومنطقت نهر الفولجا وبالجماعة اليهودية التي تقيم في شمال الصحراء الكبرى .

وأما الجاهليين الوثنية ، فستعنى الإسلام بقرعها . وقد كانت مراكز العراني الباقية ، هي المراكز التي ينتشر منها الإسلام واللغة العربية ، كما كانت الحال عند انتشار التأثير الفنيقي والروماني في العصور القديمة . وفي مرحلة تالية ، سينتشر الإسلام من مدن جديدة ومدن قديمة اثبتت ، بحيث يفتح لوجه خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر : عندما وصل إلى قسم الجبال . ولكن البربر سيرثون عدة مرات (على الأقل عشرين مرة في رأي ابن خلدون) . خصوصا في غضون القرنين التاليين للفتح الإسلامي . والإسلام في افريقية له طابع خاص ، ويشير بافتتاحه لاستقبال بعض المذاهب الجاهلية . مثل مذهب الخوارج الذي يتمازج مع مذهب أهل السنة الذي تعتقه الحكومات ، ولكنه يفتح مع مزاج قتات معينة من البربر ، مثل بني ميزابه إلى أن مذهب أهل السنة نفسه ، قد لقي مقاومة طويلة بين جماهير البربر ، وسيفتح الكثير من الخرافات ، مثل الاعتقاد في الأولياء والمرابطين وفيما يسمى بالبركة .

وهكذا نجد المعتقدات الوثنية البربرية القديمة تظهر بشيء من القوة ، خلال الفترة بين القرن الرابع والقرن السابع الميلادي . كما نلاحظ فشل تأثير الرومان والسيحية في افريقية الشمالية . وكذلك نلاحظ بدء انتشار الاسلام الذي كان تأثيره حقيقيا في بعض المناطق حيث تأقلم مع المعتقدات الافريقية القديمة .

وكذلك عجز الاحتلال البيزنطي عن وقف التدهور الاقتصادي الذي كانت تعاني منه افريقية الشمالية نتيجة لتناقص المساحات المزروعة (الزيتون والقمح والدوالي) من جهة . ولانخفاض التبادل التجاري . من جهة اخرى . وقد فشل البيزنطيون حيث سينجح المسلمون الذين سيكون هذا الاتجاه الى الانحطاط والتدهور الاقتصادي ، خصوصا باذخاتهم شمال افريقية من جديد في التيارات الاقتصادية العالمية .

لقد شهدت افريقية الشمالية انبعاث الماضي البربري الذي لم يكن ينطوي الا على قليل من الحضارة والتمدن ، كما شهدت تدهورا اقتصاديا . ولكن المغرب كان يمتلك مصدرين للقوة : الفنى بالرجال . فقد شهد المشرق في المراحل الاولى من الضلال : تدفق العبيد على هذه المنطقة . ولكنه بعد اعتناق كثير من المناطق المفتوحة للدين الاسلامي - الامر الذي أدى الى تناقص موارد العبيد - اتجهت الأنظار الى بلاد البربر التي تحتوي على احتياطي كبير من الجنود الذين سيتم على يدهم فتح اسبانيا وصقلية (في عهد الأغالة) ، ومصر (في عهد الفاطميين) . وبراسطة البربر أيضا تم استثمار الصحراء حتى بلاد السودان .

هل كان التوسع الديموغرافي الذي شهدته المغرب في العصور الوسطى العليا نتيجة لما يسمى « عهد السلام الروماني » ؟ من الصعب تأكيد ذلك ، حيث أن هذه الظاهرة تشاهدها أيضا في مصر الحاضر ، وعلى كل حال ، فإن افريقية الشمالية كانت خلال الفترة بين القرن الثامن

والقرن الثاني عشر الميلادي موردا معتبرا للقوة العسكرية ، مثل الذهب في المشرق .

والقوة الأخرى التي لم تكن مستغلة في المغرب وسبحوها الاسلام الى حقيقة هي : اقتناح عالم البربر على الصحراء الكبرى وبلاد السودان . فمن طريق التبادل التجاري بين المغرب وبلاد السودان سيدفق الذهب والعبيد السود في اتجاه البحر الأبيض المتوسط والمشرق . فالذهب سيكون مصدرا لقوة تجارية ، بينما يشكل العبيد السود يدا عاملة في الزراعة ، كما أن الخصائص العسكرية التي يتسم بها هؤلاء العبيد . ستعزز قوة الفرقة الشمالية البربرية من الناحية العسكرية .

البلاد القبرية :

تحتل جزيرة المغرب موقعا جغرافيا ذا قيمة عظيمة بين المشرق الاسلامي وأسيانيا الاسلامية ، ثم بين صحراء السودان والبحر الأبيض المتوسط . والشاطئ الثلاث التي يتكون منها المغرب والتي يسط عليها المسلمون الذين جاؤوا من المشرق سلطتهم ، هي افريقية والمغرب الاوسط ، مضافا اليها حافات الصحراء ، والمغرب الأقصى .

والفرقة (africa proconsularis) تسيطر بوقتها على مضيق طليطة . وهي مركز فنيقي قديم ونقطة استراتيجية معتبرة استغلها الرومان ثم البيزنطيون من بعدهم . وقد كانت مدنها ، ولا سيما قرطاجنة ، مأهولة بالمشاركة ، وأهم المزروعات فيها هي الزيتون والقمح والكروم . والمغرب الأقصى الذي تمتد أراضيها في الشمال الغربي للصحراء ، يسيطر بوقته على مضيق جبل طارق وعلى المدن التي تقع على العدوتين : تينجيس ، وسبتيم ، وليكسوس ، وعلى الضفة الثابتة ، مالحه وقادس وهيباليس ، التي كانت مأهولة بجماعات من المشاركة واليهود . وفي الداخل ستكون قولوبيليس (أوليلي) أول عاصمة للاندلس ، قبل فاس (نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلادي) .

فأما القرية وحافات الصحراء في المغرب ، وهما منطقتان تملكان
مراكز حضارية قديمة ، فنيقية ورومانية ، وتشكلان مصرا الى إيطاليا
واسبانيا فقد انتشر الاسلام واللغة العربية فيها بسرعة .

ولكن الحالة لم تكن كذلك فيما يتعلق بالمنطقة الصحراوية التي تمتد
عند أقدم الأطلس (وهي منطقة واسعة) من الشرق الى الغرب ،
حيث تلتقي الطرق التي تمر عبر الصحراء ، وحيث تتوالى محطات القوافل
الشمالية في شبكة العلاقات السودانية الصحراوية وهذه المنطقة كانت
أيضا ملجأ في الصحراء للبربر الرحل الذين يأتون من الهضاب المرتفعة .
وقد كان منعهم من الدخول الى هذه المنطقة ، عالية مهمة في خطط
الفاطميين العرب . وبالفعل ، فإن عتبة بن زافع قاد عدة حملات في المنطقة
من الجريد الى غدامس (سيدومس القديمة) ثم الى السوس الأقصى ،
في اتجاه وادي درعة والطرق التي تمتد على ضفاف المحيط الأطلسي .
وقد جاء في إحدى الروايات ، أن عتبة بن زافع ، لما بلغ المحيط الأطلسي ،
دفع بفرسه الى البحر ، ثم أعلن أسفه لعدم إمكانه التوغل الى أبعد من
ذلك .

والوضع الطبيعي للمغرب ، يشتمل - في الوسط - على اشترطة
منضدة تتجه من الشرق الى الغرب ، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا ،
الى الصحراء الكبرى جنوبا : الساحل الذي تقطعه سلسلة من الجبال ،
الأطلس التالي ، والهضاب المرتفعة ، والأطلس الصحراوي ، والصحراء . وقد
كانت السهول الساحلية دائما مزدهرة بالممران في افريقية والمغرب الأقصى .
الساحلية دائما مزدهرة بالممران في افريقية والمغرب الأقصى .
وهذا الوضع يفسر لنا الصعوبات التي واجهتها الغزوات التي اتخذت هذه
الواجهة هدفا واتخذت عليه ، مثل الرومان والفرس ، والسهولة التي
فتح بها الغزاة الذين جاؤوا من الشرق ، مثل العرب ، الذين سلكوا هذه
الاشترطة الطبيعية التي تمر بين الجبال وعند أقدمائها .

توجد طريقان كبيرتان في المنطقة : تمتد الأولى في الهضاب المرتفعة وتمر بالجريد لتخرج على الأوراس وتنفذ إلى الحفنة ثم إلى نازا . والشمال الغربي للمغرب الأقصى . وبعد اخضاع المناطق الجبلية في وسط إفريقيا ، وبناء القيروان ، اتصلت طريق أخرى ، تمر بحوض الحفنة بهذه الطريق ، في تيمرت .

وأما الطريق الثانية . طريق التصور « جمع قصر » ، فهي تكمل من الجريد ، الطريق الأمية من مصر عبر برقة وطرابلس الغرب . وهي تمتد محاذية للمشارف الجنوبية للأطلس الصحراوي حتى المناطق الجنوبية الغربية من المغرب الأقصى . ونحن ندرك بسهولة أهمية هذه المنخفضات التي تقطع سلاسل الجبال المتجهة من الشرق إلى الغرب ، وتسمح بمرور الطرق التي تمتد من الشمال إلى الجنوب وتلتقي عندها طرق التصور وطريق الهضاب العليا وشواطئ البحر الأبيض المتوسط .

وهذه المناطق التي تمتد فيها شبكة خطوط المواصلات : مناطق مأهولة وتنتشر فيها المدن ، ولا سيما ساحل إفريقية ومنخفضات الحفنة « تيمرت ، وورجلة وسدراته وبني مزاب » والممرات الجبلية التي تقطع الأطلس في المغرب ، مثل تيزي تلتغت (فاس وسجلماسة) ، وتيزي تلويت (انصاف ، مراكش - سجلماسة) : وتيزي تيبست (فاس ، مراكش في اتجاه سوس الداخلية ونولطة) .

ومنطقة الجريد من جهة ، وسدراته وورجلة وبني مزاب ، من جهة أخرى ، وسجلماسة ونولطة ، أخيرا ، تشكل ثلاث مجموعات لمعطات الشمال لطرق القوافل المتجهة إلى الصحراء الكبرى والسودان ، وهذه المدن ، هي التي تستقبل الذهب والعبيد السود ، وفيها توزع هذه السلع في اتجاه البحر الأبيض المتوسط والشرق .

وانشاء هذه المدن التي تلتقي عندنا طرق المواصلات تم في غضون الفترة التي تمتد بين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن العاشر الميلادي . وهي تشكل عنصرا مهما في حركة التوسع في انشاء المدن التي شهدتها بلاد البربر في تلك الفترة .

وأما شبكة المواصلات التي تمتد في الشرق والوسط والمغرب : فقد كانت هدفا أساسيا للسيطرة عليها في النزاع بين الإدارة والمرستين والأغالبة في القرن التاسع الميلادي ، والنضال بين الإدارة والفاطيين ، في القرن العاشر ، والنضال بين الفاطيين والأمويين والصراع بين صنهاجة وزلائه ، في القرن العاشر عشر . وأخيرا لقزو قبائل بني هلال ونفاهم في شرق بني مزاب وفي الوسط : والسيطرة المرابطين في الغرب في القرن الحادي عشر الميلادي . .

وكذلك نرى ، أن الفريضة الشمالية تحتل موقعا استراتيجيا جوهريا في العالم الاسلامي . فهذه المنطقة لنية بأفاقها المفتوحة نحو المستقبل وباتصالاتها الحضارية . فهي ملتقى للتيارات الآتية من الشرق ومن اسبانيا وصقلية والعالم الغربي الذي يسيطر عليه البرابرة ، والسودان . من جهة ، وبين العالم المتحضر والعالم الجديد من جهة أخرى . وقد شهد المغرب تحت الحكم الاسلامي توسعا ديموغرافيا كما شهد حركة مهمة لانشاء المدن ، وعرف ازدهارا اقتصاديا وتجاريا جديدا .

الواجهة الصحراوية :

في سنة 761 ، قام عبد الرحمن بن رستم (2) بإنشاء مدينة تبهرت وأعلن استقلاله عن الخليفة وقد كانت مملكة الخوارج ، أو الإباضيين ، الرسمية تمتد على جميع أراضي المغرب الأوسط لتشغل جبل نفوسة وجزيرة جربة ، بل وحتى طرابلس الغرب ، وفي الجنوب الغربي ، في سجلماسة التي أسست في سنة 757 م . كان بنو مدرار الذين ينتمون إلى الصفرية ، من الخوارج ، يوسعون نفوذهم حتى بلغوا السوس الأقصى ، والدولتان الخارجيتان تجمع بينهما صلات عائلية ، ومن ثم ، لقد كانتا تشكلان إمبراطورية تسيطر على جميع الطرق الآتية من الجنوب ، وكذلك كانت زبانة منهكة في حركة التجارة الكبيرة وتستخدم شبكة المواصلات التي تربط أفريقية الشمالية وبلاد السودان ، وأما مدينة تبهرت ، فقد عرفت ازدهارا كبيرا وسميت « البصرة الصغيرة » .

وبعد قضاء الفاطميين على الدولة الرستمية ، تراجع الامة الخوارج وانتجأوا إلى مزاب .

وأما زبانة ، فقد كانوا يرتبطون بعلاقات حسنة مع الأمويين خلفاء قرطبة ، وتحالفوا معهم ضد صنهاجة ، أعوان الفاطميين ، في الشمال من أجل السيطرة على محطات طرق القوافل .

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ، استولى الفاطميون على سجلماسة ، وبذلك تمكنوا من السيطرة على الطرق المؤدية إلى

2 - عبد الرحمن بن رستم بن جبرام ، أول من حاكم من الرستميين ، الفرس الأصل ، وقد كان من خلفاء الإيباضية بأفريقية معروفًا بالزهد والورع ، وله كتاب «الفسر» ، ولا تطلب أبو الخطاب على أفريقية استقلاله على القرويين ، والى زحف ابن الأشعث على القيروان وقبلة أبا الصطاف سنة 44 هـ ، في عهد الرشيد بن رستم يأخذ وما خلف من حاكم إلى القرب والحقت به جماعته من الإيباضية فتولوا تبهرت التي كانت قبضة بين ثلاثة أمصار وأولها أثر مبرر تكريم ، إلى السجلماسة بعد مسجدا واختاروا مسكنهم سنة 161 هـ ، وبابوا بالامانة بها إلى ابن تولي في سنة 171 هـ ، المرجع .

السودان ، وبفضل ما تجمع لديهم من الذهب والعبيد ، ملؤوا خزائن الحرب ومولوا جيشا كبيرا بتحقيق خططهم العسكرية : غزو مصر . وفي سنة 915 م بنوا مدينة المهديّة ، التي ستحل محل القبروان . وقد بسطوا سلطانهم على جميع أفريقية الشمالية فيما عدا المنطقة الواقعة في الشمال الغربي والتي كانت خاضعة للأندلس ولكنهم واجهوا في سنة 944 م ، خطرا كبيرا ، نتيجة ثورة أبي يزيد الخارجي ، اندي كان سيرا للقوافل وينتمي الى منطقة الجريد . على أن الفاطميين تمكنوا من قمع هذه الثورة ، واستعادوا سيطرتهم على جميع الطرق التي تمتد في الشمال .

وفي منتصف القرن العاشر كان يسك في مدينة سجلماسة 400,000 دينار من الذهب سنويا .

وفي سنة 972 م : قاد جوهر الصقلي جيشا عن طريق الواحات لغزو مصر التي انشرت فيها دعوة الميدين . وكانت القسوة التي اعتد عليها هي رجال كثامة ، والجنود المرتقة السود ، والذهب الآتي من السودان .

ومنذ ذلك التاريخ ، ترك الفاطميون الفريقة الشمالية لبني زيري وبني حباد . وفي هذه الأثناء ، وجه الأمويون أمواتهم من زانة للاستيلاء على محطات القوافل الغربية ، فاحتلوا ، فيما احتلوه سجلماسة . وأما الإدارة الذين تحالفوا مع صنهاجة ، فقد فقدوا مدينة طنجة ، في الوقت الذي بسط فيه خلفاء قرطبة نفوذهم على المغرب الأقصى ، بواسطة أمواتهم من زانة .

وكذلك تكونت كتلتان سياستان كبيرتان في الفريقة الشمالية : الأمويون الذين يسيطرون على محطات القوافل في الغرب ، والفاطميون الذين يشمل حكمهم المحطات الواقعة في الوسط وفي الشرق . وقد كانت

الحرب حوالة ومستورة في البر والبحر بين صنهاجة وزناتة . ولما وجد
الإفريقيون في سدراته وورجلة أنفسهم بين نارين (في القرن الحادي
عشر الميلادي) هربوا الى مزاب .

ومنذ الآن سيتقسم التيار الذي يتدفق منه الذهب من السودان الى
قسين : يتجه أحدهما الى قرطبة ، والآخر الى القاهرة ، وفي قرطبة
سيؤدي ذهب السودان بيوت السك - سك الدينار - ويكون مصدرا
لثراء القصور وتدفق منه تكاليف بناء مسجد قرطبة ومدينة الزهراء ،
وساهم في حماية العلوم والفنون : فان ذهب السودان هو عمدة
الحضارة الأندلسية العظيمة وسندها في القرن الحادي عشر . وفي
القاهرة ، سيكون الذهب الآتي من النوبة والحيشة والذي اختلط
بالذهب المستخلص من قبور القراعنة ، مصدرا لثروة الطبقة
الفاطمية . وقد تمكن فاضل غرو ، الذي زار القاهرة في ذلك
العهد من مشاهدة الدينار المصري والأصابع به . وهذه الدنانير هي
التي كانت تمول توسع الفاطميين في اتجاه المحيط الهندي ، وحياسة
البذخ التي كانت سائدة في قصورهم ، ونشاط البناء (بناء المدن
والقصور والمساجد والأسواق) الذي بلغ أوجه في عصرهم .

وفي منتصف القرن الحادي عشر ، اضطرت النزوح الهلالي بني زيري
في إفريقية الى الاتجاه الى المهديّة ، وبني حاد الى الاتجاه الى بجاية ،
وذلك في الوقت الذي كان المرابطون في المغرب يشيدون فيه
إمبراطوريتهم التي تمتد من الصحراء الى آسيايا . وأما بنو مزاب ،
فقد شرعوا منذ ذلك الوقت في مياومة نشاطهم في تجارة التجارة
وأخذوا يستقرون في التل ويندمجون في تيار التجارة مع السودان .

وفي غضون القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي ، انقضت بلاد
البربر نهائيا عن المشرق بسبب النزوح الهلالي والنورماندي وأصبحت

كثير من المناطق مسرحا لغارات المسيحيين أو نشاطهم التجاري . وكذلك كانت سفن جنود تصعد المرسى الكبير في وهران لتنتقل منها الذهب . وفي القرن الثالث عشر والرايع عشر ، قام البندقيون في تونس بإحياء الطرق الشرقية . وفي القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر . سيقوم الجنويون بمسارمة التجارة بطرق القوافل التي تمر بالصحراء الغربية ، قبل أن يقسوم الديببيسون (Djibouti) ثم البيرتغاليون بالسيطرة على التجارة في الذهب عن طريق البحر .

الواجهة البحرية :

ينبغي أن نستحضر دائما في أذهاننا المخطط العام لوضع افريقية الشمالية الذي يتكون من أشربة تتجه من الشرق الى الغرب ومن امتداد في طولها : في الشرق ، ساحل افريقية ، وفي الغرب السهول التي تشرف على المحيط الأطلنسي . ومن هاتين النقطتين يمر في بضع ساعات الى صقلية وإلى أسبانيا . وقية هذا الوضع وأهمية هاتين المنطقتين اقتصاديا ، شيء متعرف به منذ القدم . ومدن ضفتي خليج صقلية وجبل طارق ، كانت تربط فيما بينها بروابط تجارية نشيطة .

وقد كان طرفا افريقية الشمالية في الشرق والغرب ، قاعدة لانطلاق الغزو الاسلامي للغرب الذي يقع تحت سيطرة البرابرة ، وكانت هاتان المنطقتان مركزين لبناء السفن ، بفضل الثغابات التي تكسو الجبال الشاطئية من الشرق حتى جبال الريف في المغرب الأقصى . وكذلك كانت المنطقتان ملتقى لتيارات النفوذ الأجنبي من الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض وينتشر نحو المغرب وهي في نفس الوقت ، مستودع توزع منه منتجات السودان : فساحل افريقية ينتقل هذه المنتجات الى الشرق الاسلامي وصقلية . ومضيق جبل طارق تنقل عن طريقه المنتجات الى أسبانيا وما ورامعا من بلاد الأندلس (امبراطورية شرلمان) التي ظلت بمنزلة عن موجة الفتح الاسلامي .

والشيطان يسود فيها نشاط بحري متناز . لكلاهما كانت منطقة مهمة لصيد السمك . وعلى عكس الوضع المائد عند بقية شواطئ المغرب حيث يشتد عشق البحر فجأة ، فإن شواطئ المنيقين غنية بالسمك الذي يتدد ويملح ، بفضل الملح المستخرج من البحر ومن مناجم الير ، ويصدر الى الخارج .

ومن جهة أخرى ، فإن العبور سهل الى العدو الأخرى : من مدينة المجوس الى النقطة الشمالية من رأس بون نحو صقلية ، ومن قصر المجوس ، بين طنجة وسبتة نحو طرفة والجزيرة الخضراء على العدو المقابلة .

ففي هذه المناطق ، كان يعيش صيادوا السمك البربر والتجار الشرقيون الذين يشكلون جماعات أعدتها المبادئ المتوارثة للقيام بدور مهم بمجرد ما تسح الظروف بذلك ، أي حينما يفتح آفاق واسع للتجارة بظهور العالم الإسلامي .

والطريق البحرية التي تربط المشرق الإسلامي وصقلية عن طريق سرت ، والتي تربط الشواطئ الشمالية للمغرب بإسبانيا ، عن طريق مضيق جبل طارق ، ذات تكوين مزدوج . فهي ، أولا ، تمثل علاقات مباشرة فقد أنشئت على هذه الشواطئ موانئ جهزت بأحواض وأوصاف وفنارات وبسلسلة من مصانع السفن وورش التصليح ، مثل الاسكندرية والمهدي وتونس وبجاية . وكانت السفن الكبيرة ترسو فيها وتخرج حمولات كبيرة . وحركة النقل البحري ، تشهد نشاطا واسعا ، خصوصا في غضون الفترة بين القرن الثامن والقرن العاشر الميلادي . وهذه الفترة بعينها هي التي شهدت بناء السفن الكبيرة الحجم لنقل السلع . وقد استمر صنع السفن على الطريقة المروقة في البحر الأبيض المتوسط ولا سيما السفينة المزودة بإرسئين ذات الأشرعة « الثلاثينية » . ولكن

صناعة السفن قد استفادت من وصول الطرق التقنية المعروفة في المحيط الهندي . ولكن البحارة كانوا يمارسون أيضا ملاحاة الشواطئ ، من مرسى الى مرسى . والمراسي ، في بعض الحالات ، لا تعتمد كونها مرفأ تلجأ اليه السفن لتجنب الرياح .

ولكنه ، كان يوجد ، الى جانب السفن الكبيرة الحمولة سفن أصغر وقوارب تواصل النشاط الملاحي القديم على الشواطئ .

وهاتان الشبكتان من خطوط المواصلات البحرية تكمل ، لحداهما الأخرى .

وكذلك نجد أن كل مدينة على ساحل المغرب ، تقابلها مدينة على الشواطئ الاسبانية الواجهة .

تم فتح افريقية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي ، ولكنه كان من اللحم ضمان سلامة العاميات وتأمين البلد ضد تهديد الهجمات من الخارج وغارات الأسطول البيزنطي . وكذلك أصلحت الحصون والقلاع الموجودة في الداخل ، كما وضعت ترميمات على طول الشواطئ للدفاع عنها ضد محاولات زول « الرومي » فيها .

كانت سلسلة من الرباطات (3) تمتد من سورية حتى المغرب الأقصى ، وخصوصا على الساحل التونسي . وهذه الربط عبارة عن مراكز للمراقبة والاشادات ، ولكنها في نفس الوقت ، قلاع صغيرة للدفاع عن الشواطئ ولحماية النشاط البحري . والحامية تتكون من أشخاص أقياء ، يسمون مرابطين ، كرسوا حياتهم للعبادة والدفاع عن بلاد الاسلام ضد الكفار .

3 - رباط رباط ومرابطة الجيش : ازم المصنوع « والرباط » كلمة يرجع اصلها الى المرابطين (القسيس) الذين كانوا يرابطون في السائبة الحمراء ، ولكن مصاعبا السبع في مرحلة دالية بحيث أصبحت تطبق على جميعات من الزهاد والمفسدين والافقياء الذين يرفقون حياتهم على الصلابة والجهاد . هؤلاء هم الذين انتشروا في داخل بلاد المغرب بعدما زالت خلافة نظام الرباطات على الشاطئ وتكونوا الروابا التي ت يزال يسمونها موجودا حتى الآن (المرجع) .

والرباطات تستخدم قاعدة لحملات للغزو ، في الوقت الذي تقوم فيه بدور مراكز المقاومة ومؤسسات نشر الاسلام - وهو الدور الذي قامت به الرباطات في آسيا الوسطى ، وعلى نفور الأناضول ، وتقوم اسبانيا . وهي منشآت ذات طابع مزدوج ، ديني وعسكري ، يدافع عنها جنود ، هم في نفس الوقت ، من الزهاد المتفرغين لعبادة الله .

والرباطات ، هي أصل النظام الديني العسكري الذي ابتدعه المسيحيون في العصور الوسطى في الأراضي المقدسة في فلسطين وقى اسبانيا ، وقت استعادة المسيحيين لشبه جزيرة الاندلس . ومن أهم الربط التي تقع في هذه المنطقة ، تلك التي كانت في الإسكندرية ، وسفاس ، ومنستير . وسوس ، وتونس ، والرباط (في مقابل مدينة سلى) . وسلسلة الربط تمتد حتى شواطئ افريقية الغربية .

وإثنان من الرباطات المشهورة التي حفظت آثارها ودرست ، يقعان في تونس (4) أحدهما في منستير ، بني في العصر العباسي وجرى توسيعه أولا في القرن التاسع وثانيا في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي . والثاني يقع في سوسة وبني في عهد يزيد بن حاتم الوالي العباسي ، في الربع الأخير من القرن الثامن الميلادي ، ثم كمل في سنة 821 م ، بتشييد برج للمراقبة عليه ، وكان ذلك في عهد الأمير الأغلب الثالث . وهو يتكون من مربع من البنايات التي تحيط ببناء مركزي ، ومحصن بأبراج ذات فتح . وهذا هو التصميم العادي للحصون البيزنطية مع ادخال علة من التحسينات عليه . وباب الرباط مزود بوسائل الدفاع من سياج ، وشرف لرمي الحجارة والوسائل المبرقة على المهاجمين ، والدبابيس المتألية .

4 - راجع : A. Lelievre, *deux Kibans du Sahel Tunisien, kiban de Tachet, IV*, 1943, pp. 279-288, pl.

والتي ترتب عند المدخل الخ . وهذه الوسائل الدفاعية التي كانت معروفة بين النهرين : هي التي أخذها عن المسلمين الصليبيون . وهذه التحصينات معززة بستكا يتخذ شكل نصف دائرة ، وبرج مربع يقع عند الزاوية ومزود برقبة مستدير له عدة طبقات . والبرج والمستكا ، كلاهما موجود في الآثار الشرقية القديمة . انه لمن الممكن الافتراض بأن مهندسا معماريا عارفا بأساليب البناء الإيرانية ومطلعا على طراز الربط السائد في آسيا الوسطى ، قد أثر على اختيار الولاة العباسيين والأغالب لهذا الأسلوب الفني .

ومثلما نرى مدن القوافل مرتبة على طول طريق القصور : نجد سلسلة من المراسي منتشرة على طول شواطئ شمال الفرجية وتشكل خطا من المدن التابعة مع شبكة العلاقات العامة . وهذه المراسي بعضها أنشئ حديثا والبعض الآخر كان موالي « ومراكز بحرية بعثت في العصر الاسلامي . وهذه الفئة الأخيرة ، كانت في بعض الاحيان تحتفظ باسمها الفينيقي أو الروماني .

وهكذا نمت تونس . فبعد امتلاء حسان « بن النعمان » (5) في سنة 694 ميلادية على قرطبة : أصبحت عاصمة الفينيقيين وأصبحت خرابا بلقما تستعمل محجرا . وأما المركز المدني الجديد فيسبتمو في موقع تينس Tins ، التي هي إحدى ضواحي قرطبة . وعن طريق القناة التي أمر حسان بحفرها عبر البحيرة ، اتصلت المدينة بالبحر وأصبح لها ميناء .

5 - حسان بن النعمان بن عبد الحميد المصلي : مات بعد 86 هـ (من أوله طوبى حسان ، ملك مملكة وسياسي بارع مشهور في الفتوحات الاسلامية) والى الفرجية في زمن معاوية ثم عين عليها على مصر في أيام عبد الملك بن مروان ، ولا الشطرنج الفرجية بعد مقتل زهير الجبلي 76 هـ (أمراء عبد الملك بالرحف عليها مثل داس ارمين القس مقابل) وبعد وفتح مع الروم في قرطبة ومع الثلاثة المبررة في مارس وجويل ايراس دالت له الفرجية كلها . وبعد أن مر الاسلام الفرجية : انهم بالقنودان حيث دون القنودين دوال القنود ، وقد اصول الامصار في أول عهد الوليد بن عبد الملك . (الترجمة .

وكذلك استجرت عدة آلاف من الأقباط التخصصيين في بناء السفن ونقلوا من مصر حائلاتهم للعمل في دار صناعة تونس . وقبل نقل الأقباط للعمل في تونس ، كان عمال آخرون متخصصون « بالخوصة » قد نقلوا نفس الغرض من الخليج العربي الى سورية . وبعد ذلك ، جاء دور العمال السوريين والمصريون والأقريطيون نقلوا الى شواطئ اسبانيا للعمل في امانة قرطبة : الرية .

وهكذا نرى رجالا يهرون من الشرق الى الغرب ينقلون معهم الفنون والطرق التقنية ، وكثير منهم من الايرانيين واليونان الذين يلبسون ثيابا عربية . وعن طريق هؤلاء الفنيين ينتقل القاط تقنية الى العربية ، ومنها الى اللغات الرومانية التي ستؤثر بدورها في اللغات الجرمانية .

وفي عهد الفاطميين ، سبني عبيد الله مدينة المهدية على شواطئ افريقية « 915 م » اليجا اليها هربا من القيروان التي كانت متسقة لمختلف التيارات ولم يكن من بين سكانها سوى عدد قليل ممن يعطون على عقيدة الشيعة . وشييد المدينة الجديدة في شبه جزيرة صخرية تتوغل بعيدا في البحر وسهل الدباج عنها ، وتشتمل المدينة على مسجد بني في وسطها ، وقصرين للمهدي وابنه ، وعلى دار المحاسبة ، والمدينة محاطة بأسوار تخرقها أبواب من حديد . وكذلك حفر فيها 360 سهرجا كبيرا في الصخر الصلب ، وزودت بالآت لرفع الماء لسد حاجات المدينة . وأما زويلة ، إحدى ضواحي المدينة ، فستقام فيها أسواق مبنية بالحجر المقصوب ، ومباني للسكان .

وميناء المهدية الذي يمتد على طول شبه الجزيرة يتكون من حوض ذي شكل قائم الزاوية ، حفر في الصخر ويمتد على 26 مترا في 57 مترا مع ممر يبلغ عرضه حوالي 15 مترا . ويقول أبو عبيد البكري ، ان ميناء المهدية كان مجهزا لاستقبال ثلاثين سفينة . والميناء منبع وتحميه

أسوار المدينة التي يفتح فيها باب من الماء ، تحت قوس ضخم شرفه السفن . وهذا الباب مزود بسلاسل تمنع مرور السفن متى شئت .

وستكون المهديّة ملجأ لبني زيري في سنة 1057 ميلادية ، عندما اضطروا الى التخلي عن القيروان تحت ضغط العربان الهلاليين .

وهذه المراكز البحرية الافريقية ، كانت تقوم ، بتبادل تجاري نشيط البلدان الشرقية الواقعة على شواطئ البحر الأبيض ومع صقلية واسبانيا . وقد كانت تونس أول ميناء تطلّغ منه السفن مباشرة في اتجاه طرطوشة (Tortose) الواقعة على دلتا نهر ابرة (Ebre) نهر سرقطة .

وأما قابس ، فهي ميناء الجريد . ومبدأ الطريق المؤدية الى السودان . وقد كانت سفائن والمهديّة وسوسة . الموالي التي تصدر منها الزيت الذي تنتجه غابات الزيتون المنتشرة على الساحل التونسي .

ومن هذه الموالي ، ومن ميناء تونس تصدر الى بلدان الشرق منتجات البلد (القمح والزيت والمرجان الذي تنتجه مرسى الخرز) . ومن الشاطئ الخلفي ، تصدر افريقية الصوف والجند والنسج والجلاد . وقد كانت افريقية الشمالية ، مع سورية ، مصدرا لتزويد سلاح فرسان سلاطين مصر بالخيول حتى حملة سانت لويس وبعد ذلك .

وفي نفس الوقت كانت افريقية مركزا لتجارة المروء (الترازوت) في المنتجات السودانية : المنسوجات ، والعاج ، واللؤلؤ . وسلع الترف ، ومنتجات الغرب المسيحي : العبيد الصقلية . والفسراء ، والسيوف .

وكذلك بثت الحياة في موانئ قديمة كانت ترصع شواطئ البحر الأبيض المتوسط في تونس والغرب الأوسط والغرب الأقصى : بزرت (Hippo, Diarystan, Bizerte) ومرسى الخرز، والقل، حيث يستخرج المرجان وقد كان أسطول خاص يقوم بعمليات صيد المرجان ، وكانت السفن تزود بشبكات تربط بصلبان من الخشب مطية بالحديد ، والمرجان الأحمر ، رمز للحظ السعيد ، وتصدر منه كيات معتبرة التي يلدان المحيط الهندي التي لا تعرف الا المرجان الأبيض .

وأما مدينة بون (Hippone, Bone) كانت تصدر الحديد الذي يستخرج من جبل ايدوغ الذي يقع غير بعيد منها .

وسواحل بلاد القبائل الصغرى ، كانت تصدر الخشب بواسطة الملاحة الساحلية الى أحواض بناء السفن في افريقية وسكينة ، ولكن بجة كانت تستعمل المواد التي تتجها الجبال المجاورة لها لبناء السفن : الخشب والحديد والقار والشمع .

ومدينة الجزائر التي بناها بلكين بن زيري في سنة 946 ، ستصبح سوقا مهمة للقبائل التي تقصدها من الداخل ، وشرشال (Cassarea) ميناء آخر يقع غير بعيد منها .

كانت عصابات من المغاربة الأندلسيين الذين يقصدون بلاد البربر للتجارة ، يضيرون خيامهم هنا وينون حسنا أو مدينة صغيرة هناك . وقد كانت مدينة تنس التي بنيت في 870 - 876 م ، مما خلفه هؤولاء الأندلسيون . وكذلك بنيت مدينة وهران بنفس الطريقة ، فقد توثقت علاقات تجارية بين بعض المغاربة الأندلسيين وقبائل البربر في حوالي سنة 902 - 903 ميلادية ، وكان من نتائج قيام هذه المدينة التي سحرقها البربر في سنة 910 ، ثم أعيد بنائها في السنة التالية ، وضت

تستع بعد من الرخاء حتى سنة 954 ، حينما دمرها بنو يفرن ، ثم أعيد بناؤها بعد ذلك بضع سنوات .

وأخيرا ، فقد بعثت على ضفاف بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) في المغرب الأقصى الموانئ القديمة : سبتم وبنجس وأنشئت موانئ جديدة مثل قصر مصودة . وعلى شواطئ المحيط الأطلسي ، تقع أرزلة « أميلا » ، في القرن التاسع الميلادي ، وشيش (Léon, Larache) وسلي ، والرباط ، وهي أقصى حدود الأراضي المغربية التي كانت تحت سيطرة الرومان .

ونبينا وراء ذلك ، شهد العصر الإسلامي بناء موانئ أسفي . ومزغان « الجديدة » ، وأجادير وماسة . وقد ظهرت هذه الموانئ نتيجة لازدياد أهمية محطات القوافل التجارية التي تربط الشمال بالشرق . وهذه الموانئ المغربية كانت تقوم بدور تسييط في التجارة مع موانئ شبه جزيرة الأندلس الواقعة على الضفاف الجنوبية للمحيط الأطلسي : قادش (Cadix) ، ومصب نهر قرطبة (Gadagolville) (الوادي الأعظم) والسفن النهرية تصعد حتى اشبيلية وقرطبة (وشلش (Al-cacer Do sal) ، وقصر أبي دانس (Salon) وموانئ الغرب .

وفي اتجاه هذه الموانئ الأندلسية كانت تصدر الحبوب والموادي والصفوف والجلد والشمع والعسل الذي تنتجه البلاد الداخلية الواقعة وراء شواطئ المحيط الأطلسي . وكذلك توسق عن طريق هذه الموانئ المادن : الحديد والفضة والنحاس الذي يستخرج من جبال الأطلس المغربية .

طرق الهضبات العليا :

وقد أول غزو لأفريقية في سنة 647 ميلادية . وكما رأينا فإن المدن التي كانت تدافع عنها حاميات يزولتية تم إخضاعها بسرعة . وقد استقبل سكان المدن الفاتحين استقبالا حسنا ، حيث كان سلطان هؤلاء قويا وتنظيمهم الإداري للمدن فعالا ، وحمايتهم ضد البربر الرحل مكفولة . وأما العناصر التي أبدت مقاومة ، للفتح الإسلامي ، فهي العناصر الداخلية ، من سكان الجبال والبربر الذين يستجمعون في الهضبات العليا .

وقد كانت القيروان التي أسسها عقبة بن نافع في سنة 670 ، في وسط السهوب ، ورواه الساحل التونسي ، بشاية رأس جسر ، أو رباط . واسم القيروان نفسه ، معناه « محطة الإبدال » أو « مكان التجمع للدفاع عن مدينة » (6) وموقع القيروان عند منتهى الطرق الكبيرة الآتية من مصر ، يسمح بالهجوم والتراجع . وقد تمكن البربر أثناء الثورة الكبيرة التي قام بها الخوارج في القرن الثامن الميلادي من الاستيلاء على مدينة القيروان عدة مرات ومن تدمير تحصيناتها . وفي سنة 772 ميلادية ، استعاد يزيد بن حاتم (7) المدينة عقب انتصاره على الخوارج ، فأعاد بناء مسجدتها وأسوارها التي بنيت بالطوب

(6) - تم اختراق الجبال على ما يسمح لنا بتجسس في بعضية المؤلفات وثابتة ملاحظاته بشأن هذا الموضوع ، وكل ما أرفقه هم أن الكلمة « قروان » هي قروانج (قروانج) فريسية معربة ، معناه : الميناء من القبول (سبط الكتبية) ، أو القاطنة ، وأربابا كان القبط الذي وراء استيلاء الكتبية من معانيه الأصلية في الفريسية ، وعلى كل حال ، فإن القبط نفس القبط . حرفيا « القروانج » .

(7) - هو يزيد بن حاتم بن قيسبة بن الحبيب بن أبي سبرة الكندي ، أبو خالد ، توفي في سنة 170 هـ . من أفراد البساسين ، وأبي سبرة في سنة 844 هـ . في عهد المصور والامام بها نيزا وسيد سكين ، وعمره المصور في سنة 152 هـ . اسم ولسي الرابطة الشمالية في سنة 154 هـ واستقر بالها طيفا حسي عشرة سنة . فاق حلل ولاجه الخوارج ولقي على كثر من القبط . وقد كان يزيد بن حاتم مشهورا بالعداء والشجاعة والكرم ، ولله يقول ربعة الرئي :

لشأن ما بين الزيديين في التسبيح
فرد سليمان والأمر بن حاتم

المكوي ، ويبلغ عرضها اثنا عشر ذراعاً ، أي حوالي خمسة أمتار ، ثم أمر ببناء سوق خاصة لكل حرفة من الحرف . ومن ثم : فهو يعتبر بحق الباني الثاني للمدينة .

ولما خضعت جميع مناطق المغرب (أو على الأقل مناطق المواصلات التي تمتد بين كتل الجبال) للحكم الإسلامي ، أصبحت القيروان القاعدة التي تنطلق منها الطريق المتجهة إلى الهضاب العليا ، من الساحل التونسي مارّة بشمال جبل أوراس إلى شط الحفصة ، وتلتفح عنهما طرق تجمّ إلى بجاية وبسكرة وورجفة من جهة ، وإلى الهضاب العليا الغربية مارّة بمظيق نازا حتى الامتداد الثاني لسهول المغرب الأقصى .

وقد شهدت القيروان في عصر الأغالة (800-909 م) ، وهم أسرة شرقية من ولاية بني العباس أصبحوا يستعملون باستقلال يكاد يكون تاماً عن الخلافة ، شهدت في هذا العصر وفي عصر الفاطميين توسعاً وزدهاراً كبيراً . وفي القرن التاسع والقرن العاشر الميلادي ستنشأ ثلاث مدن تابعة للقيروان وهي العباسية ورفاعة وصيرة المنصورية .

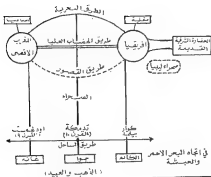
ومثل القسطنطينية - القاهرة ، ومثل قرطبة ، فإن أهمية القيروان ، تعود إلى هذا التوسع العمراني الذي كان يسانده ازدهار التجارة وتصميم القيروان وعقدة تحصيناتها تدل على قوة تأثير الفن الأيراني والفن السائد بين النهرين في الحضارة العباسية .

وقد جذبت مظاهر العظمة والثراء التي كانت تسود بلاط القيروان وقصور المدن المحيطة بها ، إلى هذه المدن أفواجا من الأدباء والعلماء والفقهاء الذين سيفضون مدارس ومذاهب ، ويستلذّ لهم البسير ، كما تليذّوا من قبل على عشاء الرومان .

ومن القيروان ، سينتشر النفوذ الديني واللغوي والفني والأدبي ،
والمعادات والتقاليد والأفكار الفكرية ، حول المدينة في المرحلة الأولى ،
ثم إلى داخل البلاد ، في مرحلة ثانية ، بواسطة الطرق المؤدية إلى
الهضاب العليا ، سيجرد ما تعطلت مقاومة البربر والسحب بتأييدهم إلى
الجيال المتبعة ، حيث لا تزال اللغة البربرية الأصلية مستعملة ، وعلى
طول هذه الطرق التي تقطعها طرق آتية من الجنوب (من محطات
تجارة القوافل عبر الصحراء) ستنشأ مدن جديدة .

ولكن ما هي النقاط التي يلتقي عندها طرق التجارة في هذا المخطط
الواسع في المغرب الأوسط ؟

أولا ، توجد تيمهرت في غرب وادي شلف على سفوح جبال تصرف
على الطرق المؤدية إلى الهضاب العليا ، وتيمهرت التي أنشئت في سنة
761 م ، ستظل حتى سنة 908 م مقرا للدولة الرستمية الفارسية وعاصمة
الخوارج من البربر الذين سيحتفظون بعلاقات مع الخوارج المقيمين
على شواطئ الخليج العربي . وقد ازدهرت تجارة تيمهرت ، وكان
مقصدا لعدد كبير من رجال العلم والأدب والفقه من المارة ، وكذلك
حصلت مكتبة الرستميين على ثروة جديدة من الكتب التي اشترت
في الشرق ، وخصوصا من الكتب التي تتألف التنجيم والفلك .



ولما بحث الرستميون عن ملجأ يأوون إليه ، وجدوا هذا الملجأ أولا
في ورجلة ثم في سدراته ثم في مزاب ، على طول الطريق المتجهة من
الشمال الى الجنوب .

وفي نهاية القرن الثامن الميلادي ، كانت طينة الواقعة على شط
الحضنة والتي حصنها الولاة العباسيون تتمتع بسكانة مرموقة . وفي
سنة 927 م.، قام عبيد الله الخليفة الفاطمي بإنشاء مدينة المسيلة ، في
مكان يقع في شمال طينة .

وكذلك قام امراء سنهاجة ، أعوان الفاطميين وحلفاؤهم على المغرب
بعد رحيلهم الى القاهرة ، بإنشاء سلسلة من المدن . ومنذ سنة 935 م .
أي قبل رحيل الفاطميين ، قام زيري بن مناد بإنشاء مدينة أشير ، على
سفوح جبال الحضنة . وقد وجد زيري بن مناد ما يحتاج اليه من العمال
والتجار والصناع محليا ، ولكنه طلب الى الخليفة الفاطمي أن يبعث
اليه مهندسين معماريين ليجري العمل في بناء أشير تحت اثرائه فأجاب
بلاط الفاطميين طلبه . وقد شهدت أشير ازدهارا سريعا فيما بعد .

وكذلك قام ابنه بلكين بن زيري (بناء على أوامر أبيه) بإنشاء
مدينة المدية على الضفة الواقعة شرقي نهر الشلف ، مليانة ، على ضفة
النهر البني ، ومدينة الجزائر ، وهي مراكز تنتشر على الطرق المتجهة
الى البحر .

وفي سنة 1007 ميلادية ، أنشأ حماد بن بلكين قلعة بني حماد ، على
سفوح جبل « تريمست » يرتفع في شمال الحضنة ، واتخذها عاصمة
لذلك بني حماد . وقد بقي من قلعة بني حماد آثار مهمة ، من بينها آثار
قصر مشابه لقصر سمر من رأى ، وهو تصميم سنجقده أيضا في أحد
قصور الشيلية . وقد اتسع عمران القلعة وزاد عدد سكانها بسرعة .

وكان التجار والعلماء والقانون ، يشكلون ثلثات معتبرة من سكان القلعة التي اشتهرت منسوجاتها في جميع أنحاء المغرب ، وكانت القلعة مقصدا للقوافل الآتية من مختلف البلاد ، وكانت علاقات عاسية بين حباد التجارية قوية خصوصا مع مصر وسورية والعراق ، وقد استفادت القلعة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر من خراب القيروان نتيجة لغزو بني هلال لأفريقية ، وحلت محلها . وهجر إليها كثير من العلماء والقنائل والأعيان من أفرقة طلبا للأمن والاستقرار . وقد استمرت تقوم بدورها التاريخي حتى تمزقت بدورها للاختلال نتيجة للغزو الهلالي ، وحتى وجد بنو حباد ملجأ لهم في مدينة بجاية .

وفي غربي مملكة بني زيري وبني حباد الصنهاجيتين . تمتد مناطق نفوذ زواته ، التي تشمل القسم الغربي من ولاية وهران والمغرب الأقصى . ومدين زواته الرئيسية هي ، تلمسان (Tlemcen) قديما) ، ووجدة التي أنشأها أحد زعما زواته في سنة 994 ميلادية . على الطريق المتجهة الى الغرب والتي تربط تازا بفاس .

وفي سنة 788 م . وصل الى المغرب حيث التجأ الى أوليالي (Volatuli) أندريس « بن عبد الله » . أحد أبناء الأشراف من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم . وهناك استجار بقبيلة أوربة . وأما أخوه الذي الحق به فيما بعد ، فقد سار الى تلمسان . وقد قام كلاهما بإنشاء إمارة . أحدهما في تلمسان والآخر في فاس . وبعد ذلك قيام الإدارة بدور مهم في إنشاء المدن وبث المدن القديمة . فقاما أدلسة تلمسان ، فقد حققوا كثيرا من الرخاء والأزدهار لهذه المدينة التي يقول اليعقوبي أنها كانت في القرن التاسع الميلادي ، مكتظة بالسكان وعامرة بالنصوور والمنازل العامرة ، ويحيط بها سوران مبنيان بالحجر . وكذلك أنشأوا ميناء أرشغول (في جزيرة أرشغول) وهنين ، وعدد من مراكز الصمران الصغيرة التي تبلور فيها النشاط الاقتصادي .

وهي كلها تحمل اسم مؤسسها الذي يأتي بعد كلمة سوق : سوق إبراهيم - سوق حمزة : الخ .

وأما أدريس الأول . فقد غادر خرائب الوليلي الرومانية لكي يضع أسس عاصمة مملكة . مدينة فاس (1) التي ستقوم بدور فلورييس كما حلت تونس محل قرطاجة . وقد اختار أدريس الأول موقع المدينة بناية على الطريق التي تمتد من تلمسان غربا . وتغطي جنوبا إلى سجلماسة . في منطقة خصبة يتوفر فيها الخشب والحجر البناء . وكذلك توجد عيون ثرة في المنطقة (2) وفي سنة 789 . قامت مدينة فاس على الضفة اليمنى لواندي فاس الذي يسمى الآن نهر سيو . وقد كانت فاس في البداية مدينة بربرية ، تتكون من خليط من الخيام والمنازل المرتجة ، ومن الراعي ، كما تشتمل على مسجد ، وربما كان فيها أيضا منجر جناعي . وتحيط كل ذلك في شكل أسوار جذوع الشجر وحواجز القصب . وبعبارة أخرى ، فإن المدينة كانت متواضعة . ولكن أدريس الأول كان يقيم فيها ، حينما يبتعد عن أوليلي . ومات أدريس الأول في سنة 791 ميلادية .

وفي سنة 805 ، انضم إلى ابنه أدريس (الثاني) بن أدريس الذي ولد بعد وفاته والذي رياء العبيد الذين أعتقهم . نحو خصالته من المشاركة الذين أغرامهم صيت الشرف وخيرات هذا البلد الجديد . وكذلك قصد إلى المملكة أقوام آخرون من الرقبة . ومن هؤلاء شكل أدريس الثاني جيشا

(1) أحمد امين الله الراسل هذا نظرية المستشرق ليفي بروغلسا لتنامي مع الرواية التقليدية الثالثة بأن أدريس الثاني هو باني مدينة فاس . وقد تمدين في التفسير الذي خصصته المدينة فاس في كتابي دولة الأمازيغية حول فاس والمغرب وقرطبة لأحد جميع الشعوب القديمة التي تشمل بالكونوع ولتطابقها . وقد أوضحته أن الرواية التي استند عليها ليفي بروغلسا (وهي عبارة عن دوحه قديم) غير كافية لإثبات الرواية القويمة التي لابد تكون محل الجعاج . (انترجم)

B - راجع : E. Lévi-Provencal, La Fondation de Fés : in « Annales » de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger, IV, 1938.

وحاشية على الطريقة الشرقية . وفي سنة 808 م ، أسست فاس الجديدة على الضفة الغربية للنهر . وهذه المدينة ، ستكون عاصمة الدولة .

والى جانب المسجد والقصر والأسواق ، اشتملت المدينة الجديدة على بيت لضرب السكة تسمى «العالية» بدأت تصدر النقود منذ سنة 810 م .

وفي وقت متأخر ، سينشأ حي في فاس يسمى ، حي القرويين (عدوة القرويين) .

وأما المدينة ، فستظل مقرا للبربر ، وتحتفظ بظهورها الريفي .

وإثر قيام إحدى ضواحي المدينة (ريف) قرطبة بثورة ، في سنة 814 ، هاجر عدد كبير من العائلات الأندلسية الى مصر « الأيسكندرية » ثم الى جزيرة كريت . وقد استقبل أندرس الثاني 8000 عائلة من هؤلاء المهاجرين وأزلمهم في فاس ، على الضفة اليمنى للنهر (عدوة الأندلسيين) .

وكذلك عرف جنوب المغرب الأقصى توسعا في المدن فكانت انضمت ونجس على المرات الجبلية المؤدية الى السوس الأقصى « إيفلي » . والى سجناسا « تافيلالت » ، كما أنشأ المرابطون مراكش في سنة 1077 ميلادية ، عقب وصولهم الى موقعها قادمين من ربط الصحراء عن طرق القوافل .

وكانت مراكش في بداية عهدنا عبارة عن خليط من الخيم والمنازل ، ثم بنيت أسوار حولها . وقد نمت هذه المدينة وتطورت ، على الطريقة التي نمت بها مدينة فاس ، من منجم الى مدينة شرقية عظيمة القدر .

وفيا بعد ، أطلق على البلد كله اسم عاصمته الجنوبية الكبيرة .

الأندلس

تتضمن شبه جزيرة الأندلس على سهول ساحلية ، وهي المنطقة التي استقر فيها الحكم الإسلامي في البداية : سهول الشرق (Campes) (Jarcarius) وهي منطقة حديثة الاستقلال ولم تفقد خصبها . وبمدها تأتي الهضاب الداخلية ، وهي سهوب وأراضي زراعية يسهل التنقل فيها . وأخيرا تأتي المناطق الجبلية التي تقع خارج نطاق العمل المباشر . والبلد مقسم الى ولايات متباينة الخصائص .

فاما الجهات الشمالية الغربية من شبه جزيرة الأندلس فقد كانت يسكنها شعوب من الآستور والكاتالار والفاسكون ، وهي لم تخضع قط للقوط ولا للمسلمين . وقد كانت دائما ملتجا وملذا وفيها يهد ، تشكلت مملكة الآستروليوني التي ستصبح قاعدة لبطل المسيحيين لاسترجاع الأندلس الى حكمهم .

وفي شمال بلاد الأندلس ، تمتد ولايات الثور التي كانت محصنة بسلسلة من القلاع وتفن منها غارات على البلاد المجاورة والمدن الواقعة خلف هذه المنطقة ، وهي قواعد بلاد الثور : الثغر الأعلى ، وقاعدته سرقسطة ، والثغر الأوسط ، وقاعدته مدينة مسالم (Medinaceli) والثغر الأدنى ، وقاعدته قرورية (Coria) ، وطرق المواصلات تقطع منطقة الغارات في نقاط معينة . والطريق الوسطى الكبيرة تمر بسرقسطة وطليطلة وتمضي حتى تصل الى قرطبة وإشبيلية ، حيث تنفني بطريق الملاحة النهرية في النهر الأعظم ومن قرطبة ينفق عدد من الطرق وتتخذ شبكة المواصلات شكل نجم : فطريق نهر إبرة (Ebro) تنطلق من لمطوشة مارة بسرقسطة وطليطلة (Tudela) حتى ممر فيتورا الجبلي . وأما الطرق البحرية الرئيسية ، فتستند على الشواطئ الشرقية من لبرونه (Murbonne) حتى اللرية (Almeria) والنهر الأعظم ، وعلى

النساطرة الغربي الأوردالس (Castro Urdiales) على خليج بسكونية
(Golfe de Gascogne) حتى قصر أبي دانس (Alcaer de sal) ونهر قرطبة .



الشكل رقم 7 - الأراضي الاسبانية

خلاصة التأثير الإسباني :

إذا استثنينا المنصر البسكوني (Basque) . فإن أسبانيا كانت مأهولة لدى وصول المسلمين إليها بعناصر إسبانية قديمة . امتزجت بعناصر جرمانية وشرقية «السوريين واليهود» .

والسكان الذين ينتمون إلى أصل سلتي إسباني والذين نأثروا بعض الشيء بالرومان ثم تخلصوا من هذا الأثر ، كانوا موزعين في مناطق صحراوية أو شبه صحراوية .

والمناطق الشرقية التي تتكون من مستنقعات ومن ألسنة البحر كانت أهميتها تنحصر في الطرق الناطقية التي تمر بها . ولكن الطرق الرئيسية كانت تمر في الداخل في العصر الإسلامي .

وأما المناطق الغربية ، فقد كانت ضحلة السكان ، وتغطيها غابات الصنوبر . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمناطق الجبلية . وعلى عكس ما شاهدناه في بلاد البربر ، فإن أسبانيا لم تعرف توسعا ديموغرافيا قبل الفتح الإسلامي . وكذلك أخذ الأسبان ، اثر الاضطرابات والتفقر الاقتصادي الذي مر به البلد ، عقب انتهاء الامبراطورية الرومانية يعودون إلى التقاليد السلتية والاسبانية التي كانت سائدة قبل الرومان .

وعلى التحول مستشهد تطورا سريعا بعد وصول عصابات القوط الذين كانوا لا يزالون في المرحلة البدائية في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي . والجمع الاسباني القديم كان يقوم على أساس من علاقات التضامن والوثاق التي تربط الرجل بالرجل . وعبارات التضامن القومي والولاء التي يستعملها المؤرخون اللاتينيون عندما يصفون عود الرومان لاسبانيا ، هي نفسها التي يرددونها حينما يتحدثون عن الجمع

الجرماني . وبعد مرور وقت من الزمن ، أخذت مستويات المعيشة ونوع الحياة السائدة في مجتمع الغزاة والمجتمع الأسباني يتعادل تدريجيا . والتشكل على أساس الأسرة ، تلك الغلبة الأولى والمهمة في المجتمع الجرماني ، هو أيضا أساس المجتمع الأسباني . وكذلك تعود في القبيلة الجرمانية والأسبانية نزعة إلى الأفراد والاستقلال . وهذا التكوين الاجتماعي محكم التقسيم ولكنه ينقصه التنظيم ، تماما مثل التكوين السائد في المجتمع البربري ، في المغرب . وهذه الظاهرة ، تفسر لنا انقسام البلد فيما بعد وتفتت الحكم فيه في العهد الذي يعرّف باسم ملوك الطوائف (Règne de Taifas)

كان الوضع السائد في أسبانيا قبل الفتح الإسلامي يتسم بالتقهقر والانعطاف الاقتصادي والاتجاه إلى إحياء المبادئ والتقاليد التي كانت منتشرة قبل الاحتلال الروماني وتضعف آثار الدولة واستقرار السيطرة الجرمانية . وقد كان يمكن أن يتخذ العمل للتخلص من النفوذ الروماني شكلا أعمق ، لولا وجود الكنيسة التي كانت تهيمن على التقاليد الدينية واللغة اللاتينية . ومنذ البداية ، كانت الكنيسة الأسبانية تنتسج بالنفوذ والثروة ، وكان رجالها ينتمون إلى طبقة الملاك ، كما كانت هبات أتباعها تزيد من سعة أملاكها باستمرار . وكذلك كان تضلّي ملوك القوط عن المذهب الأرماني (9) وانتاعهم المذهب الكاثوليكي مصدرا لقوة جديدة مكنت الأساقفة من تعزيز مراكزهم . ولا سيما في العاصمة ، طليطلة ، التي كان أسقفها ينتسج بسكّانة خاصة

9 - ملحق بنتر التوعية المسبح عليه السلام - المرفج - .

في عهد الخلفاء . ففي عهد الحكم الثاني (10) قام الملك ليون أردون الرابع بإزالة قرطبة ، وكان مطران طليطلة من بين الأعيان المسيحيين الذين عينوا لاستقباله وتعرفه الراسم المتبعة في بلاط الخليفة .

وهذه القوة والنفوذ الذي تمتع به الكنيسة الأسبانية ، يفسر لنا بقاء جماعة مهمة من المسيحيين تمارس نشاطا كبيرا ، بل وتشاغب كثيرا ، خصوصا في طليطلة وقرطبة وإشبيلية . وقد عثت المدن مراكز للمحافظة على نفوذ الرومان والمسيحيين كما كانت فيما بعد مراكز لنشر الاسلام والثقافة الشرقية . وكان المسيحيون يتمتعون بوضع الذي يهود مير ، باسم منطقة مرسية (Murcia) . وبموجب هذه النصوص الذي تضمنه لهم في بعض الحالات معاهدات الصلح ، مثل التي وقعها بينهم القزاة المسلمون باحترام ديانة المظفرين وكنائسهم . والواقع أن التسامح الديني كان يشمل الجميع ، وذلك فيما عدا المرتدين المسلمين أو المسيحيين الذين يريدون الاستشهاد .

و « المستعربون » (Mozarabes) يشكلون جماعات يترأسها شخص يختارونه بأنفسهم ويكون مسؤولا على حفظ النظام وجباة الضرائب على الأسس المعمول بها في الشرق : القسس الذي يشمل

10 - الحكم بن عبد الرحمن بن سعيد بن عبد الله (المتنصر) 302 - 306 هـ ، خليفة أموي أندلسي . وقد يقرطبة وولي الخلافة بعد أبيه (سنة 350 هـ) وكان دافعون عن القوقس ، ملك الأسبان ، ثم طبع في ملكه واحد النجمة للأندلس على قرطبة ، ولكن المتنصر سببه وغزا الأسبان بنفسه فاضلوه على السلم ، واضطرت على « كنه » بقرطبة وسافر أرباب القتل ملك حصونهم القريبة من لعمرو وجعلوه على ألا يداخلوا عليه أحدا من ملوك المسيحيين الذين يدخلون في حرب معه . وقد تولى المتنصر وكثرت فتوحاته ، وكانت زيارة أردون المذكور له في قرطبة لاستشهاد . و ذلك أنه بعثه يمينه وخليفة غراس (Comares) جليمة وسنورة ، وحبيب بنسورة ملوك زنادة في الحرب الأندلسي ، وكان حلفا بالدين ملنا بالادب والتاريخ فليطبا في صرخة الانساب جليما للكتب معيا للعلماء ، وقبل أن يمكثه بشت أرمصة ألب سبلة ، فل ابن حرم ابن ولايته أصبحت خبسة مشر ملنا « في عدو وطو » . وقال ابن حبان : « وبأسه طرد ابن علي المبتدائي القاطن كتاب الأمان وطبه بعد حاميد وغلته » . (الترجمة) -

الجماعة ، والأسقف يقوم بجمع الجزية . وللمسيحيين قاضي يحكم في الأحوال الشخصية (قاضي النصارى) كما كانت لهم عقوس دينية خاصة (عقوس المستعربين) .

وكذلك يفسر لنا اتحاد الكنيسة القوي ، المحافظة على اللغة اللاتينية التي ستتطور الى لغة رومانية (الألبانية) تشمل على كثير من الكلمات العربية ، ولا سيما في المجال التقني .

وتقويم قرطبة (11) في سنة 961 م مكتوب باللغة العربية واللفظة اللاتينية . والكنيسة ، متحافظ على جميع الخصائص الأساسية التي تميزها منذ عهد القوط حتى استرجاع المسيحيين الأندلس . وأما علاقتها مع الدول المسيحية الواقعة في الشمال ، فقد كانت تزداد قوة مع مرور الزمن حتى نهاية القرن العاشر الميلادي .

الغشاقيسون :

والعصر الآخر لهم من عناصر سكان أسبانيا في عهد القوط ، هو العصر الشرقي الذي سيشتد ويقوى في العصر الاسلامي . وهذا العصر يتكون أساساً من التجار اليهود والموريسون وكان يتركز في مناطق المردور الكبرى : في الجنوب الغربي ، والشمال للشرقي من شبه جزيرة الأندلس ، وفي الجنوب ، غير بعيد من مضيق جبل طارق ، في ممتلكات قرطبة القديمة ، حيث كان الناس لا يزالون يتحدثون اللغة القبطية حتى في القرن الثاني الميلادي ، وحول ملقة ، التي لاحظ استرابون طابعها الفنيقي ، وعلى ساحل قادس وفي قرطبة (12) ، وفي المستعمرات الداخلية ، بين مالقة (Malaga) وقرطبة والبيرة (Elvira)

11 - داجيج : E.D.R. Dozy, le calendrier de l'année 961, texte arabe et ancienne traduction latine, Leyde, 1873 éd. et trad. par Ch. Peilen, Leyde, 1961.

12 - هيثم أسباني يضع في دلالة مرسية على البحر الأبيض المتوسط اسم هذه الدنة الفينيقيون في سنة 223 في م (المرجع) .

التي كانت تسمى « غرناطة اليهود » . واعتناق المهاجرين الشرقيين للديانة اليهودية ، يعتبر من الحوادث الهامة في التاريخ القديم للبحر الأبيض المتوسط . وفي الشمال الشرقي ، تجمع الشرقيون عند سفوح جبال البرت (Pyrenees) التي تفضي من أسبانيا إلى بلاد القلعة . وقد اقتشروا على طرفي الجبل ، في سبتانيا وقسطنطين . وعن طريق طرطوشة ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وطركونة ، ویرشلونة ونيزونة ، كان اليهود (الراذانيون) يسيرون إلى مدينة ليون سالكن نهر الرون (Rhône) ثم إلى نهر الراين . (Rhine)

كان النصر اليهودي في مملكة القوط غير مندمج في السكان الأسبان والجرمانيين . وقد كان وضع اليهود في عهد الملوك الآرين محتلا . ولكن هذا الوضع تغير في عهد الملوك الكاثوليك ، ولا سيما في عهد ركاردة ، حين كان اليهود يتعرضون للاضطهاد . ومن هنا ، فلا عجب أن لرى اليهود ، ولا سيما تلك الجبايات التي تقيم في الجنوب ، يستقبلون الفاتحين المسلمين استقبالا حارا . بل أن بعض الروايات تنسب إلى أبعد عن ذلك ، وتهم اليهود بالتواطؤ مع المسلمين . وكذلك عهد الفاتحين المسلمين إلى اليهود بمهمة حراسة المدن التي فتحوها في الأندلس . وابتداء من القرن الثامن الميلادي ، كانت هجرة اليهود للشرقين إلى الأندلس مستمرة . وأكبر الجبايات اليهودية في أسبانيا المسلمة ، كانت تعلق في قرطبة ، المركز الاقتصادي والسياسي ، حيث كانت توجد بيعة (القرن العاشر والقرن الحادي عشر الميلادي) .

وقد لعب اليهود مثل الطبيب حاسدي بن شبروط الذي كان وزيرا لعبد الرحمن الثالث أدوارا هامة في بلاط الخلفاء (13) وكذلك قاموا بتنظيم مملكة غرناطة في القرن الثاني عشر الميلادي .

والعنصر اليهودي ، أو اليهود : سيهل العلاقات بين الشرق وأسيانيا الإسلامية ، ولا سيما حينما تكون العلاقات بين نظم سياسية متعارضة (مثل الأمويين والفاطميين) ، كما سيهل العلاقات بين أسيانيا الإسلامية والبلدان المسيحية الواقعة في الشمال (14) وكذلك تكونت شبكة من الجماعات اليهودية على طول وادي الرون والبلاد الواقعة عليه ، كانت تقوم بنشاط واسع النطاق في تجارة العبيد ، في المنطقة التي تمتد بين نهر الألب ، وبلاد الأندلس ، ومن جهة أخرى ، فإن شبكة تتكون من اليهود تمتد من أسيانيا حتى المغرب الأقصى ، وتشمل السوس الأقصى والصحراء والسودان ، وتعمل في التجارة في الذهب والعميد السود ، دون أن يقطع نشاطها ما يجري في هذه البلاد من التفتت والتنافس السياسية . والربالة التي وجهها حاسدي بن شبروط ، وزير عبد الرحمن الثالث ، إلى ملك الغزر ، وهم شعب اعتنق الديانة اليهودية وتمتد أراضيه على ضفاف القولجا ، تلقى ضوما ساطعا على العلاقات بين جماعة يهودية وجماعة أخرى ، تقع كل منهما على الطرق الكبرى التي تسيطر فيها التجارة العالمية (15) .

13 - يعتقد أن ذكر في هذا السياق أيضا يوسف بن الخواطة الذي سلم إليه يادويس شاهيد العظيم في منطقة قرطاجة . وقد حل محل ابنه اسماعيل بن غسزالة ، وزير جيوس في يادويس ، ثم خلفه يادويس لوفى سائر كنديه ووزرائه وولعي اليه أمر جميع القوا والصحراء ، الذين كان يدين معظمهم من اليهود . وقد انضم يوسف بالقر والمداء ، وديانة الكفل والشمك في الآداب العربية والعبرية ، كما توسع الرماية والفلك والهندسة ، ولا توفي يوسف ، لقب يادويس ابنه يوسف بالانطلاق بنسبه . (المرجع) .

14 - Lombard : La route de la mer et les relations lointaines des pays Mosans entre le VIII^e et le XI^e siècle dans l'art Mosan, recueil de travaux pub. par P. Francastel. Paris, 1953, pp. 9-28.

15 - Leites en Hâgîn des Khazâr « vers 938 » éd. et trad. E. Carmoly. Introduction de terre sainte de XIII^e, XIV^e, XV^e, XVI^e, XVII^e siècle. Bruxelles, 1847, p. 38.

ولكن دور اليهود في التاريخ الاسلامي ، لا ينحصر في العلاقات التجارية . فان مدارس اليهود في قرطبة وطليطلة كانت تتلقى تيارات التفكير الآتية من بلاد ما بين النهرين . وكانت توجد في قرطبة مدرسة لتتلمذ ذات شهرة واسعة . والى جانب فصلهم في العلوم والأدب العبرية ، كان لأخبار اليهود علم واسع بالأدب العربي القديم . وكان منهم الأطباء والعلماء ولا سيما في الفلك والتنجيم . وقد كان «موسى» ابن ميمون القرطبي (16) على رأس هذه المدرسة في القرن الثاني عشر الميلادي .

وكذلك عرفت طليطلة ، وهي مدينة كبيرة للمستعمرين المسيحيين نشاطا ثقافيا يهوديا واسعا . وقد كان يوجد في هذه المدينة التي تختلط العناصر المسيحية واليهودية ، مركز للترجمة من العبرية إلى العربية ومن العبرية إلى اللاتينية . وعند استرجاع المسيحيين للأندلس (1085 م) ، مرت الأعمال التي ترجمت إلى الغرب المسيحي . وكذلك مرت أعمال أرسطو وغيرها من سلاسل التفكير اليوناني التي ترجمت إلى اللغة السريانية ثم إلى العربية والعبرية واللاتينية ، بمراحل وطرق واضحة المعالم : الأديرة السريانية التي تقع في شمال سورية وليما بين النهرين ، ومكاتب الماسون للترجمة في بغداد ، ثم إلى مصر وأفرقية الشمالية والإندلس : قرطبة ، وطليطلة

16 - موسى بن ميمون بن يوسف بن اسحاق أبو عمران القرطبي ، حاكما سيده ابن أبي أصيبعة ومن أسفلهما عنه ، وأما بروكلمان ، فيسببه « موسى ابن حبيب الذي بن ميمون » . طبيب وفيلسوف يهودي ، ولد وعاش في قرطبة « 522 - 601 هـ » . وقد تظاهر بالإسلام ثم عاد إلى يهوديته « وبعد ما تنقل مع أبيه في الإندلس قصد إلى القاهرة حيث أقام 37 عاما (من سنة 567 هـ) حيث أصبح وليا ورجيئا لليهود - والمجسور بالقرآن ابن ابن ميمون اتصل وطفا طبيباً في البلاط الأيوبي ، وقد وضع عددا من الكتب بالعربية والعبرية » من أهمها كتاب « دلائل الحشر في القسمة » (ثلاثة أجزاء) و « القصور » في الطب ، ويعرف بقصور القرطبي وألحاحا ترجم إلى اللاتينية وطبع بها ، وخرج السيد « الشافعي » و « الصفدي » في المعجم اللغوية ، « ورسالة في اليواسير » و « مقالة في الزبر » ، و« في ميمون في القاهرة وداني في طبرية » فلسطين . « الترجمة » .

والمراكز اليهودية اللاتيفوك ، لتصل في القرن الثالث عشر الى جامعة
البربون .

الغزاة : البربر والعرب

كان الفتح الاسلامي للأندلس سريعا سريعا (711-714 م) ولم يكن له
أي رد فعل يذكر بين سكان الأرياف . فبعد انهيار القوط عسكريا في
معركة وعر يرباط Rio-Barbate في سنة 711 م ، استسلمت المدن
المحصاة الواحدة تلو الأخرى وكلف اليهود بهمة حفظ الأمن فيها .
ومنذ سنة 714 م ، وصلت الجيوش الاسلامية الى ولاية سبانيا ،
وبعد حركة استكشاف في طريف ، قاد طارق بن زياد (17) جيشا من
البربر لا يزيد عدده عن 7000 مقاتلا . وفي السنة التالية (712م) خرج
موسى بن نصير والي المغرب بنفسه الى اسبانيا على رأس جيش تعداده ،
10.000 جندي وكلهم من العرب . وهؤلاء الجنود الفاتحون سيطروا
كلهم في اسبانيا ، وهذا الفوج من المستوطنين العرب والبربر الذين
يبلغ عددهم 17.000 نسمة ، كلهم من الرجال ومن العساكر ، ولكن
هجرة مهمة من البربر الذين أنعمهم ثروة البلد الذي الفتح ، ستبقى
أزهم خلال القرن الثامن الميلادي ، وتستمر حركة الهجرة بدون
انقطاع حتى نهاية العصور الوسطى . وهذه الهجرة هي التي سمحت
باستمرار مملكة غرناطة حتى القرن الخامس عشر الميلادي . والمأساة

17 - طارق بن زياد « القتيبي بالقول » . اصله من البربر اسلم على يد موسى بن نصير
وكان من أشد رجاله . ولما تم لموسى فتح طليطلة « ولي طليطلة فقام بها التي
أوائل سنة 92 هـ » حينما جيز موسى جيشا معظمه من البربر لتقوية الأندلس ،
بقيادة طارق . وقد الفتح طارق على التوالي : جبل طارق وحصن قرطبة ثم فاق
القف روميرا Rodric لقتله طارق ، والفصح لفيشبية والشمعة لم أرسل من
السنوي على قرطبة ومالقة ، وأدخل طليطلة « عاصمة الأندلس » ثم عبر وادي
الكمشيرة والسنوي على هذا مدن : منها مدينة سالم ، ولقد حوله موسى بن نصير
مقابلا له على تولفه في الفتح ثم أعاده الوليد بن عبد الملك « وواصل لمواجهته
فبعد من طليطلة ثم فاق الى منابع نهر التاج ، واستعان بموسى على فتح سرقسطة
فألقها وأحتل قرطبة وبطانية وشاطبة ودانية واستعاد الوليد إلى الشام
وقصد مع موسى في سنة 96 هـ . وبعد هذا الفتح ، يستعمل طارق كتيبة من
السنبان على طليطلة هذا البطل البربري العظيم . - الترجمة -

الأساسية ، هي : أن عدد البربرين المهاجرين المسلمين الى أسبانيا عدد مرتفع ، بحيث يشكل الأغلبية الساحقة .

وفي سنة 741 م ، قام البربر بثورة في أسبانيا ضد الرؤساء العرب ، وكانت هذه الثورة نتيجة لثورة البربر في المغرب وظهور قوة صناعة . وهؤلاء البربر ، كانوا يحتفظون بعلاقات مع اخوانهم في افريقية . وكانوا يعملون لتحقيق هدف واحد وهو الاستقلال في ظل الفوضى . وكذلك كان البربر ينتخبون رئيسا لهم ويقيمون بحلق رؤوسهم ، لتمييز أنفسهم عن أعدائهم . ولكن العرب الذين استقر لهم الأمر في أسبانيا وينتقلون تعريجات من الجنود السوريين ومن بلاد البربر ، سيفضون على هذه الثورة . وبعد الهزيمة الشكرة التي مني بها البربر ، وجهت الجيوش السورية الى المناطق الجنوبية ، فاحتل جنود دمشق ألبيرة وجنود الأردن ، مالقة ، والفلسطينيون ، سيدونه ، وجنود حمص ، أنشيلة ، وجنود قنسرين ، جيان . وهؤلاء السوريون هم الذين سيدخلون قرية دودة الحرير ، وتسج الحرير في هذه المنطقة .

كان العرب الذين يحتقرون الأصائل السردلية يقيمون في المدن ويمشون من الضرائب التي يدفعها المزارعون .

وفي الأسماء الجغرافية للأماكن ، نجد الأسماء العربية منتشرة خصوصا في السهول الشرقية . وأغلب أسماء الأماكن تبدأ ببني : بني غايو ، قرب بلنسية ، (Valencia) وبني قاسم ، قرب قسطلون (Castellon) وبني غاتم الخ .

ولكن البربر الذين هاجروا الى الأندلس ، في مجموعهم فضلوا الاستقرار في الأرياف ، ولم يختار البقاء في المدن سوى عدد صغير . أما سكان جبال المغرب الأقصى الذين انتقلوا الى الأندلس ، فلم يكن في وسعهم الاستقرار الا في الجبال الاسبانية : سلسلة الجبال التي تمتد

من الجنوب إلى الشرق ، وسيرانيا دو روند ، وسيرا فادا ، وفي الشمال في سهول وادي النهر الأعظم ، وسيرادا المادن ، ووادي الزملة (Guedetama) .

وقد كانت جميع المستعمرات البربرية تقع خارج سهول الأوديسة الأندلسية الواسعة . وفي كل مكان تسهل فيه الإقامة للبربر ، كانوا يشكون جماعات من القبليين ويطلقون أسماء قبائلهم على تلك المواقع . وهكذا أطلق اسم جزولة على الجبال التي تمتد بين غرناطة والبحر ، وأصبحت تحمل اسم « سيرا لوس جزول » . ومعظم المناطق التي تمتد في الجنوب والشرق في إسبانيا ، خارج السهول ، كانت مأهولة بالبربر . وقد كان البربر يمارسون تربية الحيوانات بصفة جبلية ، « المشتى » ، كما كانوا يعتمدون على زراعة الأشجار ، وخصوصا ، الزيتون .

والمنطقة الشرقية كانت أكثر المناطق تأثرا بالنفوذ العربي . فإن ابن سعيد المغربي ، (من القرن الثالث عشر الميلادي) ، يذكر أن سكان المناطق الجبلية يرتدون العمامة الأفريقية ، ولكن سكان قرطبة والمناطق الشرقية يضعون على رؤوسهم للقلنسوة ، وهي غطاء طويل للرأس أصله إيراني (18) .

والزهدار سهول وادي النهر الأعظم في العصر الإسلامي ، أنها كان استمرارا للشو الهائل الذي شهدته هذه المنطقة في عهد الرومان . ولكن الميل الأسيل الذي قام به السلمون والمنجزات التي حققتها ، أنها تقع في مناطق كانت شبه صحراوية عموما واستصلحوا أرضها ، خصوصا في الشرق والغرب . ويضاف إلى ذلك التنظيم الزراعي الذي يعرف باسم المشتى (Mesta) واستغلال شرق الأندلس الذي يقوم على تجديد

18 - قلعة القري في لومبر الرابع (137/1) من ابن سعيد المغربي .

الزراعة ونعيم الري ، الأمر الذي سمح للعرب بإدخال محاصيل شرقية إلى الأندلس ، مثل الأرز ، والقطن وقصب السكر ، والبرتقال ، والموز . وكذلك أدخل العرب إلى الأندلس صناعة الحرير التي ستظل إسبانيا عهدا طويلا ، البلد الوحيد الذي يمارسها في الغرب . وقد أقام المسلمون مركزا مدنيا مهما في المرية .

وأما استثمار غرب الأندلس ، فهو يقوم على تحويل مناطق غابات الزان إلى أراضي للمنتجات الاستوائية . وكذلك أصبحت حقول الزيتون تمتد في منطقة واسعة « الشرف » في غرب الشيلية . ومن منجزات المسلمين أيضا إنشاء دار ثالية لصناعة السفن البحرية في قصر أبي دالس ، غير بعيد من منجم الملح الواقع في استوبال ، وبناء مصائد قسك ، وتوسيع نطاق التجارة بالطرق البحرية ، الأمر الذي أصبح ممكنا بفضل أحواض واسعة لبناء السفن كانت تستعمل الخشب الذي تنتجه الغابات المجاورة .

وأخيرا ، فقد حمل التبرير من الشمال إلى إسبانيا ، طريقة التربية الجبصية للفنم : حراسة القطعان ورعيها وإتباع طرق واسعة في الاستجاع ، المشتى الذي أخذ شكل « مستانس » ، باللغة الإسبانية وهذه الطريقة الجبصية ، يجري العمل بها في الهضاب الداخلية وفي الجبال التي تحيط بالمناطق التي كانت في عهد الرومان ممرلوة قاحلة . وبعد استعادة المسيحيين الأندلس ، سيحافظون على هذه الطريقة في تربية الحيوانات ويحصلون منها تنظيما « وطييا » ناجحا . وقد كسبت إسبانيا ثروة طائلة من إنتاج الصوف فأدخل غرض التخم المسمى « الليزو » ذي الصوف الناعم والرن « والذي نجد اسمه في تصوص إسبانية ترجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي » ، بصورة اقتصادية مفيدة ، يعيش جنباً إلى جنب مع النوع المسمى « القشوزو » ذي الشعر المتصلب . ومن جهة أخرى ، فقد انتشرت تربية الضيول ، وقد نتج عن تهجين السلالة الإسبانية بالفرنس

البربري سلالة تسمى « جينيت » من (زناتة) . والأرجح أن الاهتمام بتربية الضيول كان له أثر في إدخال أنواع جديدة من العلف ، ولاسيما « الفلفا » الذي هو من أصل فارسي والذي لا يزال يحتفظ باسمه العربي في اللغة الإسبانية .

التأثير الشرقي في اسبانيا : امصار قرطبة :

شهدت الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلاديين ازدهارا كبيرا في العمران وبناء المدن في العالم الاسلامي ، وخصوصا في اجزاء المدن القديمة وبمناخ النشاط فيها . وقالة هذه المدن في اسبانيا اكبر منها في شكل افريقية وذلك لأن حركة الأعمار وبناء المدن في اسبانيا في العصر القشتالي والعصر الروماني . إذا لم تكن اوسع مما كانت في شمال افريقية : فقد كانت بالتأكيد أكثر كثافة ، وزيادة على ذلك . فإن القوط الرحل ، انتهى الامر بهم الى الاستقرار في المدن .

وقد مرت المدن الإسبانية في العصر الاسلامي بفترة من النمو والازدهار . لا يمكن مقارنتها بما عرفت في عهد الامبراطورية الرومانية . وأهم المدن وأكثرها ازدهارا هي انبيلية وقرطبة والمركز الكبيران اللذان يقعان في وادي النهر الاعظم ، هما مالتة وقادس . وهما ميناءان على مضيق جبل طارق . وتأتي بعدهما طليطلة وسرقسطة . ولكنه الى جانب هذه المراكز التي قام المسلمون باحيائها وبمناخ النشاط فيها ، لا يوجد سوى مركزين من النشأة . وكلا هاذين المركز ميناء ، أحدهما على البحر الأبيض المتوسط ، والآخر على المحيط الاطلسي : المرسية التي بنيت في سنة 756 ميلادية ، وقصر أبي دانس الذي يقع على بحيرة شاطئية . والذي أنشئ في نفس الفترة .

. كانت قرطبة ، وهي مدينة عظيمة . خصوصا . مركزا بلاطيا .
وعبد الرحمن الأول (19) الذي اتخذ قرطبة عاصمة لامارة مستقلة في
سنة 756 ميلادية أمير أموي شرقي التجا الى الأندلس . كما التجأ
الرستميون الى المغرب الأوسط ، والادارة الى المغرب الأقصى . هربا
من الظهاد بني العباس .

وقد كان عبد الرحمن الأول الذي عرف بشدة الحنين الى سوريا
والرفاء لذكريات أجداده ، كان هو وخلفاؤه ، ولا سيما عبد الرحمن
الثاني ، يسمون لخلق الجو الشرقي الذي فقدوه في الشرق ويحسرون
عليه . وكذلك أطلقوا اسم الرضاة على إحدى ضواحي قرطبة التي
تقع فيها قصورهم ، كما في سورية . وقد كان الأمراء الأمويون يقدون
طراز الحياة السائدة في بغداد ، مقر الخلافة المنافسة لهم ، ومركز إشعاع
حضاري واسع النطاق . وفي قرطبة سيفد عليهم الأدباء والمفكرون والعلماء
والفقهاء والشعراء والفنانون من مختلف بلاد الشرق وهؤلاء سيفنون
في بلاطهم الترحيب والحماية وسعة الرزق .

ذكر ابن بسام في مقطوعة ثرية ساخرة ، أن حاشية أمراء الأمويين
كانوا دائما يترصدون التغييرات التي تطرأ في حياة القصور في الشرق

19 - عبد الرحمن بن سفيان بن هشام بن عبد الله بن مروان ، الأشبه بعصر فرس .
ويعرف بالفاضل : مؤسس الدولة الأموية في الأندلس ويسكن وفسطاطة في مسجد أمير
الفسطاطة وطول العالم ، ولد في دمشق ونشأ فيها في بيت الفطاطة . ولا يعرف
ملك بني أمية في الشام ويقلب السامريين ويحارب بالأسطفاة والملك . الملك
هو من يدوم والمقام في ثرية على الفطاطة . ولا أولئك أمراء على الفطاطة .
التجأ الى الأندلس حتى أن لم يفسد المغرب ووصل الى مكانة . حيث ليس به
مولاة . يدور . يقال ويرواها صليبا اليه من أمته . أم الأصبح . . وفي مدائن
لقرطبة كان يكتفي الفصل الأموي في الأندلس ثم عبد الله بن سفيان بن هشام .
هو حطوة الى الأندلس حيث داهية . وقد عرف . أولا في الشكيب (Almoric) في سنة
138 هـ . ثم انتقل الى السبيلية ومنها الى قرطبة لقتله والي الأندلس . وسيد
بن عبد الرحمن المغربي . . ففكر مصر فرفض ودخل قرطبة حيث بنى القصر وال
مساجد ولا استقر له الأمر . فطاع دوا السامريين . وقد كان عبد الرحمن الأول .
كما وصفه ابن الأثير : حليفا مريب القليلة . T يخلد الى واجهه ضلعا كعندما .
في المرجع .

ليقتلوه . ويقول هؤلاء اذا سمعوا لعيق الغرب أو طنين الذباب يأتي من سورية أو العراق ، غرخوا ساجدين ، كما لو كانوا أمام صنم معبود .

أصبحت قرطبة ذات ثراء عظيم ، خصوصا بفضل ذهب السودان الذي يسمح لها بشراء العبيد الصقالية الذين يجسري توزيعهم فيها وتوجيههم إلى مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، في مقابل الدنانير الذهبية الشرقية . وكذلك تكون في هذا الطرف من العالم الاسلامي ، مثلما تكون في الطرف الآخر في امارة السامانيين ، سوق واسعة نشيطة للتبادل التجاري . وهناك أصبحت قرطبة ، مثل امارة السامانيين . مركزا هاما مقصودا من العلماء والأدباء . وقد تبلور ميل الأمويين في قرطبة إلى اعتماد الأساليب والتقاليد الشرقية ، خصوصا ، اثر وصول المغني والموسيقيار زرياب من بغداد في سنة 845 ميلادية (320 هـ) . حيث حمل معه أحدث التطورات في الفن . وكان زياب تلميذا لاسحاق الوصلي المغني والموسيقيار المعروف بإتقانه للفناء المدني . وقد قدمت مع زرياب فرقة من التبيان «بنات زرياب» الثلاثي سيقفن بتدريب البلاط والمجتمع القرطبي على ألوان جديدة من الموسيقى وعلى العزف على العود وغيره من الآلات ، خصوصا على الفناء المدني الذي اشتق منه التعبير الاسباني: (Cant Jondo)

وفي نفس الوقت ، ظهرت أساليب شرقية جديدة للطهي على أساس الأرز والسكر والتوابل ، في بلاط قرطبة ، وفي صناعة الحلويات حيث أدخل الماسبان والنوغا . وكذلك أخذ الغرب المسيحي يتعلم الفنون الشرقية عن طريق قرطبة .

ومع هذه الفنون ، أخذ المجتمع القرطبي يستعمل الآواني المصنوعة من الزجاج الشفاف المسى « العراقي » (والذي تذكر النصوص التي بين أيدينا ، أن الغرب المسيحي كان يستعمله منذ القرن العاشر الميلادي) ، والآلات المنغن . بالجلد الناعم والمنقوش والمطرز بالذهب طبقا لطريقة

وصلت الى قرطبة عن طريق القصور التي تحدثنا عنها . والجلد القرطبي كان يستعمل أيضا لتغطية الحيطان الملطخة في المنازل ، وقد اقتبس القرطبيون أيضا طراز الملابس الشرقية الفاخرة التي تمصل من الفضة ذات خطوط عريضة ، قلدت فيها المنسوجات الفارسية ، وأردية مصنوعة من قماش شفاف ، كان يستورد من خراسان أو من مصر ، ولكنه أصبح يصنع في الأندلس .

وقد سجل تقيوم قرطبة (961 م) أنه بحلول شهر أكتوبر وميل القس الى البرودة ، تغطي الناس عن الملابس البيضاء وأخذوا يستعملون بدلا منها ملابس مصنوعة من الصوف ذات لون غامق . ويعزى اعتناء هذا الزي الى زرياب الفني . وقد كان عبد الرحمن الثاني أول من أدخل الى اسبانيا « الطراز » ، وهو عبارة عن مشغل في القصر يعمل لانتاج الاقمشة الفاخرة لسد حاجات القصور فقط . وهذا المشغل الذي يكتب عليه اسم الأمير له ادارة وتنظيم مفرد ، بحيث يشكل مصلحة حكومية مهمة على رأسها « صاحب الطراز » ، الذي هو من كبار موظفي القصر .

وهذا التجديد في أساليب الحياة ينتقل من القصور الى الأثرياء ليعم المدينة كلها .

وفيما بعد ، ظهر تيار جديد للتأثير الشرقي ليضعف الأثر الذي تركه المهاجرون الأوائل من السوريين والجناعات اليهودية التي كانت على اتصال بمراكز الحضارة في بلاد ما بين النهرين . فقد اتجهت الى بلاد الأندلس عدة أمواج من التفوذ الشرقي : السامي والآرياني . وهذا التأثير سيجر نمط الحياة الاجتماعية في المدن وسيكون امتزاج مختلف عناصر هذا التأثير أساسا لما يسمى « الحضارة الأندلسية » .

تمتد اسبانيا الاسلامية بين شواطئ افريقية والغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة : مملكة الاسبان التي تقع في شمال شبه

الجزيرة ، وبلاد الصونجة : والامبراطورية الكرولانجية . وملكية
الكابان (20) وهي ما يسميه العرب « الأرض الكبيرة » ، أي اليابسة
في مقابل الجزر : قبرص . وشبه جزيرة الأندلس .

وفي الجنوب ، كانت المواني تؤمن المواصلات عبر جبل طارق ، وفي
الشمال ، تقطع الطرق والممرات جبال البرنزي (Pyrenées) الى بلاد الفرنجة
بينما كانت الملاحة المباشرة للشواطئ تربط المدينة ببرشلونة وزريرة .

وبالتجارة الاسبانية مع افريقية تنصب أساسا على الذهب الآتي من
السودان ، والعبيد السود الذين يستجلبون من سواحل السودان (في
المناطق التي تمتد من السينغال حتى التشاد) ، والصنغ الذي يستخرج
من افريقية الغربية . وهذه السلع ، تدفع الأندلس في مقابلها بشاعة زهيدة
القيمة ، كما تصغر الزئبق الذي يستعمل مع معدن آخر « ألمعاقم »
لاستغلال الذهب .

ومن الغرب المسيحي ، كانت ترد على الأندلس العبيد الصقالبة الذين
يتقلم من منطقة من نهر الألب ، عبر ألمانيا وفرنسا ، تجار معظمهم من
اليهود ، وخصوصا ، القراء التي تنتجها الغابات الشمالية الكبيرة .
ويضاف الى ذلك السيوف المعروفة بالأفريقية التي كانت الامبراطورية
الكرولانجية تصدر كميات كبيرة منها . وفي مقابل ذلك ، كانت الأندلس
تقدم بعض الكماليات التي من بينها الاقمشة التي تسمى ايباليكسا
(Spicacea) . وخصوصا النقود المشروبة من الفضة والذهب : الدرهم
الذي كان يضرب في قرطبة . في الوقت الذي كان فيه ذهب السودان يحج
الى امبراطورية العاطلين . والدبنار الذي يأتي من الشرق الاسلامي
ولكنه في مرحلة تالية ، حينما حصل أسراء قرطبة على حصص من ذهب

20 - أسرة من القواد - حكمت قرطبة خلال الفترة بين 983-1328 م . - اسما موج
كابت Hugues Capet الذي تسمى أسرة « الفرنجة » .

السودان ، بفضل علاقتهم وأحوالهم من زناقة في المغرب الأقصى ، أخذوا يضرعون النقود الذهبية في قرطبة . وأما اتجار الخلفاء الأمويين في قرطبة على خصوصهم الإدارة في فاس الذين كانوا يقفون حجر عثرة في طريق انتشار لقولهم في المغرب ، فقد وقع في سنة 974 ميلادية .

وهكذا كان الزيادة الاستهلاك في المدن الكبيرة في مملكة قرطبة ، سببا في ظهور تيارات تجارية هامة واقتاح شبكة من الطرق تمتد نحو الجنوب والشمال معا . ونحن نلاحظ في هذا السياق أن هذه الطرق التي سلكها غزاة اسبانيا في القرن الحادي عشر الميلادي . والبرابرة الذين ينفذوا لأهمية التجارة ، قد استخدموا ، هم الآخرون طرق التبادل التجاري .

ومن جهة الشمال ، نشاهد توسع الدويلات الإسبانية التي يؤدها الفرسان السورمانديون والبورجونيون ، وعائلة « كلوني » (L'ordre de cluny) الدينية (21) . وهذه الحركة هي التي تسمى « إعادة فتح الأندلس » (من وجهة نظر الأسبان المسيحيين) و « الحروب الصليبية الغربية » (من وجهة نظر الغرب المسيحي) .

ومن جهة الجنوب ، تعرضت الأندلس لزوا البربر المرابطين الذين خرجوا من ساحل النيجر وصلوا حتى سجلماسة ، وعن طريق المغرب الأقصى ، وصلوا إلى الأندلس .

ومعها يمكن من شيء ، فإن حركة إعادة فتح الأندلس ، سيكون من نتائجها وقوع جزء مهم من بلاد الإسلام تحت سيطرة المسيحيين ، كما

21 - كان غيلوم السورماندي (Guillaume de pieux) دوق ناكيتان ، قد أنشأ في سنة 910 ميلادية ديرا في كلوني (إعادة العمود والقوار) فرمبان البينديكتين (Bénédictins) انطلقت منه حركة إصلاحية امتدت إلى جميع البلدان المسيحية في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر . « الترجمة » .

سيحدث ذلك في سورية نتيجة لحملات الصليبيين وفي المرحلة الأولى .
أدى تعصب بارونات الشمال وغنائمهم في السلب والنهب . إلى تخريب
جزء مهم من حضارة الاسلام العظيمة . ولكنهم في مرحلة ثانية . اغلوا
يتعلمون هذه الحضارة ويدركون معناها . فان المال والصناع والتدوين
سيواصلون أصالهم تحت سيطرة « الكفار » ، وبذلك تعزز تأثير الاسلام
وسهل توغل هذا التأثير في جميع بلاد الغرب المسيحي .

وقد استمر العمى اليهودي (Judaism) وحي المسلمين (Moralism)
كلاهما على ممارسة نشاطه دون أن يتأثر بالأوضاع الجديدة .

ومن جهة أخرى ، فإن المرابطين قد أثروا تأثيرا سلبيا في نمو حضارة
الأندلس بانسجام . فان تعصب رعاة الجبال الغزاة الذين جاءوا من
الصحراء ، حاربهم على تخريب حياة القصور والحرق المكتبات . ولكنهم
سرعان ما أدركوا خطأهم وانضوا هم أيضا ، تحت لواء هذه الحضارة
التي ستنتشر عبر مضيق جبل طارق إلى المغرب ، بل إلى السودان .
بفضل توحيد الأندلس بهذه المناطق تحت راية المرابطين .

وفي هذه الأثناء ، تحول المعسكر البربري الذي يقف في جنوب
المغرب الأقصى ، إلى مدينة مراکش العظيمة في 1077 م . وفي القرن
الثاني عشر ، أنشئت مدينة تيمبكتو (22) . وهذا هو عصر « المرابطين »
الذين يتجهلون في كل اتجاه .

مغليقة :

وبعد هذه النظرة إلى آكار الفتح الاسلامي ، في اسبابها تحول أنظارنا
إلى جبهة أخرى لتوسع البربر : جزيرة مغليقة التي تحتل مكانا مركزيا

22 - مدينة في جمهورية مالي 8700 نسمة ودارو تجاري على نهر النيجر . خرج منها
كثير من العلماء والفقهاء الذين من بينهم أحمد بابا السنكي 1595 - 1622 م
المغليقة التي التي الف شعبا وتوبين كتابا . « التاريخ » .

بين حوضي البحر الأبيض المتوسط (الشرقي والغربي) . فاما قواعد الانطلاق لغزو الجزيرة ، فقد كانت موانئ رأس بون : تونس ، قابل ، اقلية ، سوسة . والبحر الذين تأثروا بالفتوحين ويمشون في هذه المنطقة ، كانوا يمارسون صيد السمك والتجارة والقرنة . وكان هؤلاء السكان يسكنون بالبحرين من الغرب ، أو يحصلون عليه بشن غارات على شواطئ صقلية وإيطاليا الجنوبية . وأحيانا على شواطئ ألمانيا ، أيضا .

ومنذ القرن الثامن الميلادي ، كان سكان هذه المنطقة يقومون بغارات على شواطئ صقلية وعلى جبال اسبرومونت (Aspromonte) وسيل ، ذات الغابات الكثيفة في إيطاليا ، للحصول على الخشب . ولكن الأسطول البيزنطي الذي تقع قواعده في صقلية ، كان يشن غارات من حين لآخر على شواطئ القرصية التي لم تكن حاميات الربط دائما كافية للدفاع عنها . ومن هنا ، واجه المسلمون ضرورة الاستيلاء على جزيرة صقلية كلية . وفي سنة 700 ميلادية 81 هـ ، احتل المسلمون جزيرة قوصرة (Pantelaria) وبعد ذلك بثلاث سنوات ، وقعت المحاولات الأولى للاستقرار على شواطئ صقلية . ولكن الحملة المتصرة التي وجهها زيادة الله الأغلب (23) للاستيلاء على صقلية ستقوم بهذه المهمة بعد ذلك بأكثر من قرن (827م - 831م) . وقد تم الاستيلاء على بلرم في سنة 827 م ، ثم سرقسوة في سنة 878م . وهاتان المدينتان تمثلان طرفي الجزيرة التي كانت في القديم مسرحا للنضال بين الاستعمار اليوناني (مع سرقسوة في مقابل أرض

23 - زيادة الله بن ابراهيم بن ابي طالب بن سلام ، أبو محمد (788 - 828) : راجع الأندلس ، ولي بعد وفاة أبيه عبد الله 200 هـ . وجاءه تقليد الخلافة من القامون العباسي ، ولدت على عماله له أيام وتوب ابراهيم بن المهدي على الخلافة ، وقد سمع قتاله في اواخر العقد الأول من القرن الثالث حتى تم بطل على طاعنه في سنة 260 هـ . في القرصية ، سوى قابس والساحل وطرابلس ولبانق قرطاج . ولحق هذه الغلبة وقسمت لنفسها تحت علمه بدون تعطف ومكثته من تجميع الأسطول عظيم 212 هـ . سره لفتح صقلية التي استولى على منطى حصرها - توفي في القبرولان ، وقد كان عصبها الدنيا واسع 291 هـ . وكان أول من سمى زيادة الله من بني الاغلب .

اليونان) والاستعمار القرطاجي (مع بزم في مقابل قرطاجنة) وكذلك كانت سيراكوسة المدينة الرئيسية في صقلية في عهد بيزنطة . ولكن بزم ، ستمحل محل مرقوسة في العصر الاسلامي ، كما حلت تونس محل قرطاجنة الفنية .

وفي أوائل القرن التاسع الميلادي ، كانت صقلية البيزنطية متأثرة كثيرا بالغزو الهليني . وإذا كان الشعب الصقلي يتحدث اللغة اللاتينية ، فإن لغة الكتابة الوحيدة في الجزيرة كانت هي البوغالية . وأما الكنيسة الصقلية ، فقد ألحقت بكنيسة القسطنطينية ، بينما كانت الإديرة في الجزيرة تسير على نظام سانت بازيل (24) . ولكن القنول الجبيلة ، والفن المنساري ، وبصفة خاصة «الفسفاء» ، أخذت عن البيزنطيين . وهذه القنول ، سيبتاها أمراء صقلية جنبا الى جنب مع القنول الاسلامية . وفي عهد الأغابة ومصر الفاطمية ، شهدت صقلية ازدهارا كبيرا في المباني ، ولكن يد الدهر لم تبقى على شيء منها ، إذا استثنينا قصر لسوارة (Syracuse) في بلسرم . وكل ما بقي اليوم من المباني التي تمثل الطراز الاسلامي ، انما يرجع عهده الى عصر النورماند ، مثل القبة « الزودة » . والفن السائد في هذا الأثر ، يشتمل على كثير من الزخارف والقوش الكتابية التي تمثل أنماطا مأخوذة عن القرطبية ومصر وبغداد . ولكن صقلية في ذلك العصر (تحت النورمانديين) ، كانت عبارة عن قطعة من العالم الاسلامي ، تحت سيطرة المسيحيين . حيث كانت الطرق التقنية والانتاج ، ولا سيما الانتاج الفني ، مستورا كما كانت الحالة في الأندلس ، بعد انتقال السيادة الى المسيحيين .

كانت جزيرة صقلية وشبه جزيرة الأندلس موثلا للحضارات قديمة تركبت عليها حضارة جديدة . وهذا التزاوج بين الحضارات ، سيسهل انتشار الطرق التقنية الصناعية والتأثير الفني ، ويسمح بإيجاد تركيب

24 - انظر الكنيسة القوطية هناك في البسرة (Cagliari) 329-379هـ مؤلفه محمد الراساني . ويذكر من قبل مؤسس نظام البسرة في المسيحية . المرجع 1 .

حضاري جديد . والفنوزو المسيحي في الغرب سيلب نفس الدور الذي لعبه الفتح الاسلامي : فهذا الفنزو لأرض قامت عليها حضارات شرقية ، سيكون وسيلة للفرقة لنقل عناصر من هذه الحضارات الى الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة ، وهم قوم ظلوا حتى ذلك الوقت بدون اتصال مباشر بهذه الحضارات . وبهذه الطريقة انتشرت الطرق التقنية الزراعية والصناعية : طرق الري في منطقة بلرم ومزروعات جديدة . مثل القطن . وقصب السكر : والأرز . والبرتقال ، ودودة الحرير ، وصناعات نسج الحرير ، والقطن ، وصناعات الخزف والزجاج ، الخ .

وكذلك يجب أن نشير الى الازدهار الذي عرفته المدن في جومرة صقلية . فقد كان المسلمون هم الذين جعلوا بلرم نهائيا عاصمة الجزيرة . وبلرم اليوم ، يبلغ عدد سكانها 400,000 نسمة ، بينما نجد أن عدد سكان سرقوسة لا يتجاوز 40,000 نسمة . وفي القرن العاشر الميلادي ، يقدر ابن حوقل (25) عدد سكان بلرم بـ 300,000 نسمة . وقد كانت بلرم من أعظم مدن الاسلام ، خصوصا بمدد مساجدها ، ولم يكن يفوقها في هذا المجال سوى قرطبة . وكما يلاحظ الكتاب العرب ، فإن سرعة نمو المدينتين متشابهة .

وكذلك كانت المواقف الواقعة على السواحل القابلة للبحر التيريهيني (Mer Tyrrénienne) (26) ، أمالتي (Amali) سلرن (Saleme) نابلي (Naples) وجايت (Gaète) ، من الناحية الاقتصادية تابعة لصقلية ، التي كانت بدورها قطعة مهمة من امبراطورية الفاطميين . فإن

25 - M. Amari, Description de Palerme au milieu du X^e siècle de l'ère vulgaire, par Ibn Horekal, Paris, 1843.

26 - المنطقة الغربية للبحر الابيض المتوسط التي تبعد بين شبه جزيرة ايطاليا وجزيرة كورسيكا ، وجزيرة سردينيا ، وجزيرة صقلية . (المرجع) .

نفوذ الفاطميين كانت متداولة في جميع مدن إيطاليا الجنوبية : كان الدنمارك الفاطمي صلة متداولة في جميع أنحاء إيطاليا . وكانت هذه هي الحالة . خصوصا ، بالنسبة الى ربح الدنمارك الاسلامي الذي كان يقد . وهذه الظاهرة — ظاهرة تقليد النفوذ الاسلامية ، للاحتفال أيضا في مسالك المسيحيين الواقعة في شمال اسبانيا ، ولا سيما : في ولاية برشلونة التي كانت في القرن الحادي عشر الميلادي . تقلد نفوذ الذهب التي كانت تصدرها الممالك الاسلامية في الجنوب .

ولما ضم النورمانديون هذه القطعة من العالم الاسلامي (صقلية) الى ممالك المسيحيين (1061 — 1089) ، لم يكن من نتائج ذلك ارتفاعه في علاقات تبادل التجاري . بل على العكس : فان هذه العلاقات ستشتد وتقوى . وكذلك نجد أن تقوية ثروة دولة الحرر ، وصناعة الحرير . قد انتقلت الى مدن إيطاليا الشمالية (السوك — (Susa) البندقية — (Venezia) وهذا التيار سيتحول في نفس الوقت بتيار أخسر يأتي مباشرة من أمارات الفرنجة في سورية — تلك الامارات التي قامت نتيجة للحروب الصليبية . وينبغي أن نضيف أن جزيرة صقلية ، مثل اسبانيا . قد افرقت ، منذ بداية العصر الاسلامي ، من مختلف العلوم . مثل الطب والفلسفة وعلم الفلك والتنجيم الخ .

وهذا الاتجاه نحو العلم والمعرفة ، سيستمر في عهد النورماندين . في بلاط فرديريك الثاني . وقد كانت صقلية ، مثل اسبانيا ، من المنافذ الرئيسية التي توغل منها التأثير الشرقي في الغرب المسيحي . وكذلك ساهمت كل من قبرص واسبانيا في حركة النهضة في إيطاليا في القرون الرابع عشر والقرن الخامس عشر الميلادي ، وهي فترة عرفت فيها هذه البلاد ازدهارا ثقافيا معتبرا .

الفصل الرابع الوضع اللغوي

العامية والعربية الفصحى :

قلنا ان العالم الاسلامي كان عبارة عن بوتقة انصهرت فيها عناصر مختلفة ، كان بعضها اجنبيا عن البعض الآخر ، وضمت جنبا الى جنب ، ثم ، اندمجت ، وذلك في الوقت الذي استمر فيه تأثير تقاليد قديمة ، ودرس الوضع اللغوي ، عن طريق المشكلة اللغوية والحروف الهجائية . سيسمح لنا بتحديد الجانب الاساسي لهذه الظاهرة .

كان الوضع قبل الفتح الاسلامي ، على وجه التقريب ، كما يلي :



الشكل رقم ٧. الحالة اللغوية قبل الفتح الاسلامي

كان يوجد في مقابل مجموعة اللغات السامية ، اللغات الهندية - الآرية ، واللغات التركية - الفغولية (أو لغات المناطق التي تمتد

بين جبال الآزال والألتاي) ولغات القوقاز السوداء : ومنطقة اللغة القبطية ، ومنطقة اللغة البربرية .

وقد كان من نتائج التوسع الإسلامي في العالم القديم انتشار اللغة العربية التي تنقسم على نفسها بوصولها لغة الحديث الى قنتين أساسيتين من اللهجات ، لهجات المغرب ، ولهجات المشرق ، وعلى أطراف العالم الإسلامي ، لسود لغات تجارية مركبة من عناصر متعددة : اللغة الصندية في آسيا الوسطى ، والسواحلية ، على شواطئ القوقاز الشرقية ، ولغة أورد (Aor) في السودان ، وأخيرا ، لغات الأفرنج في منطقة البحر الأبيض المتوسط .

اللهجات العامية السامية :

يسود في المنطقة السامية غير العربية النظام التركيبي اللغوي الآرامي . فإن اللغة الآرامية قد « ابتلت » في القرن الرابع قبل الميلاد — على الأقل ، على مستوى اللغة العامية — جميع اللغات السامية السائدة في المنطقة ، وذلك فيما عدا اللغة العربية .

وقد كانت اللغات الرسمية السائدة قبل الفتح الإسلامي في المنطقة . هي : اللغة البيزنطية في سورية ، واللغة القبطية في منطقة ما بين النهرين الخاضعة للساسانيين . ولكن الآرامية كانت لغة عية وتحدثها الجميع .

وللغة الآرامية لهجتان : اللهجة الآرامية السائدة في المناطق الغربية الواقعة تحت بيزنطة ، وهي لغة الحديث والكتابة ، وبها كتب التلمود في فلسطين خلال الفترة التي تمتد بين القرن الرابع والقرن السادس الميلادي . واللهجة الآرامية السائدة في المناطق الشرقية في مملكة الساسانيين ، وهي تشمل على لهجتين فرعيتين : اللهجة البابلية ، وهي لغة الحديث والكتابة ، وكان يستعملها اليهود وبها كتب تلمود بابل خلال

الفترة بين القرن الخامس والقرن السادس الميلادي . واللهجة السريانية
الآديسية (1) التي كانت لغة الكتابة ومنصب لغة الآداب الدينية لجميع
الكنائس المسيحية . اليقوتية والنسطورية . من فلسطين حتى ما بين
التبرين والفرس . وقد كانت فترة ازدهار اللغة السريانية ، هي التي تسد
بين القرن الرابع والقرن الرابع عشر الميلادي .

وفي عهد الغزو العربي . كانت الوضعية اللغوية كما يلي :

فإن لهجات المدينة ومكة التي كان يستعملها التجارون ، قد أصبحت
هي لغة القرآن (2) واللغة العربية المكتوبة . وأما الشعوب النطورية على
أمرها في سورية وما بين التبرين ، فقد كانت تتحدث اللغة الآرامية
(الغربية والشرقية) وتكتبها . أو تكتب اللغة السريانية . بحروفها
النسطورية أو بحروفها اليقوتية .

وجميع هذه اللغات متجاورة وحروفها الصامتة متشابهة . ولقائوة
ميوعة لغة الحديث بذلت محاولات عديدة لوضع علاقات صوتية ، بقصد
تثبيت النصوص المقدسة في اللغة العربية ، في مركز الدراسات اللغوية
في طبرية الذي كان يأوي علماء النحو والصرف وأخبار اليهود . وهؤلاء
العلماء ذهبوا بعيدا في بحثهم عن الوثائق وبلغوا ما بين التبرين حيث

1 - نسخة القس إدريس (Edmond) : مدينة وسطية القرائل في جنوب ما بين التبرين
انتشرت المسيحية فيها في وقت مبكر . كما أصبحت من أهم مراكز المصاحبيين بعد
استيلائهم على مدينة القدس . ولد اسيرجيا الفراء في سنة 1144 ميلادية .
: المرجع 1 .

2 - الواقع أنه إذا كانت لهجات مكة والمدينة هي الأساس الذي تقوم عليه لغة القرآن -
كما يقول السبازة الخالف : فإن من العلوم أن اختلاف اللغات واللهجات العربية :
قد نجم عنه اختلاف القراءات في القرآن . واللهجات : أو الروايات : الأساسية
سبع - وقد روي عن ابن عباس (رضي ع) أنه قال : « قول القرآن على سبع لغات :
مكة خمس بقية المعجز من هوازن » وهم الذين يقال لهم علماء هوازن وهم خمس
قبائل أو أربع : منها سبعة بن بكر : وجش بن بكر : ونسر بن سكرية والحيف :
وفيها ثلاثة : فإن لقراءات القرآن : يمكن حواسنها من هذه الناحية : ناحية قولها
مكة بنسب لهجات قبائل العرب . بالترجيح .

تسببوا في اختلاط لهجتين ظلت كل منهما منفصلة عن الأخرى . حتى ذلك العهد : الآرامية الشرقية والآرامية الغربية . وبذلك ظهرت لغة الحديث هي خليط بين اللهجتين .

وهذا الاتجاه إلى الجمع والخلط والتركيب إنما سمح به توحيد العالم الإسلامي ، بل الأولي أن نقول أنه كان قوام هذه الوحدة .

وفي نفس الوقت ، وفي نفس الاتجاه ، ولتفسي الغرض ، حاول الكتاب السريانيون استنباط طرق لتثبيت لحن الكلمات في النصوص القديمة ، فوضع اليمطوريون (نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلادي) حركات الغريقية تركب فوق السطر أو تحته ، بينما وضع النسطوريون (ابتداء من القرن الثامن) حركات هي عبارة عن قطع تركب فوق أسطر أو تحته . وفي نفس الفترة أيضا جرى عمل مماثل لل ضبط وتشكيل حروف الأيات الفرائسية ، فوضعت البتحة والكسرة والضمة التي تركب تحت الحروف أو فوقها (3) .

وأما اللهجة الآرامية العامية التي كانت لغة الحديث في سورية وبنين النهرين ، فقد اختفت في حوالي سنة 800 ميلادية ، على أقصى تقدير . وقد أخذت عناصرها وحلت محلها لغة سامية أخرى : اللغة العربية .

3 - - يشير هذا الاتجاه هنا إلى أن الكتابة في المصور الأولى كانت ، فيما بعد المصورات ، غير مبنية ولا مشكولة ، ومن هنا دخل ما يسمى بالصحيف إلى اللغة في العراق القديمة . والصحيف ، كما يقول أبو الفداء القرطبي ، هو أن يأخذ الرجل القلق من ترجمته في صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجل ، ليخبره عن الصواب . وقد وُجِدَ في المصحيف ، كما قال صاحب الرمز ، جماعة من الأجلال من اللغة الفصحى والملة النبوية ، مثل العجلاوي والأصمعي ، وقد طعن في المصنف الذي أورد في كتابه المصنف ، في كتابه : وهو يوم كان فيه حرب القوس والفرزدق ، يالخير المصنف ، وليس من يسمعه ، بالعين المملة ، كما هو ، لأنه يوم مشهود لا يسمح أن يخطئه فيه . والمصنف من وقوع المصحيف ، يشير لنا جرمي الملائين الأوائل على ذكر المخطوطات والبركان المتكلمة التي هي مخطوطات لاكتيس ، ليقتولون ، مثلا : بالفاء المبنية وبالفتحة ، الخ . والمصريين .

واللغة الآرامية والسريانية ، أصبحنا لفتين مقدمتين ، لا نستعملان بعد الآن الا للكتابة .

واللغة العبرية بدورها لم تعد تدرس الا بوصفها لغة ميتة ومقدسة في محافل أخبار اليهود في فلسطين ، وفيما بين النهرين . وهكذا تم رسم التلمود في شكله القدسي (نسبة الى مدينة القدس) والبابلي (نسبة الى بابل) . وأما التلمود نفسه ، فينقسم الى قسمين : الترائع ، «ميشنة» التي حررت باللغة العبرية وتم تحريرها في القرن الثاني الميلادي . واليوامش « جمار » التي وضعت على نصوص الترائع ، وتم تحريرها باللغة الآرامية أو الغرية أو الشرقية ، طبقا للنصين المختلفين من التلمود . وبذلك أصبح التدينون بالديانة اليهودية منقسمين ، كما نرى . ومضطرين الى الأزدواج اللغوي .

كان لسورية في العالم الاغريقي اللاتيني . أربع لغات : لغة العديين (العامة) الآرامية ، ولغة مكتوبة يستعملها المسيحيون النسطوريون ، (السريانية) ، ولغة أخرى مكتوبة ، وهي العبرية التي تدرس في مدارس فلسطين ، وأخيرا : الاغريقية التي تستعمل في الشؤون الادارية والخارجية .

ومن الناحية الأخرى : كانت بلاد ما بين النهرين الناجية للساسانيين ، تستعمل نفس اللغات ، مع تحفظ واحد . هو أن الهلالية لغة الفرس ، هي التي تقوم بدور اللغة الاغريقية في الشؤون الادارية الخارجية . أضف الى ذلك ، أن اللغة العبرية واللغة السريانية كان لكل منهما هنا خصائص معينة . فان الثقافة اليهودية في هذه المنطقة عرفت ازدهارا وانتشارا واسعا ، وكان «رائي جالوث» (رئيس الفتن) من الشخصيات التي تحتل مكان الصدارة في بلاط الساسانيين .

وأما اللغة السريانية ، فتمثلها الكتبة النسطورية . وهنا أيضا : نجد أن رئيس الجماعة النسطورية . الكاثوليكية في استرلن سيلمب دورا لا يستهان به في بغداد .

وأهمية اللغة السريانية تتجاوز الأطار الإقليمي ، حيث أن التأثير المتبادل بين التفكير اليوناني والتفكير الفارسي ، سبق عن طريق هذه اللغة . واللغة السريانية ، وهي لغة مكتوبة نيلة ولغة الثقافة ، هي التي تسمح بامتزاج خطر الشأن بين الأفكار والألفاظ . وعن طريق السريانية ستركب في هذه البوطة اللغوية حضارة من عناصر مختلفة تقوم خصوصا على أساس الاتصالات بين الحضارات والقارات : تلك الاتصالات التي تشكل إحدى المميزات الثقافية الواضحة لشعوب الشرق القديمة .

وإذا حولنا أنظارنا الآن ، ونحن دائما في المنطقة السامية ، إلى منطقة اللغة العربية ، فإذا نجد يا ترى ؟

نقسم مجسوع اللهجات السائدة بين السكان في شبه الجزيرة العربية إلى ثلاث فئات ، متوحدتها رسالة القرآن ابتداء من القرن السابع الميلادي .

أولا ، توجد اللهجة السائدة في الجنوب الغربي والتي تنقسم بدورها إلى حميرية وسيئة وبنية . وهذه اللهجة تغطي الجنوب الغربي من شبه الجزيرة وهو ما يعرف باليمن السعيدة ، مع ميناء عدن (Adens) الذي يقع في منطقة ذات أهمية حيوية في العلاقات التجارية ، حيث يشكل ملتقى لطرق التجارة البحرية في المحيط الهندي ، مع نظام طرق القوافل المنتشرة في غرب شبه الجزيرة ، والطرق التجارية للتجهة من مكة (المكرمة) إلى بلاد ما بين النهرين من جهة ، وإلى موالي البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى . واللهجة السامية السائدة في هذه المنطقة نجد نماذج متفرقة

محفوظة منها تمثل الفترة التي تمتد بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي .

واللهجة العمانية ، هي لهجة الشواطيء الجنوبية الشرقية التي كانت هي الأخرى مركزا مهما للعلاقات البحرية : حيث تسيطر على مدخل الخليج العربي . وبحكم هذا الوضع الجغرافي ، لا نستغرب من أن نجد هذه اللهجة مشربة باللغة الفارسية ومتأثرة بنفوذ القوم الذين يتعمون على الشواطيء المقابلة .

وأما اللهجة البطنية التي كانت لهجة الحديث في الشمال ، فهي ترتبط بآثار البتراء (سلع) (4) مدينة القوافل الكبيرة التي كانت مزدهرة في القرون الأولى التي أعقبت ميلاد المسيح . وهذه اللهجة : وصلت إلينا نقوشا منها يرجع تاريخها إلى الفترة التي تسد بين القرن الأول والقرن السادس بعد الميلاد .

وأخيرا ، فإن وسط شبه الجزيرة العربية تسود فيه لهجة سكان المدن الحجازية ، ولا سيما ، مكة ، وهي مركز مهم لتجارة القوافل التي تسير بين السبئين في الجنوب ، والنبطيين في الشمال ، أو لهجات البدو الرحل في نجد ، وهم مشهورون بنشاط تربية الجمال . وهذه اللهجات غير مكتوبة . والشعر الجاهلي الذي نظم بها ، لم يسجل إلا بعد ظهور الإسلام ، وعلى أساس روايات شفهية ، ومن اللغة الشعرية المشتركة بين مناطق وسط شبه الجزيرة العربية ، تتكون لغة القرآن في معظمها . وهذه

4 - موقع البتراء ، كان عاصمة أمة البت في العصر الهلنستي . القرن 2 - 6 بعد الميلاد . بعد البتاء من مدخل جبلي سبق يسمى « الملق » . وقد شيدت المدينة إرسائيا كبيرا بفضل موقعها على طرق القوافل بين شبه الجزيرة العربية والشواطيء السورية . احتلتها أراجيز سنة 108 ميلادية . ثم أصبحت مركزا إقليمية مسيحية حتى الفتح الإسلامي . وهي تحتوي على آثار منها قصر « وادي » ومسلاتة « وقبور » : « الترجيم » .

هي لغة الآداب والتراث العربي القديم وهي التي سئلب على مختلف اللهجات ، وتنتشر في جميع أنحاء الجزيرة العربية .

وهكذا نجد أن العالم السامي يقوم على قوتين لغويتين : اللغة الآرامية في سورية وما بين النهرين ، واللغة العربية ، في شبه الجزيرة العربية والملاقة بين اللغتين ، من جهة أخرى ، وثيقة . حيث أن لهما هياكل متشابهة . ثلاثية الصوامت ، وتجمع بينهما أمالات صوتية غير مسجلة . وحروف أبجدية متحدة أساسيا . مأخوذة من الحروف الهجائية الفينيقية .

ومن الهجاءة التي وقعت بين اللغتين . خرجت اللغة العربية منتصرة بفضل الفتوحات الإسلامية . ومنذ وقت مبكر ، (في أوائل القرن التاسع الميلادي) : تحول العالم الآرامي : الذي وجد في التقارب بين اللغتين معينا ، إلى التحدث باللغة العربية في سورية وما بين النهرين .

ولكن اللغة الآرامية ، لم تكن الضحية الوحيدة التي طردها اللغة العربية من مقلها . فإن تعريب الدواوين الذي بدأ منذ القرن الثامن الميلادي ، قد طرد اللغة الانغريقية والعبرية أيضا . وأما اللغة السريانية التي تجمعت وأصبحت لغة الكتابة والأدب فقط ، فإنها لم تعد في نهاية القرن العاشر الأ لغة علمية ، يكتب المؤلفون المسيحيون بها وباللغة العربية بدون تمييز . ومع ذلك ، فإن اللغة السريانية لم تمت كلية ، بل على العكس ، تشهد بعض التوسع والانتشار ، بفضل البعثات التبشيرية النسطورية التي كانت تجوب آسيا الوسطى والصين .

اللهجات العامية غير السامية :

والآن لتلقي نظرة ، ونحن دائما في سياق الفتح الاسلامي . على المناطق اللغوية غير السامية .

تتحدّر اللغة القبطية ، وهي لهجة وادي النيل ، من اللغة المصرية القديمة . وهي تسجل بأحرف إفريقية مكيفة . وفي وادي النيل أيضا . يستختلص اللغة القبطية واللغة الاغريقية ، ولحل محلها اللغة العربية ، ولو أن هذه العملية جرت بسرعة أقل مما شاعدها من اختفاء الأرامية في سورية وبين النهرين . والتواريخ التالية ستسمح لنا بشكوك فكرة دقيقة من تقلص اللغة القبطية والاغريقية واختطائها في مصر .

تم فتح مصر خلال الفترة بين 639-641 ميلادية. ونحن نلاحظ أن أول ورق بردي مكتوب بلغتين (العربية والاغريقية) يرجع تاريخه الى سنة 693م ، وآخر ورق بردي باللغتين ، بتاريخ 719 ميلادية . ومع ذلك فإن آخر ورق بردي باللغة الاغريقية يرجع الى سنة 700 م . ولكن أول ورق بردي مكتوب كله باللغة العربية ، مؤرخ في سنة 709 ميلادية .

وكذلك يمكننا أن نستخلص دلالات أخرى من مصادر أدبية ومنقوشة. فنحن نقرأ أن البطريق ميشل (728-752 ميلادية) لا يعرف اللغة العربية . وأن الخليفة المأمون كان يرافقه مترجم أثناء زيارته لمصر في سنة 832 ميلادية . وفي مقابل ذلك يوجد ما يحيل على الاعتقاد . بأن رجال الكنيسة كانوا يعرفون اللغة العربية في القرن التاسع الميلادي . لأننا نجد أن لمبا تذكاريًا مسيحيًا بتاريخ 909 ميلادية ، مكتسوب باللغة العربية .

صحيح أن شعرا شعبيا قبطيا كان لا يزال يشهد في أواخر القرن التاسع . ولكنه ابتداء من القرن العاشر كان رجال الكنيسة القبطية يكتبون باللغة العربية حينما يريدون أن يتأكدوا من أن ما كتبوه يمكن فهمه . ومع ذلك ، فإن اللغة القبطية ظلت وقتا طويلا أكثر من مجرد لغة دينية . بل أننا نجد أن المثقفين من رجال الكنيسة القبطية في القرن الثالث عشر كانوا يعرفون هذه اللغة . وكذلك كان البطارقة في هذه

الفترة يكتبون القبطية والعربية . وآخر النقوش التي وصلت إلينا باللغة القبطية ، يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر . ولكن هذه القبطية كانت لغة الكتابة والعلم . وأما لهجة الحديث اليومي ، فقد اختفت بسرعة أكثر . وقد حلت اللغة العربية محل اللغة القبطية في القرن العاشر الميلادي وهذا معناه أن اللغة القبطية عاشت نحو قرن من الزمن ، بعد ما اختفت اللغة الآرامية ، وأصبح العالم الآرامي عالما عربيا .

وإذا كانت الوضعية اللغوية قد شهدت ، بالطريقة التي وصفناها . انحصار اللغة العربية في المناطق المركزية في الامبراطورية الإسلامية ، فإن الأمور لم تجري على هذا النوال في طرفي العالم الإسلامي ، حيث استمرت كشتان من اللغات على قيد الحياة ، على الرغم من توغل التبريد في المدن والادارات وفي أوساط المثقفين ، ونمى بذلك اللغة الفارسية في المشرق . واللغة البربرية في الغرب

ونحن هنا سنقتصر على الحديث على اللهجة الفارسية المتوسطة التي خرجت من لهجة قديمة . وهذه اللهجة المتوسطة هي القهلوية التي تنحدر منها مباشرة اللغة الأيرانية الحديثة والتي ظلت زمنا تستعمل إلى جانب اللغة العربية .

من المؤكد أن النفوذ الذي كان الفرس يتمتعون به في العصر العباسي . كانوا يمارسونه عن طريق اللغة العربية ولكن النفوذ الذي مارسه الفرس في العالم الإسلامي في القرن العاشر والقرن الحادي عشر . ولا سيما في عهد الدولة السامانية في خراسان ، وبعدها في عهد السلاطين الغزنويين ، كانوا يمارسونه عن طريق اللغة والثقافة الفارسية . ونحن نعرف أن واحدا من أعظم الآثار الأدبية الفارسية ، شهنامة الفردوسي ، وضعت في هذا العهد : 990 — 1020 ميلادية .

وفيما يتعلق باللغة البربرية ، فقد كانت لغة الحديث في المناطق الحضرية التي تمتد من وادي النيل وبقية حتى أقصى المغرب ، من جهة ، وإلى ساحل النيجر (السودان) من جهة أخرى ، فإن اللغة العربية في هذه المنطقة إنما تولدت أولا وقبل كل شيء في المدن ، وهذه اللغة التي هي لغة الدين والحضارة المدنية ستقدم بخطي بليغة في الجبال والهضاب البربرية ، وبالتالي : فإن اللغة العربية إنما تغطي المناطق التي كانت تابعة لقرطاجنة ، والفيلسوف البربري ، سانت أجستين ، بل وبروكوب (Procopé) أيضا (في القرن الرابع الميلادي) ، يظن أن اللغة القنيقية كانت لا تزال شائعة في المناطق المجاورة للمراكز التي كانت تابعة لقرطاجنة ثم وقعت تحت سيطرة الرومان . وهذا قد يكون من العوامل التي تسرع لنا سرعة انتشار اللغة العربية في المدن الرومانية في القرية الشمالية : هذا ، على الأقل ، هو الفرض الذي اقترحه جيزيل (S. Gsell) .

ومهما يكن من شيء ، فإن التغيير السريع الذي وقع من اللاتينية إلى العربية ، يمكن تمييزه بحاجة المراكز المدنية إلى الاعتماد على لغة حقيقية للكتابة ، وهي لغة الإدارة والتبادل التجاري التي لا يمكن مقارنتها باللغة البربرية غير المكتوبة .

ومن جهة أخرى ، فقد لوحظ تولد اللغة العربية في جبال بلاد القبائل الصغرى (بلاد كتامة) في غضون الفترة التي تمتد بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر الميلادي ، ذلك التوغل الذي لا بد من دونه بحركة الفاطميين ونشاطهم في تلك المنطقة . وكذلك أدى غزو بني هلال في القرن الحادي عشر للمغرب إلى انتشار اللغة العربية في القرية ، ثم في الهضاب العليا المرتفعة في الجزائر ، في غضون الفترة التي تمتد بين القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر .

ولكن هذه العملية كانت بسيطة . ولم تكن تشمل في الحقيقة سوى المدن والأراضي التي تحيط بالمدن مباشرة .

ما هي الوضعية اللغوية في اسبانيا وفي الطرف الغربي للعالم الاسلامي ؟

كانت اللغة اللاتينية لا تزال تحتفظ بمسكاتها ، وكانت تتطور الى لغة رومانية ستصبح بدورها أصل لهجة الحديث في شبه جزيرة الأندلس . وكذلك نشاهد . بعد الفتح الاسلامي تأثيرا لغويا للبربر . ولا سيما في المناطق الجبلية التي تمتد من الجنوب الى الشرق والتي تغطيها عناصر من البربر الذين هاجروا من الفريجية الشمالية . وفي نفس الوقت ، كانت الجماعة اليهودية التي تقيم في الأندلس تستعمل اللغة الآرامية . ويضاف الى كل ذلك المنصر الجديد : اللغة العربية .

فليما يتعلق باللهجة العربية الدامية ، المقترح فرض يقول بوجود كلمة من اللهجات الدامية الغربية التي تشمل سكان المدن في اسبانيا الاسلامية وسكان المدن في المغرب ومالطة وصقلية (5) . وهذه العربية « الغربية » تعرف ، فيما يقال ، باسم « الغربية » التي حرفت باللفظة الاسبانية الى (Arabesque) . ومنها اشتقت الكلمة الفرنسية (Arabisme) (6) ، والتي جانب هذه اللهجة الدامية . توجد : طبيعة الحال اللغة العربية الفصحى . لغة الآداب والفلسفة في جميع أرجاء العالم الاسلامي . وهذه أيضا هي لغة الدين والادارة والتجارة والحضارة . وهي ستلعب في الأندلس نفس الدور الذي لعبته اللغة اللاتينية من قبل ، في العالم الغربي المسيحي . أو اللغة الاغريقية في العالم البيزنطي .

5 - راجع : Colin, Un document nouveau sur l'onde dialectal d'Occident en XII^e siècle, Hispania, XII, 1931, pp. 1-32.

6 - معناه بالفرنسية : لغة غربية ، غير مفهومة . « الغريبة » .

لغة التجارة :

ولكن اللغة العربية سوف لا تنفع بتأمين تفوقها المطلق في داخل
الامبراطورية الاسلامية (7) ، حيث انها سوف تخترق الحدود مع التجار
اليهود من غريونه ، أو مع التجار البربر الذين يعملون في بلاد افريقية
العربية (السودان) ، بل الى مناطق التبادل التجاري العربية - إيران
على المحيط الهندي . وفي أندونيسيا والهند الصينية ، والصين الجنوبية
(والمعروف أن مدينة قانطون كانت تأتي مستعمرة كبيرة من التجار
الذين ينتمون الى مختلف أنحاء العالم الاسلامي) . وكذلك انتشرت
اللغة العربية في اتجاه الشمال ، حتى بلغت الأنهار الروسية الكبيرة ،
ودخلت مدنا مثل امل ، وبلفار ، وكيف . والقسطنطينية نفسها ، تستعمل
على مسجد يضم جماعة المسلمين الذين يعيشون فيها .

بقي الآن ، أن نبين وضع اللغات التي تتكون من عدة عناصر والتي
نبت على هامش العالم الاسلامي . وهذه اللغات التي ولدت في نفس
الفترة ولكنها ستتطور مع مرور الزمن ويكون لها خطرهما هي .

السواحلي الذي كان يستعمل في مراسي المحيط الهندي على شواحي
افريقية الشرقية . وهي لغة افريقية تحتوي على كثير من الألفاظ المأخوذة
من اللغة العربية

— لغة آزور (Azor) ، وهي لغة المناطق التجارية حيث كانت تجري
المعاملات في الذهب والعبيد ، على سواحل السودان (على المحيط
الأطلسي) . وهي تستعمل على كثير من الألفاظ المأخوذة من اللغة العربية

7 - ورد في كلام يهودي كان يكتبه من مدينة القروان ، وكان قد هاجر الى العراق في
الانكليز والفرقة الألمانية ، قوله : أنه يعتقد بعدم فهمه باللغة العربية ولا اتصاله
الى الكتابة بالعربية ، حيث أنه يستعمل وليس لديه وقت . واللغة العربية
الشرقية له . اراجع : I. Goldziher *Mélanges Judo*

— Arabes XXIII^e Revue des Etudes Juives, L, 1905, pp. 182-188

واللغة البربرية ، واللهجات المودانية (وخصوصا ، الصونكي والصونفاي) .

— اللغة الصغدية التي كانت لغة التجارة منذ عصر الساسانيين . وهي لغة ابرائية تشربت كثيرا من الألفاظ المأخوذة من اللغات المجاورة .

— لغة الفرنك التي كانت منتشرة على شفاف البحر الأبيض الأروية وهي لغة عاشت طويلا ، حيث أن آخر رجل كان يتحدثها مات في منتصف القرن التاسع عشر ، في راجوز (Ragusa).

وكذلك لعبت لغة قريبة من اللغة الماليزية (كانت لهجة الحديث في مولاي جزر المحيط الهندي) دورا يشبه الدور الذي لعبته لغة الفرنك ، ولكن في وقت متأخر .

لهذه اللغات التي نمت في أطراف العالم الإسلامي ، تبدو غير ذات بال على الخريطة ، ولكنها في الحقيقة ذات أهمية بالغة . فهي تشكل بوتقات تتحول فيها المصطلحات التقنية ، ومايير البحرين والألفاظ المستعارة في التجارة ، ثم تنتقل الى اللغات المجاورة . وأهمية هذه اللغات تستحق التنويه حيث أنها ساعدت في نقل المصطلحات التقنية من العالم الإسلامي الى اللاتينية الرومانية (8) .

وهذه النظرة المتحفظة في اللغات العامية المستعملة في داخل العالم الإسلامي وفي أطرافه ، تسمح لنا بحصر الموضوع . تقديم تعريف ملائم لكلمة « مسلم » ، والتمييز بين العالم العربي و¹ « الم الذي اعتمد اللغة العربية » .

8 - لغة مشتقة من اللاتينية ، وتقدمت تاريخيا اللغة الفرنسية . « المترجم » .

وفي المكان الأول ، ينبغي أن نستبعد تعبير « العالم العربي » في هذه الفترة . فقد طالما قيل أن المنصر العربي الحقيقي ليس له أهمية شديدة حيث أنه « أغرق » في بحر من السكان هم أكبر عددا وأعمق حضارة وأكثر تمدنا منه . وأما تعبير العالم الذي نعتمد اللغة العربية ، فهو أكثر دقة ، ولو أنه لا يرضينا تماما . فإن أطراف هذا العالم كانت في تطور دائم . وهي لا تشكل كتلة واضحة المعالم . فإن المدن التي تقع فيه كانت دائما في اتصال مع الأرباب ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى . فإن لتنين قد تشكلت من الاحتفاظ بتركيزها وتجددتا في العالم الإسلامي : كسا وأينا وهما اللغة الفارسية واللغة البربرية : وكلتاها شتميش طويلة .

وإذا ، فإن التعبير الملائم الذي ينبغي أن تأخذ به . هو : « العالم الإسلامي » .

فهذا التعبير ليس أفضل ما بحث عنه . ولكنه أحسن من غيره ، شرقة الاتفاق على مضمون هذا المصطلح . وهنا أيضا نجد أنفسنا في قضاء دائم التطور . وفي هذا المجال أيضا . نجد أن نقاط الارتكاز هي المدن . والعلاقات بين المدن . فسن المدن ينتشر النفوذ الثقافي والحضاري إلى العالم العربي وإلى مجالات البدو الرحل . وخارج المدن أما ينتشر الإسلام ببطء ، في بعض الحالات : فإن بعض المناطق في جبال البربر ، مثلا لم تقبل الإسلام ، بشريته والعادات التي ينطوي عليها . إلا في وقت متأخر ، في القرن التاسع عشر ، تحت شروط خارجية .

والاعتراض الآخر الذي يتبادر إلى الذهن : في سياق اعتياد هذا التعبير ، هو أن العالم الإسلامي في غضون الفترة بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر الميلادي ، لم يكن يعد يشمل اتلونوسيا والهند الواقعة على نهر الكنج . وأخيرا فإن أقليات مهمة أفلتت من الإسلام ، كانت تعيش في داخل الخلافة الإسلامية . وهؤلاء ينتمون إلى مختلف

الملل والنحل ، مثل المسيحيين ، واليهود ، والزنادقة ، والمزدكيين ،
والوثنيين ، والبوذيين والملاحدين .

والواقع أن الأصلح والأحق هو أن نتحدث عن « العالم الذي يتسلطه
الحكم الاسلامي » . ولكن اختصاراً نهائياً لتعبير « العالم الاسلامي » ،
يقوم على اعتبار أن مضمونه مشابه لتعبير « العالم الهليني » و « العالم
الروماني » . وبعبارة أخرى ، فنحن نتحدث عن شعوب مختلفة تستقل
بعلم حضارة مشتركة ، أو تعيش في شبكة من العلاقات التي تربط المدن
والتي تشكل أساس هذه الحضارة التركيبية . وكذلك نجد أن العالم
الاسلامي يتسم بالخصائص التالية :

مجال لنسج اقتصادي ، أولاً وقبل كل شيء ، ثم هو بعد ذلك
مشرح. لحضارة ذات أصول متباينة ، تعود الى الحضارات الهلينية
والسامية والارمانية والهندية ، وبطبيعة الحال ، الى الحضارة العربية
وهذه الحضارة التركيبية : كما يشهد بذلك أنها الذي يتكون هو الآخر
من عناصر متعددة : فارسية وتنتمي الى ما بين النهرين وبيزنطية : بل وقوطية
أيضاً . وميزة الاسلام ولفظه الأكبر هو أنه تسكن من صهر جميع
هذه العناصر ثم إعادة تركيبها في حضارة واحدة متناسقة ، لا يكاد الانسان
يعترف على العناصر الأصلية فيها .

فإن تحفة قبة اسلامية . مثلاً : كثيراً ما يخفي أصلها والمنطقة التي
استخرجها منها على النقبون . إذا كانت لا تحمل نقوشاً واضحة مفهومة
وبالتالي ، فنحن لا نعرف ما إذا كانت هذه التحفة قد جاءت من الهند ،
أو من اسبانيا ، أو من مصر ، أو من آسيا الوسطى .

واللغة العربية لها نفس الميزة : الطابع الكوني . فهي في نفس الوقت
لغة الدين ، ولغة الادارة ، ولغة التجارة ، ولغة الحضارة .

وهذا العالم الإسلامي الذي هو عالم تركيبي : مثل العالم الهليني والعالم الروماني ، يقدم شيئا أكبر مما قدمه هذان العالمان : أبداً جديداً ، وهو أوسع منهما ، لأنه يجمع في أحشائه العالمين السابقين له ، ولو ركبنا فكرنا تخوم أميرالمطوية الاسكندر الكبير وتخوم أميرالمطويات الرومان والخلفاء المسلمين ، لوصلنا حتماً الى النتيجة التالية : أن العناصر البشرية في الخلافة قد أخذت من العالم الهليني والعالم الروماني ، وهذه العناصر ، هي الشعوب الشرقية وشعوب البحر الأبيض المتوسط .

ولمّا يتطرق بالناحية الجغرافية ، فإن الخلافة الإسلامية تضم الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض الشرقي ، وهي منطقة العالم الهليني . ولكن الخلافة تضم أيضاً الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، وهي منطقة الرومان سابقاً .

وعالم الخلافة العباسية ذو آفاق أكثر اتساعاً من العالم الهليني في اتجاه المحيط الهندي ، والهند ، وآسيا الوسطى والصين . ومن جهة أخرى ، فهو يفتح على المحيط الأطلنسي . وعلى الشمال الغربي . مثل العالم الروماني .

ولكن العالم الإسلامي يضيف الى مجموع امتداد العالم الهليني والعالم الروماني ، فتحاته على منطقة الأنهار الروسية الكبيرة ، وعلى الطرق المتجهة الى بحر قزوين وإلى بحر البلطيق ، وعلى طرق التوافل التي تمر عبر الصحراء في اتجاه السودان وإفريقية الوسطى .

وظهور الامبراطورية الإسلامية كان من نتائجها الأساسية اتساع آفاق التجارة الدولية ، وإقامة نظام اقتصادي أوسع وأكثر تنوعاً وأشدّ قوة

القسم الثاني

قوة نظام النقد الإسلامي وتقدم العمران في المدن

الفصل الخامس

مشكلات النقد

كان بحثنا حتى الآن مركزا على الناحية الجغرافية ، على أساس دور كل إقليم على افراد . ولكنه الآن يتحتم علينا أن ندرس بعض التواحي الأساسية التي كانت سببا في قوة العالم الإسلامي وعظمته . وسنبدا أولا بدرس المحرك الرئيسي المولد لهذه القوة ونعني بذلك نظام النقد ، ثم نبحث مسألة ازدهار العمران في المدن والقرى الاجتماعية الذي يكون نتيجة للاضطراب الاقتصادي .

الحالة النقدية

شدة الفتح الإسلامي

نبدا أولا ، بدرس المحرك الرئيسي المولد لهذه القوة ونعني بذلك نظام النقد (1) ، ثم نبحث مسألة ازدهار العمران في المدن والقرى الاجتماعية الذي يكون نتيجة للاضطراب الاقتصادي .

فإن ذهب العالم المسيحي الغربي الذي يسيطر عليه البرابرة : قد استنزف كله تقريبا ، وأصبح هذا العالم لا يمتد الا على ما ينتجه من معدن الفضة لصك النقود ، وهذه النقود الفضية : هي في معظم الحالات

1 - لمزيد من التفاصيل من المسائل التي يتناولها هذا الفصل : راجع :
M. Lombard, Les bases monétaires d'une suprématie économique :
L'or musulman du VIII^e au XI^e siècle. Annales E.S.C. II, 1947, pp.
145-160 et Études d'Économie Médievale, I. - Monnaie et Histoire d'Alexandre
à Mohammed, éd. Mouton et co., Paris, 1971.

من نوع ردي» - ونحن نعرف من هذه النقود ، مثلا ، « التريان » (Triers) المروثجي المصروب من النحاس والمطلي بطبقة خفيفة جدا من الفضة ، وهو ذو وزن خفيف وقيته ضئيلة للغاية ، والبلد نفسه قد هجرته تيارات التجارة العالمية

وتجارة الاستيراد ، مثل التجارة في الكماليات وبيع الترف ، محكرة في يد الشرقيين « السوريين » الذين استغلوا احتياطي الغرب المسيحي من الذهب ، وبسبب ما يملكه من الذهب القليل الذي هو النقد الاساسي ، الذي يستعمل في التبادل التجاري في منطقة البحر الابيض ، وقد أصبح الغرب المسيحي مجالا تسود فيه أشكال الحياة الريفية ، وفي نفس الوقت الذي يخضع فيه نظام اقتصادي مطلق على نفسه ، كان تدهور الممران في لندن في الغرب يسير بسرعة .

ومن ناحية أخرى ، عرفت الامبراطورية البيزنطية صعوبات جديدة مرجعها الى القطاع تمونها بالذهب .

وانقطاع معدن الذهب عن بيزنطة سر برحلتين : تضال الكميات الواردة ، ثم قلة انتظام وصول الذهب الجديد أو الذهب المستخرج من المناجم ، فان بداية الشمال قد قص « الطرق المؤدية من بيزنطة الى سهوب البونث (Ponze) (2) وبحر آزور ينشأ قطع البليسيون في مصر العليا طريق الجنوب المؤدية الى المناطق المنتجة للذهب في افريقية السوداء.

2 - منطقة تدمرة تمتد اواسطها من الشمال الى الشرق في اسيا الصغرى ، على البحر الأسود ، التي استقلها من امبراطورية الفرس في سنة 301 ق . م . وقد عرفنا هذه المنطقة جيدا من الاراضي والقوة خصوصا تحت الملك ميثريداث (Mithridate) وبعد فترة طويلة من النضال مع الرومان سقطت في ايديهم في سنة 63 قبلادة . (الشرجيم) .

و قدفى الوقت : حيل بين بيزنطة وبين النفوذ الى المحيط الهندي الذي يسيطر الساسانيون على طرق التجارة فيه .

وقد زاد من فقر بيزنطة فى الذهب : ميل الناس . ولاسيا رجال الكنيسة (أديرة سورية ومصر والقسطنطينية) ، الى اكتناز الذهب ، مما نجم عنه جسي كنيات كبيرة من المدن الثمين ، ومنعها من التداول فى الأسواق فى صورة نقود . ومما زاد من خطورة النقص الذي تعانيه بيزنطة ، أن هذا النقص وقع فى نفس الوقت الذي اختفت فيه تيارات النقود الذهبية المضروبة والآتية من الغرب المسيحي (الواقع تحت سيطرة البرابرة) . وهذا الاختفاء كما رأينا . مرجعه الى استنزاف المشاركة لاحتياطي الغرب من الذهب . وقد أدى مجسوع هذه الظواهر الى فرض قيود متزايدة الشدة على تداول العملة المضروبة من الذهب .

ومع ذلك ، فإن ولايات بيزنطة الشرقية . سورية ومصر (وهي بلاد اشتهرت بدورها فى تجارة المرور (الترانزيت) بين الغرب المسيحي ومسلحة الساسانيين) تملك احتياطيا كبيرا من الذهب . وبفضل هذا الاحتياطي . تمكنت بيزنطة من مواجهة أزمائها النقدية وتوفير الذهب لضرب عملها . الدينار (Dinaros) . التي لا تزال الوسيلة الوحيدة للتبادل التجاري على ضفاف البحر الابيض . والتي هي أهم أوراق المساومة الدبلوماسية فى يد بيزنطة .

ومع ذلك ، فإن الامبراطورية البيزنطية تعاني شيقا كبيرا فى مجال النقد : فالتجارة مع العالم : أصيبت بالركود ، أولا . ثم بالنقص والخيرا . أصبحت تجارة بيزنطة منحصرة فى مجال ضيق لا يتكاد يتجاوز حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي : الاسكندرية الطاقية - القسطنطينية - الاسكندرية .

والتي جانب المدن التي لا تزال تحتفظ بمكانتها العسائرية كانت
الامبراطورية تعاني من حركة واسعة للإقطاع : كما تدل على ذلك أوراق
بردى (القرنين السادس والسابع الميلادي) : ومن انتشار الملكيةات
الزراعية الكبيرة التي كانت مراسم الامبراطورية تقاومها .

وفي مقابل بيزنطة : نجد أن الامبراطورية الساسانية لا تضرب نقود
الذهب . لأن النقد المتداول فيها هو الدرهم (الدراهم) المضروب
من الفضة .

ولكن احتياطي الساسانيين الكبير من الذهب كان مجعدا في شكل
على للزينة وأثاث مقدس في قصور الملوك ومنازل الاثرياء . وكذلك
كان الشرق الساساني يبدو وكأنه كثر حقيقي من الذهب .

وعلى أساس نظام النقد الذي يقوم على الفضة ، والذي يسيطر على
الاسواق الكبيرة في الشرق الأوسط والمحيط الهندي مع نقاط في آسيا
الوسطى والانهار الروسية الكبيرة ، عرفت هذه المناطق نشاطا اقتصاديا
واسع النطاق . نجم عنه ازدهار كبير في عمران المدن . وكذلك تُكاد
الطابع الريفي والاقتصادي يدل في هذه المناطق الى الاختفاء ويحل محله
نفوذ المدن والحركة التجارية .

وقد كان وضع النبلاء والاقطاعيين الذين يعيشون على دخلهم من
استغلال الأرض - يتدهور تدريجيا . مع مرور الوقت واتساع نطاق
التبادل التجاري مع البلاد الواقعة على المحيط الهندي . وعلى البحر
الاحمر : وآسيا الصغرى ومناطق الانهار الروسية الكبيرة .

وزيادة على ذلك ، فإن الساسانيين يسيطرون . بوصفهم وسطاء يحكم
الضرورة . على طرق تسوين بيزنطة بالتخف الثينة الآتية من آسيا .

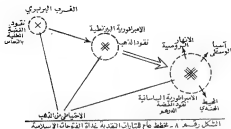
وكذلك ترى مجموعة اكثريون - أبله (الذين حلوا محل سلوقية
وابولوجوس الهلنيتين) على الخليج قد أعدت مجموعة بغداد -
البصرة . تقوم بالدور التجاري الخطير الشأن الذي قامت به في العصر
الاسلامي .

وهذه السيطرة الاقتصادية التي يمارسها الساسانيون في ملكهم .
تمكس آثارها في مجال الفن ، بازدهار ألباط من الصيغ التقنية في
العمارة والأيقونات والزخرف ، في إيران وما بين النهرين . وهذه الألباط
تستشر في الاتجاه الشرقي (كهوف أجاتا في الهند ، وجدرانيات
خوطان وكوتشا وتورفا في آسيا الوسطى) ، وفي الاتجاه الشمالي
(الصياغة والتجارة في المصوغات بين شعوب السهوب) ، وفي الاتجاه
الغربي (خصوصا المنسوجات البيزنطية) .

ومنى حصرة بدقة هذه المناطق النقدية الثلاث ، فسيبقى أمامنا أن
نحدد معنى تيارات التبادل القائمة بينها . وهذه التيارات ، في نهاية
التحليل ، تتجه من الغرب إلى الشرق : فإن الغرب المسيحي الذي يسيطر
عليه البرابرة يستنزف احتياطي من الذهب لفائدة بيزنطة التي تفقد ما
تكسبه من الذهب لفائدة الساسانيين في الشرق .

وهكذا نلاحظ ، قبل الفتح الاسلامي حركة تتجه في خط مستقيم
من الغرب إلى الشرق وتستنزف موارد الذهب من غرب البحر الأبيض
المتوسط ، لفائدة الشرق وشواطئ المحيط الهندي . والذهب الذي
تدور حوله هذه الحركة سينتهي في آخر المطاف إلى صناديق الكنائين
الساسانيين والهنود .

وفي بداية القرن السابع الميلادي ، نشاهد اختلالا في التوازن يزداد
خطورة مع مرور الزمن ، بين حجم مجموع الذهب المكتنز ، والكميات



المتداولة منه في صورة نقد . فان ممالك البرابرة التي استنزفت احتياطيها من الذهب ، كما قلنا ، أو أوشكت د تعاني من نقص شديد في معدن الذهب لسك النقود . وينسأ يتنافس الذهب المتداول في صورة نقود في الامبراطورية البيزنطية ، على الرغم من وجود احتياطي مهم (غير تقدي) في بعض ولاياتها ، نجد أن الامبراطورية الساسانية ؛ لا تملك فيه كميات عظيمة من معدن الذهب المكتنز .

وهذا الاتجاه سيؤدي الى تقييد حجم الذهب المتداول في صورة نقود ، وإلى تقلص جغرافي لمنطقة معيار الذهب واتساع منطقة معيار الفضة .

وقد انحصرت منطقة الذهب المتداول ، بحيث لا تكاد تتجاوز الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والأراضي التي يمتد عليها سلطان بيزنطة . وبذلك أصبحت منطقة معيار الذهب محاصرة بين منطقة معيار الفضة في الغرب للسيحي ، ومنطقة معيار الفضة الساسانية التي تسمح تدريجيا في الاتجاه الشرقي . والأسباب الثلاثة التي أدت الى هذه الحالة

هي : اكتناز الذهب ، وضعف الإنتاج وعدم انتظام ورود الذهب ،
وأخيرا ، ثقل الذهب في خط مستقيم وفي اتجاه واحد ، من الغرب إلى
الشرق وهو اتجاه يفرضه توازن الميزان التجاري على التيارات النقدية

والفتوحات العربية و ظهور العالم الإسلامي ، سيؤثران على الحقائق
الثلاث المذكورة ويغيران خريطة العالم النقدية .

معادن النقد في العالم الإسلامي :

والحقيقتان الأساسيتان في هذا الموضوع ، هما : تدفق الذهب الذي
يستعمل لضرب الدينار الإسلامي ، واستغلال الموارد الكبيرة من النصف
التي تستخدم لضرب الدرهم (Deabsem) من جهة ، والنحاس والقصدير،
وهما المعدنان اللذان تضرب منهما قطع النقد الصغيرة (الفلس أو
(Phellis) البيزنطي) ، من جهة أخرى .

فأما تدفق الذهب إلى العالم الإسلامي ، فهو يكتسي ثلاثة أشكال :
وضع الذهب المكتنز في دائرة التداول من جديد ، ووصول ذهب جديد،
والتقدم التقني في معالجة الذهب .

وإدخال الذهب المكتنز من جديد في دورة التبادل التجاري مرجعه
الأسباب والغنائم التي أخذت من قصور الساسانيين أولا ، ثم في عهد
الخلافة عبد الملك بن مروان الأموي (685—705م) ، من الكنائس
الثرية في سورية وما بين النهرين . وهذا الخليفة الذي واصل التعريب
وإدخال اللغة العربية إلى الإدارة بجزم ، وسيقوم بضرب الدينار
الإسلامي . هو الذي ألغى امتيازات القساوسة التي كانوا ينفون
بوجوبها من الجزية . فإن كل واحد من القساوسة سيدفع منذ الآن
دينارا ذهبيا واحدا . وأما ممتلكاتهم فقد أصبحت وأخضمت للضريبة
المعارية — الخراج .

وهكذا كانت الكنائس والأديرة في العالم الإسلامي تقوم خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن التاسع ، بدور الاحتياطي من المعدن الثمين الذي يلجأ اليه الخليفة في وقت الضائقة ، تماما مثل المعابد القديمة التي التجأ اليها الامبراطور قسطنطين من قبل .

وإذا لاحظنا أن التدابير الأولى التي اتخذها الخلفاء الأمويون لآخراج الذهب من خزائن الكنيسة ، ترجع الى حوالي سنة 700 ميلادية ، وأن الاجراءات الأولى التي اتخذها الإمبراطور الأيسوريون المجددون (3) (Iconoclasm) في بيزنطة ، يعود تاريخها الى سنة - 726 ميلادية ، وأن قيام الامبراطور شارل مارتنل بالاستيلاء على أموال الكنيسة في الغرب وقع في سنة 730 - 731 ميلادية ، فينتأكد لدينا أننا أمام حركة انتشرت من الشرق الى الغرب ، ومن العالم الإسلامي في اتجاه بيزنطة ، ثم الى الغرب المسيحي ، وهي حركة وضعت حدا لدورة كنز الذهب .

وفي مرحلة تالية ، اكتشف الذهب المكتنز في قبور الفراعنة في مصر . فان الفتح الإسلامي قد وضع حدا لعملية كنز الذهب أثناء تشييع جنازات الموتى في مصر . وبعد ذلك ، تحدثت النصوص التي بين أيدينا عن عمليات عديدة لاكتشاف الذهب كان يقوم بها الباحثون عن الكنوز في القبور ، والذين كان يطلق عليهم اسم « أصحاب المطالب » . وأصحاب المطالب ، كانوا يحترفون البحث في القبور ويدفعون خسر ما يكتشفونه من الذهب الى الدولة ، وكانوا يعملون بالتعاون وثيق مع دار السك . ونفس الحالة ، هي التي نجدها في أمريكا اللاتينية فيما بعد . في عهد المغاربيين الزواة الأسبان ، حينما كانت عصابات متخصصة من سراق

3 - الأيسوريون نسبة الى ايسوري (Isauri) ياب في آسيا الصغرى يقع على السواحل الجنوبية، ورجمة كلمة (Iconoclasm) كلمة « مجنون » ، رجمة لغوية . والثانية في السياق الديني أطلقت على طائفة في الامبراطورية البيزنطية في القرن التاسع الميلادي ، وصلت بالهرطقة ، وكان لهم نظم الايقونات والصور المقدسة . (المرجع) .

القبور ، تبحث عن الذهب في قبور الأسر البيرونية (الجواكا) . وهي أيضا تشبه الحالة التي كانت سائدة في الغرب المسيحي في العصور الوسطى ، ولو أن سراق القبور في أوروبا ، كانوا يائسين بالقياس الى زملائهم من المصريين والأسيان .

ولكن لئلا نعد الى ذهب الفراعنة . فنحن نعرف ان مجموع كميات الذهب التي استخرجت من قبر توت عنخ آمون وحده ، زن مئات القناطر وتمثل ضمعي رصيد بنك مصر من الذهب . ولكن توت عنخ آمون لم يكن في الحقيقة سوى ملك متواضع بالقياس الى كثير من ملوك الفراعنة . فمن ذا الذي يستطيع تقدير قيمة مجموع الذهب الذي استخرج من قبور الفراعنة التي انتهكت حرمتها ؟

لذا كانت مكتشفات الذهب في عصرنا هذا تكثر ، ولذا كنا قد خرجنا من عصر اكتناز الذهب خلال عمليات تشييع الجنازة ، الى عصر الاكتناز العلمي (ذلك الاكتناز الذي يشله متحف القاهرة للعاديات) فان الذهب المكتشف في العصور الوسطى ، على خلاف الحالة السائدة الآن ، كان يوضع في جديد في دائرة النقد المتداول ؛ لأن هذا الذهب يضرب نقودا .

والشكل التالي الذي اتخذته تدفق الذهب الى العالم الاسلامي هو وصول الذهب المستخرج حديثا اليه ، وهذا الذهب يأتي من استغلال مناجم الذهب في الملكات الاسلامية بعدما اُسْتُعْمِلَتْ رِقْعَتُهَا . وهذه المناجم ملك للمسلمين ، باحدى الطريقتين : فاما أنهم يملكون أرضها ومواقعها فعلا ، أو هم يسيطرون على الطرق التي يسلكها الذهب الآتي من الخارج . وبذلك كان المسلمون يسيطرون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على مصادن الذهب في غرب شبه الجزيرة العربية والفوقاز وأرمينيا وجبال الأبال والإطاي التي تتمون منها قبائل الترك الرحل ،

ومناجم التيت ودكان التي ينقل الذهب المستخرج منها الى المناطق التجارية الواقعة على نهر مهران ، أو على شواطئه ملبار : ومناجم افريقية الشرقية التي كانت مصدر ثروة سفالة (سفالة الذهب) . ومناجم النوبة ، وأخيرا مناجم وادي العلاقي التي يتحدث عنها البعثوني والتي تنتج ذهباً ينقل منها الى أسوان .

ومن جهة أخرى ، فقد سيطر المسلمون على مورد جديد للذهب هو أهم من كل ما ذكر ، وكان يشكل التيار الرئيسي الذي يسون شواطئه البحر الأبيض بالذهب الحديث الاستخراج خلال الفترة بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر ، ونفني بذلك : ذهب السودان . واستخراج الذهب من هذه المناجم يقوم به ملتقطوا الذهب من السود . وهؤلاء لا يزالون يمارسون نشاطهم حتى يومنا هذا . وأما نقل الذهب الملتقط ، فهي مسألة تتمثل بالتجارة التي كان يقوم الجبالون من البربر ، عبر الصحراء ، ابتداء من مراكز الإيداع في منطقة السبخال - النيجر ، حتى محطات القوافل الكبرى على حواف الصحراء في الشمال . وقد كانت تولطة وسجلماسة وورجلة والجريد ، كلها موانئ مغربية (في الصحراء) للذهب . وسجلماسة التي أمست في موقع تافيلالت في سنة 757 ميلادية ، كان لها دور خاص في توصيل الذهب من « بلاد السودان » التي تسمى أيضا « بلاد التبر » الى الشمال .

والعامل الثالث الذي يسهل تدفق الذهب الى العالم الاسلامي ، هو التقدم التقني الذي تحقق في معالجة المعدن الخام للذهب بتعميم استعمال للفضة (وهي كلمة نقلت الى اللاتينية من العربية التي أخذتها عن الافريقية) أي « مزج المعادن » وهذه الطريقة على كل حال ، تستعمل الزئبق (الزاؤوق = *Asaquey* = *Asaque* بالاسبانية) الذي يستخرج من أسبانيا ، وفي مدينة المادن (المعدن) الاسبانية ، كان

يشتمل ألف عامل في صناعة الزئبق الذي كان يلعب دورا مهما في العصر الاسلامي ، يشبه الدور الذي سيكون له فيما بعد في أمريكا اللاتينية لاستخراج الذهب . وقد كان الزئبق الاسياني يصدر الى المغرب الأقصى والسودان وإلى مصر والتوبة وما بين النهرين وإلى آسيا الوسطى وشمالىء المحيط الهندي ، وبعبارة أخرى ، إلى البلدان التي تنتج الذهب .

ومن هذا التقدم التقني بقي في اللغات الأوروبية إلى يومنا هذا اسم آلة تستعمل لفسل الذهب ، وهي : « البطيخة » بالفرنسية (Batterie) بالألمانية (Batterie).

والى جانب موارد الذهب ، توفرت لدى العالم الاسلامي أيضا موارد من الفضة .

والمناطق التي كانت تنتج الفضة في العصر الاسلامي هي نفس المناطق التي كانت تنتج هذا المعدن في العصور القديمة ، وفي المكان الأول ، أسبانيا الجنوبية . طرطوشة القديمة ، التي كان الفينيقيون يشردون عليها ثم احتلها الرومان ، قبل المسلمين . والسلمون هم الذين وضعوا حدا لاضطرابات البرابرة التي أدت إلى انخفاض الإنتاج ثم إلى توقف استغلال المناجم .

وقد نجم من مجيء المسلمين إلى هذه المنطقة استئناف النشاط بقوة لاستخراج الفضة . وكذلك كانت مناجم الفضة الواقعة في جبال الألبس في المغرب الأقصى والتي كان يستغلها الأهالي ، تنتج كثيرا من هذا المعدن للتصدير في عهد الفينيقيين . وقد ظلت هذه المناجم نشيطة حتى في القرن السادس عشر الميلادي .

وأهم من ذلك ، هي مجموعة المناجم التي تقع في أرمينيا وإيران الجنوبية وآسيا الوسطى ، وهي مناطق مشهورة بما تحتوي عليه تربتها

من معدن الفضة في عهد الساسانيين الذين كانوا يستغلونها للحصول على
الفضة لضرب الدرهم .

والكبر المراكز النجبية في هذه الأصقاع هي : « معدن بن جاهير »
الذي يقع في جبال كابل والذي كان يشغل عشرة آلاف عامل ، ومعدن
الشاش فيما وراء النهر في شمال فرغانة . وقطع النقود الفضية التي ضربت
في عهد هارون الرشيد وفي عهد الدولة الصفارية (القرن العاشر الميلادي)
تحمل اشارات الى معدن بن جاهير ومعدن الشاش ؛ وهي اشارات تؤكد
ما كان معروفا من وجود دور لضرب السكة بنيت قريبا من المعدنين .

وأخيرا ، فإن المناطق الجبلية التي تمتد في شمال سورية تحتوي على
منجم مشهور للفضة كان يستغله الفينيقيون وتصدر منتجاته من معدن
الفضة الى مصر القرونوية .

فالعالم الاسلامي يشتمل خصوصا على منطقتين كبيرتين لانتاج معدن
الفضة : اسيايا في أقصى الغرب ، وآسيا الوسطى وشمال ايران ، في
أقصى الشرق . وهاتان المنطقتان كانتا متوالتان على التوالي . دور الضرب
في الغرب المسيحي ، وفي الشرق الاسلامي حيث يسك الدرهم « ج .
دراهم » .

ولينا يتعلق بالنحاس والتصدير ، يكفي لكي ندرك أهميتها في العالم
الاسلامي أن نستحضر في أذهاننا الأعمال الفنية المديدة التي أبهى عليها
الزمن والمصنوعة من البرونز أو الصخر (النحاس والزنك) . ومناجم
النحاس تمون دور الضرب لسك قطع النقد ذات القيمة الصغيرة (الفلس .
ج . فلوس) للاستعمال المحلي وهذا المعدن يستخرج من جزيرة قبرص .
وخصوصا في منجم أرغاني (أرغاني معدن) الذي يقع في أعمال ما بين
البحرين ، والذي يوفر في أيامنا هذه المادة الخام لجميع الصناعات البترولية .
في الشرق ، وينقل الى البصرة ويصدر الى دمشق . وكذلك تنتشر

الفرقة الشمالية بهم وانقر في انتاج النحاس بانتاج جبال كتامة في منطقة البايور في بلاد التبتايل (الجزائر) - تلك القبيلة التي آوت العبيدين وناصرتهم . وأما المغرب الأقصى ، فقد كان يساهم بانتاج المناطق الوسطى الواقعة على شفاف نهر أم الربيع التي تحول كثيرا من هذا الانتاج الى مدينة فاس وتصدر كميات الى سجلماسة ، ومن هنا الى بلاد السودان . ومناجم السوس الأقصى تصدر النحاس الى بلاد السودان .

وأما اسبانيا ، فقد كانت معروفة منذ العصور القديمة بانتاجها الوفير من معدن النحاس ، وكذلك كانت مناجم القوقاز وآسيا الوسطى تمول صناع النحاس الأثراك .

وفيما يتعلق بالتصدير الذي يتحول الى برونز يضم النحاس اليه ، فهو يأتي من موردين عبيدين ، وبالتالي ، فهو معدن ذو صلة وثيقة بتطور التجارة العالمية : جزر قسيتريد (Cassiterides) (4) وهي الجزر التي أعطت اسمها العربي لمعدن القصدير ، ومن بلاد ككه ، أي من شبه جزيرة ماليزيا والقصدير الذي يأتي من البلاد الأخيرة يحمل اسم « القلبي » بالعربية .

وأما القصدير الذي تنتجه بريطانيا ، فهو يصل الى الأندلس عن طريق المحيط ، كما يصل الى البلدان الاسلامية الواقعة على شفاف البحر الأبيض المتوسط عن طريق الجول (Gaul) ورومنة ، وإلى البلدان الاسلامية في الشرق ، عن طريق حلب والبيندقية .

والقصدير الماليزي يدخل الى البلدان الاسلامية عن طريق الخليج ، ضمن تيارا التبادل التجاري بين البلدان العربية وإيران في منطقة المحيط الهندي والبحر الأحمر .

4 - اسم قديم لإربيل يتحول على وجه التقرية من جزر السيلان (Seylan) الحالية . المرجع 4 .

الذهب والنقود والتداول

كان تدفق الذهب ووفرة معدن الفضة ، بالإضافة إلى النحاس ، والتصدير عالميا ينطوي على إمكانيات واسعة لضرب النقود في العالم الإسلامي . وبعبارة ذلك ، فقد تعددت دور الضرب وأصبح ضرب نقود الذهب لا مركزيا حيث كانت السلطات تدارسه في جميع المدن الكبيرة في العالم الإسلامي . وبعد انقسام الخلافة الإسلامية كان جميع ملوك مختلف الدول يضربون النقود . الأمر الذي نجم عنه تدفق كميات كبيرة من نقود الذهب والفضة على الأسواق ، ولكن النقود الإسلامية لم تكن مهمة من حيث الكم فقط ، بل خصوصا من حيث الكيف . نظرا للعناية البالغة التي كان يضرب بها الدينار الإسلامي - وشأنه في ذلك شأن العملات التي لها سيطرة على الأسواق الدولية .

وما يرويه ابن خردادبه (حوالي 850 ميلادية) يؤكد ما هو معروف عن أهمية حجم النقود المتداولة واتساع نطاق انتشارها حتى أن نقود الذهب والفضة كانت متداولة في أصغر القرى وأبعد ما عن مراكز العراق . والمخرج يجبي بالنقود . وتكاليف بناء قصور الخلفاء تقدر بالنقود - وهي أمور تشهد بازدهار العراق في المدن .

وتداول النقد الذي شمل جميع أنحاء العالم الإسلامي . سيسس مناطق من المجالات الاقتصادية المجاورة .

وقطع النقود الإسلامية التوضيحية لم تظهر في بداية الفتح الإسلامي . فان الفتوحات الأولى . لم تشهد تغييرا في نموذج العملة المتداولة . فالدرهم الساساني ظل متداولاً في الولايات الشرقية . بينما كان الدينار البيزنطي مستعملاً في الولايات الإسلامية الغربية . ودور الضرب الإسلامية الأولى ، كانت تقتصر على سك هذين البونزين . وقد استمر الأمر على ذلك حتى عصر الخليفة عبد الملك الأموي . وأما سبب هذا التأخير في

الحلال صلة اسلامية محل العملات القديمة : فينبغي أن نبحث عنه في الطابع النقدي المحافظ للتبادل التجاري : وفي الأهمية التي يملؤها عالم التجارة على وسائل التبادل ، وعنده نقته بل وقوره من التجديد في مجال النقد .

ولذلك نجد أن تغيير العملة لم يقع إلا حينما اقتضت الضرورة التي نجت عن التغيرات الجذرية التي طرأت على النظام الاقتصادي نفسه .

لهذا التأخر في ظهور العملة الإسلامية . إذا ، يأخذ إلى الاعتبار تطور العلاقات الاقتصادية الدولية . وإذا كان الدينار البيزنطي والدرهم الساساني قد استمر كل منهما على القيام بدور العملة المتداولة في التجارة العالية حتى نهاية القرن السابع الميلادي (الإصلاح النقدي الذي أدخله الخليفة عبد الملك الأموي وقع في سنة 696 - 697 ميلادية) : فذلك لأن دائرة المعاملات التجارية القديمة ، كانت مستمرة في العالم البيزنطي من جهة وفي العالم الساساني من جهة أخرى .

ولكن ابتداء من القرن السابع . ظهرت وحدة اقتصادية . وهي وحدة العالم الإسلامي الذي أصبح يضم الكتلتين الاقتصاديتين القديمتين . وبذلك توفرت الشروط الضرورية لقيام عملة موحدة تجس في أحضانها الدرهم الساساني المضروب من الفضة . والدينار البيزنطي المضروب من الذهب .

ونحن في إمكاننا أن نحدد المراحل التي مر بها هذا التطور . فساق الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) . قد قام بالمحاولة الأولى في هذا الاتجاه في سنة 660 ميلادية : في البصرة : حيث أصدر العملة الأولى التي انخفضت شكل درهم إسلامي عليه نقوش بالخط الكوفي . ولكن هذه المحاولة نبتت بالفشل . وبعد ذلك بأربعين سنة ، أعيدت هذه التجربة وأسفر التجديد على تجاح .

ففي غضون هذه الفترة ، اذا ، وقعت تغييرات جذرية في الأحوال الاقتصادية وظروف تداول العملة : فإن العملة الإسلامية فشلت في المرحلة الأولى ، ثم نجحت بعد ذلك ، حينما صمدت أمام امتحان عسير ، وهو مواجهتها في الأسواق لأنواع العملة التي كانت لها السيادة من قبل .

وأول ضربة نقدية تحققت في العالم الإسلامي ، وقعت في عهد عمر بن الخطاب (634 - 644 ميلادية) ، حينما تم تنظيم وزن نقود الفضة ، فبينما كانت نقود الذهب تقوم على نظام واحد ثابت ، فإذا بنقود الفضة كانت تقوم على ثلاثة أنظمة مختلفة : الدرهم البجلي (الفارسي) والدرهم الرومي الذي تجري المعاملات بواسطته مع بيزنطة ، والدرهم الطبري ، الذي كانت منطلقة في آسيا الوسطى . وبوفاة في خلق مجال موحد من نقود الفضة ، حدد وزن الدرهم في المتوسط بـ 14 قيراط (من الأتريقية (Kerston) ، أي 396 جرام .

ونحن نلاحظ أن تحديد وزن الدرهم القانوني قد تم على أساس نظام ورث عن اليونان ، وهو القيراط ، وليس على أساس « الدناق » (5) الفارسي . وهذا التدبير معناه السعي لربط نقود الفضة الجديدة بنظام الذهب الذي هو نفسه من أصل يوناني .

وأما النقود الإسلامية الحقيقية ، فهي انما ظهرت نتيجة للإصلاح الذي أدخله عبد الملك بن مروان (6) (74-75 هـ - 693-695 م) بسك

5 - بساي ندمي الدرهم الفارسي ، «الفرج» .

6 - عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي ، أبو الوليد (24 - 86 هـ) من أعظم حلفاء الإسلام وأكدهم دهاء وأكثرهم حكمة . نشأ في المدينة فتيها واسع العلم ، متدينا ، مسلما ، استعمله معاوية على المدينة وهو ابن 86 سنة ، ثم انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه . سنة 65 هـ ، فكان قوي القوية ، اجتمعت عليه كلمة المسلمين ، بعد مقتل مصعب وعبد الله ابني الزبير في حربه مع الحجاج بن يوسف الثقفي ، وانتقلت في أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية وضبطت الحروف بالخط والبركات ، وهو كما يقول المؤلف ، أول من سك الدينار في الإسلام .

«الفرج» .

دينار الذهب فدمشق ومنذ ذلك التاريخ ظهر نظام العملة الإسلامية :
فهي سنة (75 - 76 هـ - 694 - 695 م) . سك أحمد ولاية
المرقا دوعهم القطعة من النوع الإسلامي - في البصرة . وقد انتشرت
هذه الحركة في مختلف الولايات الإسلامية : فقام عبد العزيز بن
مروان (7) والي مصر في سنة (77 هـ - 696 - 697 م) . بسك
الدينار في القسطنطينية .

والدينار الإسلامي الذي ظهر نتيجة لعملية اصلاح نظام النقد يحمل
نقوشا مستديرة الشكل وتاريخ صدور القطعة والبسلة . وابتداءا من
خلافة المأمون (813 - 833 م) العباسي : سيحمل الدينار الإسلامي
أيضا اسم المدينة التي سك فيها . وفي وسط وجه القطعة نقرا عبارة
دينية كتبت في ثلاثة أسطر ، وفي الظهر ، كتابة مستديرة بالنساء على
النبي (صلى الله عليه وسلم) . وفي الوسط على ثلاثة أسطر عبارة دينية .

وقطعة الدرهم تقرب على نفس الطريقة ونفس النقوش ولكنها أوسع
أبعادا حيث أن قطعة القفصة أقلظ وأوسع رقعة .

وأما الفلس ، فهو يحمل نقوشا مختلفة ، حيث أن هذه القطعة ذات
أهمية محلية وقانونية ، وليست خاضعة لعق الملكية وتقوم بسكها سلطة
محلية . ومن جهة أخرى ، نلاحظ أنه لا توجد أية علاقة بين النقود
المضروبة من البرونز والنفوذ الذهب والفضة .

7 - واقع التباس في الأصل مرجعه ، يقول ذلك : سوء التحرير ، حيث ذكر باسم
عبد العزيز أبي عبد الله . والأصوب ما ذكرنا . وهو عبد العزيز بن مروان بن الحكم
بن أبي العباس بن أمية ، أبو الأصم (وهو أبو الخليفة ، عمر بن عبد العزيز) .
وفي مصر لا به استقلال (سنة 85 هـ) وسكن حلوان ، حيث بنا الدور والمساجد
وخرس كرمها ونخلها . كان يفتا شجاعا جوادا فكانت النسيب حول داره كل يوم ألف
فلسه لأتاكين وحمل مائة فلسه على الفيل إلى قبائل مصر . توفي بطول سنة 85 هـ .
(المرجع 4) .

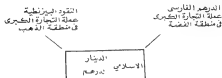
ونموذج العملة الذي صدر بهذا الشكل . تميزه نقوش بالخط الكوفي . وعدم وجود صورة على القطعة . وأما الدينار الذي ضرب في عهد المنصور العباسي ويمثل الخليفة وهو جالس على عرش . على ثغر الساسانيين ، فهو استثناء من القاعدة .

وكذلك ينحى بتحديد وزن القطعة الجديدة بحيث تكون موازنة ومماثلة للقطعة المتداولة في الخارج فأما وزن الدرهم المضروب من القطعة . فقد ظل على الأساس الذي حدده عمر بن الخطاب . وأما وزن الدينار الذهبي . فهو يحدد على أساس متوسط وزن عدد من القطع المتداولة في بيزنطة . والمعروف أن دينار الذهب المتداول في القسطنطينية . يزن 29.4 جرام . ولكنه نظرا لأن القطع التي يحدد وزن القطعة الإسلامية على أساسها ، هي قطع مر على تداولها وقت من الزمن . وبالتالي . فقدت قليلا أو كثيرا من وزنها من الذهب ، فإن القطعة الإسلامية التي تضرب من الذهب الخالص أقل قليلا ، من حيث الوزن . من قطعة الذهب البيزنطية .

ونظرا لأن القطعة الخفيفة الوزن ، تطرد القطع الثقيلة من الأسواق ؛ فإن الفرق البسيط في الوزن بين القطعة البيزنطية والقطعة الإسلامية للتناقضتين ، كان من العوامل التي أدت إلى انتشار الدينار الإسلامي الجديد بسرعة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . وأما قطع النقد البيزنطية القديمة : فقد سحبت من الأسواق تدريجيا وأرغم الصرافون وميدلو العملة على تسليم ما لديهم منها ، والقطع التي تصل إلى أيديهم وتحويلها إلى السلطات الرسمية التي تصهرها وتعيد سكها .

وخارج حدود الخلافة الإسلامية أيضا ، سينتشر الدينار عملة الخليفة العظمى ، وتوسع نطاق تداوله ، وآسيا في البلاد التي ينافس فيها الدينار البيزنطي : في روسيا الجنوبية ، وفي الغرب المسيحي الخاضع للسيطرة البرابرة .

وعكسًا : فإن الدينار البيزنطي والدروهم الساساني اللذين كانا رمزين لنظامين قديمين منفصلين : سيرتبط أحدهما بالآخر عن طريق الدينار والدروهم الإسلامي كما في المخطط التالي :



نقود التجارة الكبرى - نظامان مرتبطان للنقد .

عملة التجارة العالمية : منطقتان قديمتان مرتبطتان .

وعلى أساس 20 درهم لدينار واحد (النظام الثاني المعدن الذي سيسود في البلاد الواقعة على شواطئ البحر الأبيض) تحقق تدريجياً اندماج النظامين القديمين البيزنطي والساساني . واتسع نظام معيار الذهب . وسيتسع نطاق تبادل العملة المضروبة من الذهب في الاتجاه الشرقي ، في أراضي الساسانيين قديماً ، وفي اتجاه الغرب المسيحي وإسبانيا في نفس الوقت .

بقي علينا الآن أن نحدد مراحل اتساع نطاق نظام الذهب وسيادته في داخل العالم الإسلامي نفسه .

كان اتساع نطاق سك النقود الذهبية مرهوناً بتدفق معدن الذهب الذي جاء إلى العالم الإسلامي في أمواج متعاقبة . بدأت بالفنائس والأسلاب ، ثم بإدخال الذهب المكتنز إلى دائرة التبادل في صورة نقود .

وأخيرا وصول الذهب الجديد من مختلف أنحاء العالم ، ولا سيما من السودان .

ونتيجة لتدفق الذهب ، كانت قيمة الذهب ، وبالتالي ، القيمة الثرائية للنقد ، تنحصر إلى الانخفاض . ولقرا لأن الناس لا يكتفون النقد الذي تحط قيمته تدريجيا ، فقد اتجهوا إلى الاستثمار في مختلف القطاعات الاقتصادية التي تضمن عائدا مرتفعا لرؤوس الأموال المستثمرة . ومن ثم : فلا عجوبة في أن نشاهد حركة واسعة النطاق تستهدف الحصول على الثروة وتمييزها في العالم الإسلامي ، ولا سيما بين التجار ، عقب الفتوحات الإسلامية .

ولكن : لتوقف لحظات عند موارد الذهب في السودان . فإن هذا الذهب الذي يندفي التيارات الرئيسية للتكوين بالمعدن الثمين منذ نهاية القرن الثامن . وخصوصا . منذ القرن التاسع الميلادي يصل إلى المغرب كما رأينا ، عن طريق عدد من المدن الصغيرة التي تقع على طرق الصحراء : والواقع أن كل تاريخ اريقيّة الشمالية وتاريخ الدول التي قامت فيها ، كان يدور حول العمل للسيطرة على المحطات التي تقصدها القوافل ويحمل إليها معدن الذهب . وهذا الذهب . لا يبقى في المغرب . وإنما هو يمر به فقط . تماما كما حدث في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي بالنسبة إلى الفضة والذهب اللذين كانت تنتجها أمريكا وشبهان إلى قانس : ثم يوزعان على مراكز التجارة والصناعة والبنوك والمراكز المحركة للاقتصاد .

وهكذا يتجه ذهب السودان إلى مناطق الإنتاج الكبيرة التي تعمل للإنتاج لتجارة التصدير . فهو يتجه إلى مصر التي تنتج الفصح والأقمشة . وإلى منطقة ما بين النهرين التي تنتج قصب السكر والأقمشة : وهو يتجه أيضا إلى مراكز تجارة الرور التي تتلقى سلعا تأتيها من البلدان

الواقعة خارج العالم الاسلامي : اسبانيا التي تتلقى العبيد وغير ذلك من السلع التي يشتد الاقبال عليها في الغرب المسيحي . واسواق مصر وسوريا وما بين البحرين التي تتلقى منتجات آسيا : ولا سيما التوابل : ومراكز التجارة في آسيا الوسطى ، سمرقند ، وبخارى ، وخوارزم : التي تسيطر على الطرق المؤدية الى منطقة الانهار الروسية . والى بلاد الأتراك والى الصين والهند .

وأخيرا ، فان ذهب السودان يشبه أيضا الى المراكز السياسية العامة : والى بلاط الملوك والأمراء ، مثل بلاط بني طولون ، أمراء مصر ، الذين كانوا يدفعون في القرن التاسع الميلادي الى الخليفة العباسي تسوية مقدارها 300000 دينار سنويا .

ولكن ذهب السودان لم يوزع بالتساوي بين مختلف المناطق . فان المناطق التي تقع بعيدا عن الطرق الكبيرة للتبادل التجاري ، لا تتلقى سوى كميات ضئيلة منه . والذهب انما يتجمع في المراكز التجارية والمصرفية ، وفي أسواق المدن الكبيرة وفي قصور الملوك . هذه المراكز هي التي تتولى سك الذهب والفضة ، وبدرجة ثانوية ، النحاس وتقوم بإعادة توزيع هذه المعادن في شكل « محول » . وهذه التيارات النقدية هي التي تبث النشاط والحياة ، بواسطة ذهب السودان ، في الاقتصاد الاسلامي ، وأما بلاد المغرب التي يمر بها ذهب السودان ، فتعدها ينحصر في إعادة توزيعه الى مختلف المراكز الاقتصادية .



ولتقدير مدى انتشار تداول النقود الذهبية في العالم الاسلامي ، توجد لدينا خمسة مصادر للمعلومات : أولا ، بطبيعة الحال ، قطع النقود المحفوظة في متاحف القاهرة ، ودمشق ، وبغداد والمتحف البريطاني . وفي مقصورة الميديايات في المكتبة الوطنية بباريس ، الخ .

وهذه القطع تسمح لنا بتحديد أماكن السك وتطور الضرب ورسما على خريطة ، لهذه المواقع ، هي : أولا ، دمشق في عهد الأمويين ، ثم بغداد ، وإتداء من سنة 763 م . . في عهد المأمون العباسي (813-833 م) ، نجد أن عملة سك النقود أصبحت لا مركزية ، وبعد سنة 827 م . ، أصبح ضرب النقود يجري في جميع المدن الرئيسية ، في دمشق والحرب .

وبتوحيد طرق سك النقود ، تاکد اندماج معیاری النقد ، معیار الذهب ، « أهل الذهب » ، ومعیار الفضة ، أو « أهل الورق » كما كان سیر .

والمصدر الآخر الذي نستقي منه معلوماتنا ، هو تقدير قيمة مجموع الضرائب التي كانت تدفع في عهد الدولة العباسية .

كان تقدير ميزانية الخليفة في عهد بني العباس ، حتى نهاية القرن التاسع الميلادي : يعبر عنه بالدينار للغرب وبالفرهم للشرق . ولكنه في بداية القرن العاشر ، أصبح التعبير عن تقديرات الميزانية يجري كله بالدينار ، وهو دليل على توحيد النظام التقدي نهائيا على الصعيد الإداري .



واسبانيا الإسلامية ، تقدم لنا مثالا آخر للتوسع في استعمال النقود المضروب من الذهب . فان الأمويين في قرطبة انما كانوا يضربون النقود من الفضة فقط ، حتى القرن التاسع الميلادي . ولكنهم بعد ذلك أخذوا يسكون النقود الذهبية وهو تدبير يرمز لما بلغت الدولة الأموية من القوة والعظمة التي ستأكد في القرن العاشر ، باعتادهم لقب الخليفة « أمير المؤمنين » .

ومن جهة أخرى ، فقد عرفت اسبانيا المسلمة حركة قوية لتدفق قطع النقد الذهبية الآتية من المشرق . وبعض هذا الذهب يتخذ طريقه الى الغرب المسيحي في مقابل العيد الذين يستوردون من هذه البلاد ، والذين يعاد تصديرهم الى المشرق ، وهي تجارة تؤمن للأندلس دور منطقة العبور « الترانزيت » .

وأخيرا ، فقد كانت الأندلس تتلقى ذهب السودان وكان ملوكها يتدخلون عبر البحر في المغرب ليضنوا لأنفسهم السيطرة على محطات القوافل الشمالية في التجارة عبر الصحراء .

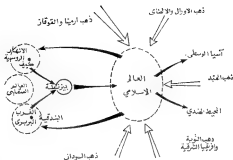
وهذا الذهب الذي يسك في قرطبة ، أو في مدينة الزهراء كان يندى بالنقود الذهبية الغرب المسيحي الذي يقوم نظامه النقدي على معدن الفضة .

ومن الأدلة الأخرى التي تشير الى اتساع نطاق استعمال النقود الذهبية ، قيام الفاطميين بضرب النقود الذهبية . فان الفاطميين الذين جمعوا ثروة طائلة في القرن العاشر الميلادي ، بفضل ما وصل اليهم من الذهب الآتي من السودان الذي يحتكروه ، سيكونون رصيدا هاما يسمح لهم بتحقيق خططهم لنزول مصر التي أخذت تميل الى دعوتهم ، نتيجة لسياسة تنسيطة تقوم على الدينار . وقد ضاعف الفاطميون نشاطهم

لضرب نقود الذهب فكانت تخرج من دورهم للضرب كميات كبيرة من
الدينار التي تنتشر في امپراطوريتهم من سورية الى سبيلية . والقاطمون
هم الذين خلقوا ربع الدينار الذهبي .

وأخيرا ، فإن المعلومات والأرقام التي نستقيها من المؤرخين والجغرافيين
العرب ، تسمح لنا بتقدير الوضع فيما يتعلق بتداول نقود الذهب في
العالم الاسلامي . ونحن هنا نقصر على سرد بعض الامثلة التي تدل
على ضخامة حجم الذهب المتداول . ففي الاندلس اكتشف لدى وفاة
عبد الرحمن الثالث (8) في سنة 961 ميلادية أن خزانته تحتوي على
5 ملايين دينار ، أي 250 قطار من الذهب المضروب . وفي عهد خلفه ،
الحكم الثاني « 961 - 976 م » ، بلغ دخل بيت المال 40 مليون دينار .
وفي مصر اكتشف لدى وفاة الوزير ، الأفضل (القرن الحادي عشر
الميلادي) أن خزينته تحتوي على 6 ملايين دينار ، وهو ما يمثل 300
قطار من الذهب السكوك . وفي بغداد ، كان دخل بيت المال في كل
سنة في عهد الخليفة هارون الرشيد (786-809 م) 7500 قطار
من الذهب المضروب نقودا ، أي مليارا ونصف مليار دينار . وقد قدم
الخليفة الواثق (842 - 847 م) هدية الى التجار في حي الكرخ (بغداد)
الذي عدته النيران ، تمثل مبلغ 500,000 دينار ، وهو ما يساوي
25 قطار من الذهب .

8 - عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الحكم الرضوي بن هشام بن
عبد الرحمن الداخل (277-350هـ) أمير الطوائف الروادي ، أول من قلب بالعملة
الأنبوب في 781م نشأ بطنجة بوجع بعد وفاة جده (سنة 500) هـ ، وكان حاكما
مضموها الصراف الى بغداد الفتن فاستقر له الملك خصوصاً بعد طويع حشده القادر
السياسي في العراق . وقد بوجع بالعملة في سنة 316 هـ ، وقلقه بالناصر ،
وصلى ابن هشام بأنه « من الظلم امرأه بشي الهبة الى الاندلس » كان كبير القدر
كنى الخامس محبا لعمراء مولانا بالفتح . . حاكم الناصر مدة خمسين سنة
وسنة الشعر . المخرجة .



الشكل رقم ١٠ - مخطط عام لاتجاه التيارات النقدية بعد الفتوحات الإسلامية

وهذه الأرقام التي نسردها من بين غيرها ، والتي نستقيها من المؤرخين والجغرافيين العرب الذين كانوا مظمين على الوثائق والأرشيفات في العصور التي كانوا يعيشون فيها ، تدلنا على مدى اتساع نطاق تداول الذهب في العالم الإسلامي . وحتى لو لم قبل هذه الأرقام واعتبرها دقيقة (وحتى الإحصاءات في عصرنا كثيرا ما يقتضي الأمر النظر إليها باحتراز) ، فهي ، على الأقل ، تعطينا فكرة واضحة في الموضوع ، وتبرر الانطباع السائد في أذهاننا بظلمة حجم النقود الضرورية من الذهب في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . وضخامة هذا الحجم تتضح لنا خصوصا ، متى أخذنا إلى الاعتبار عدد السكان بالقياس إلى كميات الذهب المتداول . وهذا العدد كان في ذلك الوقت أقل كثيرا من عدد سكان البلدان الإسلامية في الوقت الحاضر .

وفي الختام ، يمكننا ان نقول بأن العالم الاسلامي ، يتميز في تاريخ
 النقد البشري ، بتدفق الممدن الذين اليه ، ذلك التدفق الذي درسا
 مصادره والطريقة التي كان يقع بها . وبفضل وفرة هذا الممدن الذي
 يتمتع بحظوة خاصة في مراكز العمران الكبيرة المزدهرة ، فقد تمكنت
 هذه المراكز من الحصول على جميع المنتجات التي تحتاج اليها ، بما
 في ذلك المنتجات التي تأتي من الاقطار البعيدة . والحاجة الى المنتجات
 كانت قوية ، لانها ترتبط ارتباطا وثيقا بارتفاع بعض الطبقات السلم
 الاجتماعي . وكذلك ظهرت تيارات نقدية جديدة في العالم الاسلامي
 وخارج حدوده ، على طول طرق التجارة التي تنطلق منه .

والسالة الآن لم تعد ، كما كانت الحالة قبل الفتح الاسلامي ، مسألة
 تنقل الذهب في اتجاه واحد وفي خط مستقيم ، ولكن الوضع في العالم
 الاسلامي يقوم على مخطط جديد وعلى دائرة تجارية ونقدية حقيقية .



الفصل السادس

ازدهار العمران في المدن ومطالب الاستهلاك

كان العالم الاسلامي ، خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر ، مسرحا لحركة هائلة من العمران في المدن . وقد بدأت هذه الحركة بانشاء مدن سرعان ما أصبح بعضها أكبر مدن العالم (1) . فإذا قيل في ساوبولو أنها أسرع مدن العالم نموا (60-000 نسمة في سنة 1888 م) و 2 مليون نسمة في سنة 1950 « ، فماذا نقول نحن في بغداد التي زاد عدد سكانها في ظرف سنوات أقل ، أي من سنة 762 حتى سنة 800 ميلادية ، من بضع مئات (وموقع المدينة قبل الفتح الاسلامي ، كان عبارة عن قصر محصن للساسانيين محاطا ببعض الأديرة التابعة لطائفة الساسانية) ، ليبلغ مليوني نسمة ؟ .

والى جانب هذه المدن المستحدثة والتي احتفظ معظمها بمركز المدن الكبيرة حتى يومنا هذا ، كان النشاط والحياة تنبعث من جديد في مراكز عراقية قديمة سرعان ما ازداد عدد سكانها واتسعت آفاق عمرانها لتبلغ درجة من النمو لم نعرفها حتى ذلك الحين .

1 - المزيد من التفاصيل في هذا الموضوع : راجع :

M. Lombard, *Evolution urbaine pendant le Haut Moyen Age*, *Annales E.S.C.*, XII, 1957, pp. 7-22.

وهكذا ظهرت شبكة واسعة من المدن أصبحت ، بفضل الصلة التي قامت بين مدينة وأخرى ، تشكل ما يشبه العظام في هيكل العالم الاسلامي . وهذه المدن ، هي التي ستقوم فيها شبكة التيارات الكبرى للحضارة الاسلامية . وهذه الظاهرة ذات أهمية خطيرة لم تسلط عليها الأنواء حتى الآن . وحركة تعمير المدن في العالم الاسلامي ، تتجاوز بكثير حركة تعمير المدن التي عرفتها الامبراطورية الرومانية ، ويمكن ترتيبها على مستوى الحركة المائلة التي عرفها العصر الهليني والتي عرفتها أوروبا الغربية — على الأقل في البداية .

وهنا نجد من الضروري تحديد الوضع وتوضيح الاتجاه الذي اتخذته حركة تعمير المدن ، قبل ظهور العالم الاسلامي وبعد ذلك .

كانت توجد في النصف الأول من القرن السابع الميلادي ، كما كانت الحالة في النقد والعملة ، ثلاث مناطق يجري فيها نشاط متشابه السرعة لتعمير المدن . فالمناطق الأولى تتكون من الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة . فهذه المنطقة تتميز بعبود في تداول النقد ، وبالعزلة عن بقية أنحاء العالم ، وبجفاف شرايين التجارة ، وانقطاع شبكة الطرق التجارية ، وتسخير الفلاحين في الأرياف وسيطرة أساليب الحياة الريفية في البلاد ، بعدما حلت محل أساليب الحياة المدنية . وقد اختفت المدينة القديمة في الغرب المسيحي تحت وطأة الأزمات الاقتصادية وانزوى والعبث بالأمن العام . وهذه القشرة التي شهدت انحصار الملكيات الكبيرة وساد الاقتصاد فيها الطابع الريفي ، ستصبح المدن أثناءها مجرد حصون وملاجئ ضيقة يأوي الناس إليها للدفاع عن أنفسهم . فإن البربرية وأشكال الحياة الريفية ، تنتشر بحيث تشمل

جميع أنحاء الغرب المسيحي تقريبا . وكانت هذه الفترة أيضا ، هي الفترة التي انتشرت فيها أساليب حياة البدو الرحل في أفريقية الشمالية .

وأما منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط البيزنطي ، فمن أبرز خصائص الوضع الذي يسود فيها الفسق المزاييد الذي يتسم به تداول النقد ، وتقلص التبادل التجاري الذي خافت دائرته وأصبحت لا تمتد على نطاق المدن الثلاث : الاسكندرية ، وأنطاكية ، والقسطنطينية ، وانكماش سوق الخدم من البيد ، وأخيرا تمتاز بجمود النشاط في المدن ثم تدهور هذا النشاط . والجود والتصلب الذي يعاني منه الاقتصاد المصري ، كما تدل على ذلك أوراق يردى ، سرعان ما مى سورية وآسية الصغرى التي سيشتر فيها أيضا لبط الحياة الريفية وقد انحصر النشاط في هذه المنطقة في المدن الكبيرة التي أسست في العصر الهليني ، مثل الاسكندرية وأنطاكية ، أو في بعض المدن التي أسسها قسطنطين ، مثل القسطنطينية . والحقيقة أن هذه المدن ، هي أشبه ما تكون بجزر منتشرة في بحر الحياة الريفية .

وأما امبراطورية الساسانيين التي شهدت تداولاً نشيطاً للنقد الذي يقوم على أساس الدرهم الفضي ، وكسبت رعيها كثيرا من الذهب وتولدت فيها اليد العاملة واعتمدت نظاما للتجارة مفتوحا على المحيط الهندي ، فقد شهدت تقلص هود كبار ممالك الأرض « الدخقان » وتدهيم الازدهار العمراني في المدن الكثيرة التي أنشئت حديثا .

وكثير من هذه المدن الحديثة ينتهي اسمها بكلمة « آباد » التي تطبق على أرض معمورة مزدهرة عمران .

وهكذا نرى أن سرعة النشاط وحدة حركة تعمير المدن يتناقض كلما
سرفا من الغرب الى الشرق ، بحكم تفاؤل رؤوس الأموال من
الذهب ، ونفوة اليد العاملة التي تكون خصوصا من العبيد ، وتقلص
العلاقات التجارية العامة .

وبقيام العالم الإسلامي (في القرن السابع وأوائل القرن الثامن
الميلادي) ، ستقوم كتلة مترامية واسعة ، وسوق تجارية تمتد بين
آسيا الوسطى والمحيط الهندي . وبين السودان والغرب المسيحي الذي
يسيطر عليه البرابرة ، والألغار الروسية الكبيرة ، وهذا الامتداد الذي
يقوم على انقاض المناطق الثلاث السابقة ويوجد بينها : الامبراطورية
الساسانية والممتلكات البيزنطية في سورية ومصر ، وغربي البحر
الأبيض المتوسط البربري ، يتموضع فيه بالخصائص التالية :
تدفق الذهب عليه ، واتساع سوق الرقيق فيه (الرقيق التركي والافريقي
والعسقلي) ، وامتداد شبكة واسعة من طرق التجارة الكبيرة ، من
الصين شرقا حتى اسبانيا غربا ، ومن افريقية السودان جنوبا حتى آسيا
الوسطى شمالا ، وهذه العوامل : ستكون أساسا لازدهار العمران .
عمران المدن الذي شهدته العالم الإسلامي .

ففي الامبراطورية الساسانية القديمة (ما بين نهري دجلة وخراسان)
ستستمر حركة العمران في المدن تلك الحركة التي بدأت في عهد
الساسانيين . ومدينة بغداد وسمرقند رأى ، هي أعظم وأشهر المدن
التي تمخضت عنها هذه الحركة .

وأما ولايات الامبراطورية البيزنطية القديمة (سورية ومصر)
فستشهد انطلاقا الحركة عمران المدن ، توقفت في العهد السابق . ومن
هنا ، لازدهار دمشق ومدينة القسطنطينية ، أو القاهرة القديمة .

وفي ممالك البرابرة سابقا ، في شمالي البحر الأبيض (أفريقية الشمالية وآسيا) ، سيدخل المسلمون نظام المدن الكبيرة مثل القيروان وفسس وقربلة ، وهذه المدن ذات قيمة رمزية في حركة العمران المدنية التي تنتشر من الشرق إلى الغرب .

حركة العمران المدنية بين القرن الثامن والقرن العاشر الميلادي

لغني كل واحدة من هذه المناطق القديمة الثلاث : الشرق الساساني ، سورية ومصر ، ممالك البرابرة في الغرب ، سنحاول إعطاء صورة اجمالية واضحة بقدر الامكان ، ثم نسلط الضوء على مدينة اتخذها مثلا لحركة العمران في المنطقة والمدن التي اخترعها ، هي : بغداد ، والفسطاط « مصر القديمة » ، وقربلة .

امبراطورية الساسانيين :

تشمل هذه المنطقة ما بين النهرين وإيران . قبل ما بين النهرين ، كانت مهدا لحضارة قديمة و « مكانا للمدن » ، كان نبض حياة المدن فيه ، في جميع الأوقات ، مرتبطا بنظام الري في أرض « سواد العراق » الخصبة ، وباتساع نطاق عمليات تجفيف المستنقعات « البطائح » في منطقة تسمح بزراعة المحاصيل التجارية .

وهذه المحاصيل ، التي ستصبح بالكتفالدن بالسكان ، هي القمح والشعير والذرة والأرز ، التي انتقلت زراعتها منذ أحقاب طويلة من الدلتا الهندية إلى منطقة المستنقعات في أسفل نهر الفرات . وأما قصب السكر ،

فقد انتقلت زراعته في وقت متأخر ، في عهد الساسانيين (القرن السادس الميلادي) من الهند الى خوزستان ، أي الى سوزان القديمة ، ثم الى منطقة قارون في جهة تومستار (Tumast).

وأما أشجار النخيل التي أصلها من الخليج العربي ، فإنها لم تصلح زراعتها في المكان الذي تقع فيه بئداد ، إلا بعد أن قام بستاني من البصرة بتكييفها لمناخ المنطقة .

وأشجار البرتقال انما أدخلت زراعتها الى البصرة وعُمان من الهند ، وفيما بعد ، أصبحت تزرع في منطقة بئداد أيضا .

وأهمية الموارد الاقتصادية الزراعية ، أثبتها بوضوح النصوص العربية التي تصل بيناء مدينة بئداد .

وقد كان من نتائج انتشار هذه الزروعات المتنوعة ، الاتجاه السلي الخضراء والتقنيين ليقيموا بأعمال المياه ، وإلى التخصص في فلاحية الحدائق ، ولا سيما في تكييف الزروعات الجديدة للمناخ والتربة .

وإذا كان من الضروري توفير الغذاء للشعب ، فإن توفير الملابس لا يقل أهمية عن الغذاء . والمواد الأولية للنسيج ، كان يوفرها سواد العراق ، من الكتان والقطن الذي جاء من شواطئ الهند وصلحت زراعته في أعالي ما بين النهرين ، وفي حوض الخابور الكبير . وزراعة القطن ترتبط بزراعة قصب السكر ، من حيث أن كلا محصولين يتطلب يدا عاملة وفيرة ، خصوصا ، من العبيد السود « الزنوج » الذين يستوردون من شواطئ افريقية الشرقية . وهذا الارتباط للكتان والزوايا ، مشهود فيما بعد على شتاف البحر الأبيض المتوسط ، ثم في جزر أمريكا .

وأخيرا ، يقتضي الأمر بناء المساكن . ومادة البناء الأساسية ، هي الطين الذي يجفف بحرارة الشمس ويكوى في الأفران (2) وقد كانت لدى بغداد موارد كبيرة ومتنوعة من الطين . ومن الطين (غير المكوية) بنيت أسوار المدينة .

وأما قنوات المياه والجاري ، فتستعمل لبنائها الطين المكوية .

والطين المكوية المطلية بالدهن الصيني اللامع ، وباليناء ، تصنع منه أواني الفخار والخرف ، وملاء الحيطان ذي الألوان الزاهية الذي اشتهرت به بلاد ما بين النهرين . ولكن الطين مادة غير متينة ، والمدن القديمة التي بنيت بالطين ، أصبحت الآن خرابا بقما .

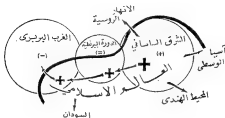
وأما الخشب ، فهو نادر في هذه المنطقة . وأما السفن التي تسير في دجلة والفرات ، فهي تشبه سلات مصنوعة من أغصان مفتولة مطية بالقار الذي يستخرج من منطقة الكرك . وكذلك يقتضي الأمر استيراد الخشب (من أرمينية وسورية) الذي ينقل بواسطة نفوذه على سطح خشبي يسحب ويكسر لدى وصوله الى مقصده . وحتى وقتنا هذا ، لا تزال هذه المسطحات التي تسمى كلكل (Kalkal) بالأرمينية تستعمل للهبوط حتى أسفل ما بين النهرين .

ولكن أنواعا أخرى من الخشب ولا سيما الساج ، تصل الى ما بين النهرين وإلى جميع المدن الواقعة على الخليج والبحر الأحمر ، من شواطئها .

وهكذا نجد أن منطقة ما بين النهرين مزدهرة المدن ، وتعيش على ثروت من التقاليد القديمة ، ولها طريقة خاصة بها للحياة ولتذوق الفنون ،

2 - راجع : الهامش اسفله عن سبالي مدينة بغداد . - المرفعة .

وتملك طرقاً تقنية متقدمة — وهي كلها أمور ذات صلة بالحياة في المدن .
فكيف يكون تأثير العرب في كل ذلك ، يا ترى ؟



الشكل رقم ١١ - تطور المدن قبل ظهور العالم الإسلامي وبعبارة

جاء العرب إلى ما بين النهرين من الجنوب الغربي ، وعن طريق الصحراء التي تمتد حتى نهر الفرات . والعرب سيشيّدون مدتهم الأولى على الضفة الغربية للنهر — الضفة « العربية » — . وهذه المدن تعتمد على الصحراء : حيث تنطلق طرق الحجاج التي تؤدي إلى مكة والمدينة ، عند منتهى مناطق الري ، والسهوب والمناطق الزراعية التي تروى بنباه النهر وقنواته .

وهذه المدن الأولى ، كانت في مبدأ الأمر ، عبارة عن معسكرات محصنة ، ولكنها سرعان ما تصبح مراكز تجارية ، ومدناً كبيرة خاصة بالسكان . فعلى مقربة من الحيرة ، عاصمة الخلفين (3) القديسة ، وقبل

3 - بنو لخم ، أو المظفر ، من قبائل العرب ، أسلم من اليمن ، وحمل يستقيم إلى شمالي جزيرة العرب وسورية وفلسطين والعراق . أسسوا الدولة الفاطمية في الحيرة ، وقد حالت هذه الدولة في حروب متواصلة مع الساسانية ، المنتصرة المسيحية ثم دخلوا في الإسلام بعد الفتح العربي واشتركوا في معركة الرمكة ، ومالين ، وحسنة يزيد بن معاوية على الشجر . « التاريخ »

القادسية (4) ، ستبنى مدينة الكوفة . وعند البداية البحرية لما بين التعرّين على شواطئ البحر . وعند مدخل اليابسة التي تفصل البطائح عن ساحل الخليج ، ستقوم مدينة البصرة .

شيئت كل من مدينة الكوفة ومدينة البصرة في مواقع كانت القرى والأديرة ومعابد النار منتشرة فيها ، ولكن هذه المنطقة لم تهم حتى الآن بأي دور سياسي أو اقتصادي يذكر .

والمدينتان اللتان شيّدتا بعد دخول القوات العربية الى ما بين التعرّين مباشرة ، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، في سنة (637 - 639 م) . ستشهدان ازدهارا سرعا فوامه عناصر السكان المختلطة من العرب والوالي والذمين . وبعد بنائها بثلاثين سنة فقط ، سيبلغ عدد سكان الكوفة أكثر من 100,000 نسمة ، وسكان البصرة أكثر 200,000 نسمة . وهذا نمو قادر المثال في تاريخ تعمير المدن .

ستبلغ البصرة أوج عظمتها في العصر العباسي . فقد كانت البصرة مستودعا كبيرا للتجارة مع المحيط الهندي ، وهي في نفس الوقت ميناء بغداد .

وتخدم البصرة عدد من القنوات المهمة التي تربط ضواحيها بالنهر . وعلى مقربة من باب البصرة الغربي يقع « مريض » محطة القوافل التي تنجّه الى السهوب العربية . وضفة النهر ، كانت مركزا للأعمال التجارية ومحورا لحياة ثقافية تدور حول المسجد ومكتبات المدينة العديدة .

4 - مواقع بالعراق غربي النجف، على بعد 18 كيلومترا من الكوفة ، فيه وقعت الحزيمة العباسية سنة 15 هـ بين الجيش العربي بقيادة سعد بن أبي وقاص والجيش الفارسي بقيادة رستم ، وبعد هذه الواقعة التفتت أبواب الامبراطورية الساسانية امام المسلمين . (المرجع)

وفي منتصف الطريق بين الكوفة والبصرة ، شيدت مدينة واسط (ومن هذا الوضع في الوسط اشتق اسم المدينة) في سنة 695 ميلادية .

وكان العجاج بن يوسف الذي أنشأ واسط يستهدف تركيز سيطرته على الكوفة والبصرة . وعلى كل حال ، فإن واسط هي المدينة الكبيرة الثالثة التي شيدت بين النهرين في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي .

ولما قامت الدولة العباسية التي توجت حركة بدأت في حوالي سنة 750 م . في خراسان معقل التقاليد الايرانية ، تركت دمشق العرفانية يولاتها للأمويين ، خصوم بني العباس ، لتبني عاصمة جديدة ، في الشرق . وقد وجد العباسيون في العراق بلدا غنيا بالموارد الطبيعية والتقاليد المدنية ، حيث كان هذا البلد واسطة لنقل التأثير بين العالم السامي والعالم الايراني . وهكذا أصبحت بلاد ما بين النهرين ، من جديد ، مركزا للسياسة والحضارة .

ولما استمر الأمر لأبي العباس السفاح ، لم يختر الكوفة أو البصرة ليتخذها عاصمة له ، حيث أن نفوذ العلويين كان قد توغل في كلتا المدينتين الكبيرتين وانما أزل على ضفة نهر الفرات ، وبالتحديد ، في الهاشمية ، قرب الأنبار (كلمة فارسية من أصل الفريحي معناها : مستودع الحبوب) ، حيث تفصل قناة تجري فيها السفن ، نهر عيسى ، تصل الفرات بدجلة .

ولكن الخليفة العباسي الثاني ، المنصور (5) سيختار الطرف الآخر من نهر عيسى ، عند انفصاله عن دجلة ، لاقامة عاصمته ، بغداد .

3 - عبد الله بن محمد بن علي بن العباس ، أبو جعفر المنصور 158-168 هـ . تولى خلفه بني العباس ، وكان أول من علي بالقول من ملوك العرب ، كان حاكما بالحق والأدب ، متقنا في الفلسفة والفلك ، ولى الخلافة بعد وفاة أخيه « السفاح » ، سنة 136 هـ ، وألى جده بغداد كان أيضا يلقب « الصيعة » و « الزاغة » . دله إيمانه شرع العرب يلقبون ملوك الديولان والفرس ، وقد عدل أول استطول في الاسلام في بغداد ، ولكنه إلاك عليه قتله أبي مسلم الخراساني 137 هـ . « المرجع » .

وأهمية نهر عيسى ، هو أنه كان ملتقى للتيارات التجارية الكبرى بين أعالي الفرات وأسفل دجلة . وذلك لأن الفرات ، بعد ما يمر بالأبواب ، يتحول تدريجياً الى مستنقعات ، حتى يصل الى البطائح ، حيث تنتشر مياهه بشكل يعوق الملاحة فيه . وبالتالي ، فإن أسفل دجلة ، هو أفضل للملاحة (6) .

تقع بغداد عند ملتقى ثلاثة طرق للملاحة النهرية وطريقين يمتدان في اليابسة . وطرق الملاحة النهرية تؤدي الى الشمال في أعالي دجلة ، الى الموصل وإلى أرمينيا ، وإلى الشمال الغربي بواسطة نهر عيسى والفرات ، الى سورية ، وإلى الجنوب الشرقي ، عن طريق أسفل دجلة ، الى الخليج وإلى المحيط الهندي . وأما الطرق البرية فتؤدي الى الشمال الشرقي ، الى إيران ، وآسيا الوسطى ، والصين ، وإلى الجنوب الغربي ، نحو شبه الجزيرة العربية والأماكن المقدسة في الحجاز .

وموقع بغداد ، مثل موقع البصرة ، كان مأهولاً قبل الإسلام فقد كان يوجد فيه قصر محصن في عهد الساسانيين ، وجسر من القوارب يمتد على نهر دجلة وكذلك كانت تقوم في هذا الموقع قرية تتكون من أديرة مسيحية .

واسم بغداد يذكر بأصلها . فالأرجح أن هذا الاسم من أصل إيراني ، « بخ داد » ، أي « هة الله » . وأما اسم حيها التجاري الكرخ ، فهو من أصل أرميني « كركا » ، أي ، السوق . وبغداد قبل الإسلام ، لم يكن لها سوى دور محلي ، مثل كثير من المراكز القديمة التي كانت مأهولة ومنشئ بغداد الحقيقي ، هو المنصور العباسي الذي سيطلق عليها اسم « مدينة السلام » .

6 - داجع التريفة في آخر الكتاب .

بدأ العمل في بناء بغداد في سنة (154 هـ - 762 م) وقد جمع العمال من مختلف المناطق - كان يعمل في وقت واحد 100:000 عامل - وكذلك الفنانون والصناع . وهؤلاء العمال والصناع : هم السكان الأوائل للمدينة الجديدة (7) .

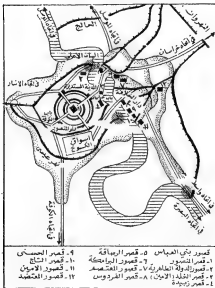
وفي ظرف أربع سنوات ، تم تشييد مدينة مستديرة بانتظام حول قصر الخليفة والمسجد الرئيسي ، وتحيط بها أسوار . وبين هذه الأسوار تنتشر منازل الأفراد ومنازل المقربين من الخليفة . وقد حصنت المدينة بتراس مزود بـ 360 برجاً . وتقطع المدينة أربعة شوارع كبيرة تتجه من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، ومن الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي .

ومداخل المدينة عبارة عن أربعة أبواب أحيطت بسدة تحصينات وخصوصاً بفتق جلب إليه الماء من نهر عيسى ومن دجلة . والتصميم الدائري المتشد لبناء بغداد تصميم مستوحى من الفن الشرقي لتخطيط المدن ويذكرنا بتصميم مدينة شيراز (يزجير ٩) وهو يختلف عن التصميم الهليني القائم الزوايا . وهذا الشكل الدائري أيضاً يجمعنا تفكير في التحصينات المستديرة التي تحاط بها مدن آسيا الوسطى ، وفي التصميمات المستديرة في مدن البرث . ففي مقابل مدينة سيلوسسي ، وهي مدينة هلينية ذات تصميم قائم الزوايا نجد مدينة أكريليون ، ذات التصميم المستدير .

ولكن المدينة المستديرة التي بناها المتصور ، والتي نظمت فيها المتاجر تحت صفوف من الأقواس على طول الشوارع الأربعة المتقاطعة ، سرعان

7 - لمحي ابن سعيد القرني : القرن السابع الهجري « قرر الرواة المتصلة في مباحي بغداد فقال أن سقيا مبنى بالتمص والطوب » والكس واليهي يندعها مواد المدينة فلا يتك القط يقع عليها في جميع مباحيها : والرخام ينشق من المر . الترجيم » .

ما اتضح صغرها وضيقها . وهذا الضيق اضطر المدينة الى التوسع في اتجاهين : نحو الجنوب الى حيث تمتد ضاحية الكرخ : الذي تقع فيه المتاجر . وحيث يمارس الصناع نشاطهم ، ولى الاتجاه الشرقي : وراء النهر الذي اقيم عليه جسر من القوارب لمجرده



الشكل رقم ١٢- بغداد

وفي هذه المنطقة ، بني الحي السكني الذي تتوجه قصر الخليفة « دار الخلافة » . وهذه الحركة لتوسيع المدينة الى الضفة النهر الشرقية ، وقعت ابتداء من سنة 768 ميلادية .

وبعد ذلك بثلاثين أو أربعين سنة ، في عهد هارون الرشيد والمأمون ، استند الرقعة التي تشغلها مدينة بغداد على عشر كيلو مترات طولاً في تسع كيلو مترات عرضاً ، وهو ما يساوي تقريباً حدود مدينة باريس حالياً بشوارعها الخارجية . وهكذا أصبحت بغداد في ذلك العصر ، أعظم مدن العالم .

وفي سنة 836 ميلادية ، ترك الخليفة المتصم العباسي (833 - 842م) بغداد ، وانتقل الى سر من رأى ، التي تقع على مسيرة ثلاثة أيام ، ليتخذها مقراً له ، وهذه الحركة — هجرة ملك العاصمة وخلق مدينة من القصور — تذكرنا بوضع فرساي من باريس .

وهذا التحول عن بغداد يفسره رغبة الخليفة في الابتعاد عن الضغوط والاضطرابات التي يحدثها الحرس الذي يتكون من الأسلاك ، وعن الصخب والجلبة التي تسود في أسواق المدينة وقد ظلت سر من رأى مقر الحكومة خلال خمس وخمسين سنة (836 - 892 م) .

وفي جوار قصر الخليفة ، ستقوم في سر من رأى مدينة مكتظة بالسكان . وفي سنة 892 ميلادية ، قرر الخليفة المتتمد ، للتخلص من ضغط الحرس التركي ، العودة الى بغداد ، الأمر الذي أدى الى توسيع المدينة الى الضفة الشرقية للنهر .

وبداية تدهور مدينة بغداد ، تعود الى نهاية القرن العاشر الميلادي . وهذا التدهور سيبدأ في القرن الحادي عشر ، تحت السلجوقيين الأتراك ولكن وضع بغداد سينهار نهائياً إثر استيلاء هولاكو عليها في سنة 1258 ميلادية .



رومانيا امبراطورية
بالاسود، روما
في القرنين ١ و ٢



الساسانية
في القرنين ٢ و ٣



بازيس في نهاية القرن ١٨
(بالاسود، باريس في القرنين ١٠ و ٩)



بغداد في القرنين ٩ و ١٠

شكل المسكن

الشكل رقم ١٣ - المسكن المقارنة لروما والساسانية وبازيس وبغداد
خلال الفترة بين القرنين ٩ و ١٠

ولكن حركة بناء المدن وتعميرها لا يقتصر في بلاد ما بين النهرين على مجموعة بغداد - سر من رأى حيث أنها تشمل أيضا المدن الموجودة في عصر الساسانيين ، والتي تشهد اتساعا في الرقعة وتوسعا اقتصاديا وبشريا . فمن المدن التي شملتها هذه الحركة في خوزستان (عربستان حاليا) ، هو بلد قديم اشتهر بسدوده الكبيرة وبوسائل الري التي سمحت بانتشار زراعة قصب السكر والقطن فيه ، تشر ، وسوس ، والأهواز .

وفي أعالي ما بين النهرين التي اشتهرت بزراعة القطن ، وفي حوض
الخابور الكبير ، نجد أن من المراكز التي شملتها حركة تعمير المدن ،
مدينة الموصل التي عرفت بمسوحاتها الحرة والقطعة الفاخرة (التي
أخذت منها كلمة موصلين (Missalline) باللغات الأروية) ، وبصناعة
النحاس التي تستعمل المعدن الذي يستخرج من أرغانا ، في أعالي دجلة .

والى جانب بلاد ما بين النهرين ، كانت أمبراطورية الساسانيين تشمل
أيضا إيران ، وهي بلاد ذات اتصال يختلف المالك . فايران على اتصال
ببلاد الطوران (8) ، بلاد السهوب التي يجوبها الرحل من قبائل الآرال
والأنطاي التركية . فهذا العالم لا يعرف المدن ، إذا استثنينا مدن الآخرين
التي يحلم الطورانيون في فتحها واحتلالها فالترك الرحل يواجهون المدن
الآيرانية تماما كما يواجه العرب الرحل المدن السورية ومدن ما بين
النهرين وهنا أيضا سيسبق تسرب الإثراك مرحلة النزوات التي ستبدأ في
القرن الحادي عشر الميلادي .

وإذا توغلنا في الاتجاه الشرقي ، فنجد أن إيران على اتصال ، عن
طريق سلسلة من الواحات ، بالحضارة الصينية : ففي هذه المنطقة يمر
« طريق الحرير » الذي يقضي الى مناطق يقطنها سكان مقيمون يعيشون
على الزراعة .

ومن جهة الجنوب الشرقي ، تتصل إيران ، عن طريق مصر بأمير
(Pamir) الجبلي والهند والكنش ، بالهند ، وهي ذات حضارة
قوامها سكان يعيشون على الزراعة .

وأبرز خطوط الخريطة الآيرانية ، ليست هي الأنهار ومجاري المياه ،
كما هي الحالة في بلاد ما وراء النهر ، بل هي طرق القوافل التي تربط

8 - اسم منطقة الجغرافيون العرب على منطقة في بلوخيستان . «المرج» .

هذا البلد بآسيا الوسطى والتي تخترق أطراف البلد . والتفتح العربي الإيراني ، سيكتسي طابعا خاصا يختلف عن الطابع الذي تلاحظه في مناطق أخرى . فبينما نجد العرب في بلاد ما بين النهرين يمتزجون بسرعة بالسكان الساميين أو المتأثرين بالقوميات السامية والذين يتحدثون اللغة الآرامية ، نلاحظ أن إيران ، ستقاوم النفوذ العربي الإسلامي بثراتها الدينية القديمة : عبادة النار ، وديانة زرادشترا التي كانت متأثرة بالبوذية والمآونية .

ولنحسب أننا ، كيف أن البرلمنة الذين شغلوا مناصب الوزارة تحت الخلفاء العباسيين الأوائل ، ينتسبون إلى أسرة من الأمراء في بلخ ، وكانوا يخدمون ديرا كبيرا للبوذيين يقع في « نوجار » « أو الدير الجديد » ، وهو اسم من اللغة السنسكريتية مشتق من فهارا (Vihara) « دير » ، وكانوا يسمون « بومك » ، أي الكهنة .

وهذا التحليل لوضع إيران القديم يسمح لنا بأن نفهم كيف أن إيران ، لما اعتنقت الاسلام ، اتخذت الاسلام فيها شكلا خاصا ، وهو مذهب الشيعة . وإذا كان كثير من الكتاب باللغة العربية من أصل فارسي ، فإن هذه الظاهرة لم تحل دون بقاء اللغة الفارسية على قيد الحياة ، ثم انبعاثها خلال القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر .

كان الغزاة العرب في مبدأ الأمر ينزلون في أحياء جديدة تقام بجانب المدينة القديمة . وهكذا الحق بالمدينة (شهر ستان بالفارسية) ، رضى (بيروم الفارسية) ، يشتمل على حصن ومسجد وسوق وقد نشأت مدن مزدوجة وفي بعض الحالات تمايشت مدينتان متوازيتان أحدهما قديمة والأخرى حديثة ، لا تبعد أحدهما عن الأخرى إلا ببضع كيلو مترات (مثل بلخ وبروقانا وبخارى وسمرقند) .

وفي مرحلة تالية ، (في عهد العباسيين) ستندمج هذه المدن المتوازية في مدينة واحدة وتصبح « شعورستان » مركزا للسلطة وتشتمل ، هي الأخرى ، على مسجد كبير وسوق . وهذا معناه ، تحول العرب الفزاة نحو المراكز المدنية الفارسية الأصلية .

ونمو العمران في المدن ، يفترض توفر وسائل الري (مثل الطرق التقنية المعقدة التي تمثلها قنوات الري التي تنشق تحت الأرض) . ومن جهة أخرى ، فإن تنظيم الدفاع ضد غارات الأتراك الرحل يتطلب إنشاء مراكز عسكرية ، « الربط » وبناء أسوار حول المدن الكبيرة وضواحيها المزروعة لحمايتها ولحماية قرى المزارعين . وهكذا نجد أسوارا محصنة على مئات الكيلو مترات تمتد بين بخاري وسمرقند وبلغخ — تلك الأسوار التي تذكرها بأسوار هي أقوى وأعظم ، بناها الصينيون لصد غزوات نفس الطورانيين الأتراك .

واتساع العمران في إيران ، كما في غيرها من البلاد ، يرتبط بازدهار التجارة في العصر الإسلامي ، تلك التجارة التي كان يدارسها كبار التجار الذين يكسبون ثروات طائلة من تسيير القوافل .

والمدن المزدهرة العمران ، هي المدن ذات المواقع الملائمة للتجارة : فإن سمرقند مدينة تدعى بازدهارها لموقعها الذي تسيطر منه على ملتقى طرق القوافل الآتية من الهند ومن إيران . وبروثولد (Bernhold) ، يقدر عدد سكان سمرقند في عهد السامانيين (القرن التاسع والقرن العاشر الميلاديين) بحوالي نصف مليون نسمة (9) . وقد كان بناء سمرقند شامخا عظيما حيث كانت تحيط بها أربعة أسوار تضم على التوالي : جميع منطقة الواحات المزروعة (الحائط الطويل) ، والضواحي والمدينة (الحائط

9 - ١٠٠ : Turkistan down to the Mongol invasion, 2^e ed. London 1928 (Gibb memorial series. New ser. V), p. 22.

الأكبر الذي يفتح منه بابان) ، وقلب المدينة (شهرستان) ، الذي تنفذ إليه أربعة أبواب وأخيرا ، مركز المدينة ، أو القلعة . وهذا التصميم يذكرنا بتصميم مدينة بغداد . وتمتد المدينة بملاء شبكة معقدة من القنوات . وأما شوارع المدينة فهي مفروشة بالحجر ، ومزينة بالفوارات والأحواض المصنوعة من النحاس ، مما يشهد بقرب مناجم النحاس من المدينة وبعبقرية الفنانين الذين يعملون في هذا المدن .

وفي المدينة حدائق عمومية ، تقوم فيها أشجار السرو التي يقول ابن حوقل إنها تشذب بطرق غنية تمثل أشكالاً غريبة : الجياد ، والثيران ، والجمال والحيوانات الوحشية التي يواجه أحدها الآخر ويحترس منه ثم يدخل في قتال معه .

وهذه موضوعات غنية تذكرنا بطراز الفن السائد في السهوب .

ممتلكات البيزنطية القديمة :

تشمل الممتلكات البيزنطية التي فتحها المسلمون : سورية ومصر .

لنبدا أولا ، بسورية . يمكن تقسيم المدن السورية الى ثلاث فئات : أولا ، المدن الداخلية التي كانت في حالة تدهور في العهد البيزنطي ، والتي سبغت وتذب فيها الحياة في العصر الاسلامي ، بفضل الدور الذي تقوم به كمحور للاتصالات مع بلاد ما بين النهرين .

وكاليا ، الموافي ، التي احتفظت بنشاطها في عهد بيزنطة ، وستشهد حدة في هذا النشاط في العهد الاسلامي .

وأخيرا ، المدن الواقعة على الحدود السيليسية والتي تسيطر على سرات جبال طوروس ، وستدخل ، باستقرار الأوضاع على الحدود ،

في عهد من السلام : فأما المدن التي تهدمت نتيجة لهجمات البيزنطيين
المضادة ، فسيعاد بناؤها في العصر العباسي ، وذلك في الوقت الذي
انضمت فيه حصون جديدة في المنطقة .

تعتبر دمشق نموذجا لطراز المدن الداخلية ، التي تمثل واحات على
خفاف لهر بردي الذي ينبع في سهول الزبداني . وهي عبارة عن سوق
يجري فيها التبادل التجاري بين البدو الذين يجوبون السهوب الصحراوية
(بادية الشام) . ودمشق مدينة آرامية قديمة أصبحت نواما لمستعمرة
بناها اليونان في العصر الهليني ، وقد كانت تمون الجيوش الرومانية
بالقمح .

وفي عهد بيزنطة انحط وضع دمشق وتدهور عمرانها ، حتى كان
البدو يتجنبون ضواحيها . ولكن المدينة تبتث وتزدهر فيها الحياة من
جديد ، حينما وقع اختيار بني أمية عليها لتكون عاصمة للحكم . وقد
كان دور دمشق الأساسي ، مثل الكوفة ، السيطرة على الحضر دون
قطع العلاقة مع البادية . وكذلك كان خلفاء بني أمية يحرصون على
الاستمتاع بما توفره المدن من وسائل الراحة واللوان التسلية التقليدية
التي توفرها الصحراء ، مثل الصيد .

أقيم المسجد الكبير ، وإلى جانبه قصر الملك « الخضراء » في قلب
المدينة القديمة التي لن تلبث أن تحاط بمدد من الأحياء والضواحي التي
ستصبح مسرحا لنشاط كبير .

وكان خلفاء بني أمية قد عصبوا إلى إعادة اشتقاق القنوات من بردي
ولحوليها ، وإلى إعادة توزيع الحقوق في الماء في جميع هذه الواحة .
وهذه السياسة ، كان من نتائجها زيادة المساحات المزروعة وظهور قرى
جديدة انتشرت فيها زراعة البقول .

وفي أوائل القرن الميلادي ، أضيفت بنايات عظيمة جديدة الى المسجد الأموي الذي أصبح يعرف بجامعة الأمويين . وقد استخدمت في حركة البناء يد عاملة استجلبت من مختلف المناطق ، كما استعملت السفهاء المحلية والسفهاء المستوردة من بيزنطة .

وكذلك نجد أن عصر ازدهار دمشق هو العصر الذي كانت فيه عاصمة الخلافة — خلافة بني أمية . ولما استولى عليها العباسيون في سنة 750 ميلادية ، هدموا أسوارها واندثروا على حرمه قبور بني أمية . وأثر ذلك تدهورت دمشق وانحطت الى مستوى مدن الريف . ومع ذلك ، بقيت سظل مدينة خاصة بالسكان ومركز النشاط للاتجاج الزراعي وللصناعات اليدوية . وسيظل يرقوق دمشق وعينها وممشيها ، فواكه ذات شهرة خاصة . وكذلك الرمي التي كانت تصنع من هذه الفواكه وتصدر الى الأقطار البعيدة . ونفس الشهرة سيشتهر بها الفولاذ والنحاس المصنوع في دمشق (الدمشقي) ، وكذلك الأثاث الدمشقية التي تصنع من الحرير والقطن .

والى جانب دمشق ، ينبغي أن نذكر مدينة القدس ، التي هي مركز ديني وتعيش خصوصاً على نشاط الحج ، حيث كان يقصدها اليهود والمسلمون والمسيحيون . وكذلك ينبغي ألا تنسى الإشارة الى حصن وحياة الواقعتين في وادي الماصي ، وخصوصاً الى الطائفة وطب .

ومن أهم موانئ سورية ، ميناء السويدية وميناء انطاكية واللاذقية وأما الموانئ القنيقية القديمة : طرابلس ، وجبيل ، وصيدا ، وصور ، وعكا ، فستبفتح فيها الحياة ويسري فيها النشاط في العصر الاسلامي . وستبنى لها أرصفة جديدة وحواجز لصيد الأمواج . وقد شهدت تقنية البناء والتشييد تحت مياه البحر تقدماً كبيراً يشهد به وصف الجغرافي العربي ، المقدسي ، عند وصفه لميناء عكا في القرن التاسع الميلادي .

وأما المدن الواقعة على الحدود السورية ، فهي تعرف باسم «الثغور» وحراسة ممرات طوروس التي تتطلب حملات عسكرية متوالية كان العامل الأساسي في قيام هذه المدن والحصون ، تدمير ثم تبنى ويجعلوا عنها السكان ثم تعمّر من جديد . فهذه المدن مراكز كبيرة للاستهلاك ، لأن أسواقها التي تمون الجيوش ، في حاجة دائمة إلى الرجال والخيل والمواد الغذائية والملابس والأسلحة ومواد البناء . والميزة الأخرى التي تميز هذه المدن : اختلاط العناصر فيها . فقد كان يتمايز فيها جنبا إلى جنب زعج وسقالية وإيرانيون وأرمينيون وغير هؤلاء من الأجناس . وحياة الحضر في طرسوس وأطنه ومصيفة ، تكتسي طابعا خاصا . وهنا أيضا ينبغي أن نسجل حركة مهمة للتوسع العمراني ، امتدت على الأقل ، حتى النصف الثاني من القرن الماخر الميلادي ، وهي الفترة التي كان الامبراطور نيسفور فوكا (Nicephore phocas) يشن فيها حملاته في هذه المنطقة .

وفي مصر التي تشكل الجزء الثاني من الممتلكات البيزنطية نستطيع أن تتبع ، بفضل أوراق البردي ، تفاصيل التطورات التي تلت الفتح الاسلامي لهذا البلد . ففي المرحلة الأولى تساعد ببطء في عملية امتداد أساليب الحياة الريفية إلى المدن — تلك العملية التي بدأت في أواخر العهد البيزنطي . وفي المرحلة التالية نلاحظ توقف هذه العملية .

فإن الفتح الاسلامي سيحل نظاما اقتصاديا يقوم على تبادل تجاري واسع النطاق ، محل نظام اقتصادي لم يصبح بعد ريفيا خالصا ، ولو أنه يتجه إلى ذلك . وهذا التغيير في النظام الاقتصادي الذي تشهده به المعلومات المستقاة من الجغرافيين والسياح ، سيرافقه ، بطبيعة الحال ، ازدهار العمران في المدن — ذلك الازدهار الذي تستطيع إعادة تركيبة بفضل الآثار التي اكتشفها المنقبون ، وبحليل الوضع الطبوغرافي الذي تحتله مدينة القسطنط (القاهرة القديمة) التي بنيت على ترات متعاقبة .

كانت تحتل موقع القسطنطينية قبل العصر الإسلامي ، مدينة صغيرة
اقرقية رومانية تسمى بابليون : وموقع هذه المدينة ، هو الحي الذي
يحمل في الوقت الحاضر اسم « قصر الشام » في القاهرة القديمة . واسم
بابليون ، مشتق من اسم محلي مصري أعمله العرب ، ولكن الاقباط
ظلوا يستعملونه . والكلمة تهجا بطرق مختلفة « بابليون » و« بابلوان »
و« بابلونية » في الوثائق الأروبية القديمة التي تذكر القاهرة بهذا الاسم .

ومهما يكن من شيء ، فإن بابليون مصر ، عبارة عن قلعة وموقع
استراتيجي عند افتتاح دلتا النيل ، فهي تسيطر على الطرق المؤدية الى
سورية ، والطريق المؤدية الى الغرب نحو اقرقية والمغرب والتي تتجنب
مروحة الدلتا التي تعوق المسافرين بأذرعها الكثيرة والقنوات العديدة
التي تتفرع عنها . وعلى العكس مما يصادفه المسافر من الصعوبات اذا
أخذ طريق الدلتا ، فهو هنا يقطع عند جزيرة الروضة ، نهر النيل عن طريق
جسرين مصنوعين من القوارب . ومن جهة أخرى ، فإن قناة تطلق من
هذا الموقع في اتجاه البحر الأحمر انغفلت أسماء متعددة في مختلف العهود
كانت تسمى نهر تراجان (Trajan's Arm) عند الرومان ، وتسمى
« خليج أمير المؤمنين » في العصر الإسلامي .

والى جانب هذه الطرق ، ينبغي أن نضيف طريقا نهريا في النيل يستد
من الشمال الى الجنوب ، ويربط مصر العليا بالدلتا

وموقع القاهرة ، على التحديد ، يتكون من ضفة منخفضة يسلمها
الطمي وهي عبارة عن سهول تمتد حتى جبل المقطم الذي يسمى جبل
يشكور . وكانت توجد في هذه السهول بعض المستنقعات « بركة »
التي جففت فيما بعد ، وأصبحت مناطق صالحة لانتاج البقول .

والقاهرة ، من الناحية التاريخية ، عبارة عن عدة مدن متتالية فيمد
بابيلونا ، أنشئت مدينة القسطنطينية ، التي تولدت عن الفتح الإسلامي .

بنى عمرو بن العاص (10) قائد الجيش الاسلامي الذي فتح مصر مدينة القسطنطين في سنة 641 ميلادية . وقد اتخذت هذه المدينة التي تقع في شمالي المدينة القديمة في مبدأ الامر شكل معسكر . وكلمة القسطنطين كلمة معربة من فوساطون (Ips-Posuion) فوساطيم (Latin-Favatum) ومعناها : خيمة عسكرية ، أو على الأرجح ، خندق دفاعي . وتاريخ القسطنطين ، شاهد واضح الدلالة على تطور معسكر وتحوله الى مدينة .

ظلت الادارة العامة والأعمال الكتابية باللغة اليونانية التي يقوم بها الأباطرة ، حتى القرن الثامن الميلادي ، في بابليون . ولكنه في عهد عبد الملك ، وقع تغيير حاسم ، بإدخال اللغة العربية الى الادارة وبظهور النفوذ الاسلامي . وكذلك قام مركز مدني اشتمل على مباني عمومية في القسطنطين . وكذلك بنى مستودع ودار للصناعة وميناء وغير ذلك من المنشآت التي تشهد بانتشار نمط الحياة السائد على سفان النهر وتبرز القاعدة الأولى التي بناها عمرو بن العاص والتي كانت تشتمل على مسجد كبير (مسجد عمرو) ، وقصر الحكومة « دار الامارة » ، وسوق .

وفي سنة 749 - 750 ميلادية ، بنيت مدينة جديدة في شمالي القسطنطين أنشأها قواد بني العباس الذين يلاحقون آخر خلفاء بني أمية . وهذه المدينة التي تسمى « المعسكر » تشتمل ، هي الاخرى ، على قصر الحكومة ومسجد بني بجانب سوق .

10 - عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرظي ، أبو عبد الله (50 ق . هـ - 43 هـ) أحد كبار القواد وفتحهم ، كان شديدا على الاسلام في الجاهلية وبعد ما أسلم في عدة المدينة ، ولاه النبي صلى الله عليه وسلم إدارة جيش « طائفة الشمال » ثم استعمله على مصر . وقد كان من أفراد الجيوش في الجهاد بالمشام في عهد عمر . وهو الذي افتتح قسريين وممالك أهل حلب ودمشق والهاكبة ، ولاه عمر لمصرين . لم يصر التي اقتسمها ، وحزله طعان ، ولا قامت الفتنة بين علي ومعاوية . وقد في جانب معاوية . ولا انتصر معاوية ولا مصر في سنة 38 هـ . « المرجع » .

وفي سنة 872 ميلادية ، قام ابن طولون الذي كان واليا لبني العباس اسما ، ولكنه مؤسس سلطنة محلية مستقلة ، ببناء قصر عظيم عند قدم جبل القطم ، ثم في سنة 875 م ، بتشييد مسجد كبير على جبل يشكر ، وهذا المسجد بني بأسلوب معماري متأثر بالقرن الذي يسود مباني سمراء الذي كان هو الآخر متأثرا بالقرن الزيجوري القديم الذي كان سائدا فيما بين التهرين .

وكذلك بني ابن طولون ملعبا للخيول « ميدان » تمارس فيه لعبة رياضة على متن الخيل بفسطاط طويلة وكرة خشبية (البولو) .

وقد كمل هذه المنشآت العمرانية بإجراءات بتوزيع الأراضي بين ضباط الجيش والحاشية . ومن هذه الإجراءات بقيت لدينا كلمة « القطاعي » ، أي التنازل عن قطع الأرض للمدينة الجديدة .

وأخيرا ، ظهرت القاهرة في عهد الفاطميين الذين غزوا مصر من شمال الغربية عن طريق الواحات .

وقد شيّدوا المدينة الجديدة في شمال المنشآت القائمة ، فبنوا جامع الأزهر (في سنة 972 م) ، وأطلقوا عليها الاسم الذي نحتله اليوم « القاهرة » . وفي غضون السنوات التالية ، تشيّدوا المدينة لسوا وأزدهارا كبيرا ، خصوصا بما اشتملت عليه من المباني الرسمية . وتشهد القاهرة أعظم عهدها خلال الفترة بين القرن الحاشي والقرن الحادي عشر الميلادي ، وهي الفترة التي وسعت فيها مبانيها حتى أصبحت تتصل بالقطاعي ، وكان سكان المدينة حينئذ يبلغ عددهم نحو 500,000 نسمة .

ولكنه ابتداء من النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، أخذت الحياة العمرانية في المدينة تتدهور ، اثر الاضطرابات التي وقعت في عهد المستنصر (1035 - 1094 م) وكانت الحاجة التي وقعت في القاهرة

في سنة 1054 م . ولهب الجنود قصور الطاطيين في سنة 1060 م . من الحوادث العاسفة في تاريخ انحطاط القاهرة . وبعد ذلك ظهر ما يعرف باسم « الخراب » . أي تحول مناطق طامة الى صحراء ، وأخذت الشقة التي تفصل بين القاهرة والقسطاط تزداد اتساعاً مع مرور الزمن ، حتى وقع حريق في سنة 1168 م ، خرب القسطاط . ومنذ ذلك الحين تركز مصير المدينة في القاهرة الحقيقية ، عاصمة البلاد .

معالم الغرب الخاصة للبرابرة :

تشمل هذه المعالم ، افرقية الشمالية واسبانيا وصقلية .

شهدت افرقية الشمالية التي تشكل الجزء الاول من هذه المنطقة خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، توغر الشروط العامة الضرورية لقيام حركة مهمة لتجديد العمران في المدن . وقد عرفت هذه الفترة ازدهاراً كبيراً يقوم خصوصاً ، على تجارة العجور (الترازيت) بين الاطراف الغربية للامبراطورية والشرق الاسلامي وبين اسبانيا وصقلية البربر للصحراء ، وفتح اسبانيا ، وفتح جزيرة صقلية في عهد الأغابة ، والملكة الاسلامية والسودان والصحراء ، وعلى تجارة المور (الترازيت) عبر الصحراء . وفي مقابل ما تلقاه افرقية الشمالية من السلع ، كانت تفسن تودخل أنماط الحياة المدنية من شمال الصحراء (سجناسة وورجلة ، ونزاب) حتى شفاف نهر التيجر .

وقيام مدن مثل قاس والقيروان ، يتصل اتصالاً وثيقاً بهذه الواجهة الجنوبية لتجارة الغرب ، وبازدهار محطات القوافل التي تقع على طرق الذهب والعبيد .

بعد نجاح غزو افرقية الشمالية ، على الرغم من مقاومة البربر في الداخل ، أنشأ عقبة بن نافع مدينة القيروان في سنة 670 ميلادية . وكان تخطيط المدينة على اساس كونها مدينة دفاعية ، كما يدل على ذلك

اسمها . وقد قامت القبروان في موقع استراتيجي هام ، عند مدخل الصحراء ، وعلى طرف السهوب و « الشطوط » التي تمتد في جنوب تونس .

والقبروان تسطر — مثل الكوفة ، ودمشق ، والقسقاط — على طريق كبيرة تمر بالواحات ويمكنها متى أرادت حمايتها أو قطعها وطريق الواحات هنا ، هي التي تمتد الى مصر .

استولى الخوارج خلال الثورة التي قاموا بها في منتصف القرن الثامن على القبروان عدة مرات وهدموا أسوارها . وفي سنة 772 م ، أعيد بناء السور الذي يحيط بالمدينة ، كما أعيد بناء مسجدها . وإعادة بناء المنشآت المهمة في المدينة كان ، كما يقول المؤرخون ، مقدمة للتوسع الكبير الذي شاهده في عهد الأغالة « 800 — 909 م » . ففي هذا العصر سيقام عدد من الخزائن والصهاريج التي يمدّها بالماء خط من القنوات يمتد على 25 كيلومتر . وكذلك أعاد الأغالة بناء مسجد القبروان الذي أصبح ضيقا — وهو دليل ، كما هي الحالة في دمشق وقرطبة ، على كثرة سكان المدينة . وفي نفس الوقت ، أُنشئت في ضواحي المدينة كثير من مراكز العمران ، وهي عبارة عن سلسلة من المدن المجهزة للسكن والقصور التي سرعان ما زودت بأسواق وأصبحت عامرة .

وفي سنة 800 — 801 م ، بني في الجهة الجنوبية الشرقية « القصر القديم » أو « العباسية » — باسم الخليفة العباسي — حيث استقبل سفراء شرلمان . وهي عبارة عن مدينة جديدة كبيرة أحيطت بأسوار وكان لها خمسة أبواب وجهزت بالحمامات والفنادق والأسواق ، وشيد فيها مسجد على غرار مسجد سر من رأى ، وزودت بملعب للرياضة على متن الخيل . وعلى الرغم من أن الأمراء هجروها في سنة 877 م ، فإن العباسية ظلت مدينة عامرة .

وفي سنة 876 - 877 م ، شيدت مدينة جديدة . بقيادة ، في الجنوب الغربي من القيروان ، التي يبلغ قطرها أكثر من عشر كيلو مترات . وقد جهزت المدينة بفضاء واسع من الحدائق والجنة والميادين العمومية .

ولما سقطت دولة الأغالة عقب استيلاء الفاطميين على القيروان ، قام جيرانها من سكان القيروان بنهبها حشدا لها وغيرة منها .

وفي سنة 948 - 949 ميلادية ، أنشأ الفاطميون مدينة ثانية في شرق القيروان ، وهي صيرة التصورية ، باسم المنصور الفاطمي ، اثر وقوع ثورة في مدينة القيروان . وكان لهذه المدينة خمسة أبواب ، وكان دخل كل باب منها 26 ألف درهم من الرسوم والكوس في اليوم .

وكما حدث في سر من رأى ، فقد ترك الخليفة عاصمته الفسطاط ليلجأ الى مدينة في الفواحي ، التي كانت في بداية الامر مدينة قصور ، ولكنها لم تلبث هي الأخرى ، أن أصبحت مدينة تجارية . ولكن صيرة ستدمج في مرحلة تالية في القيروان وبشملها سور هذه المدينة الذي وسع محيطه . وهذا مثال لتعدد المدن نتيجة لتضخم العاصمة ، ثم ضم مدينة الفواحي الى المدينة الرئيسية ، كما حدث للفسطاط ولقرطبة .

ومدينة قاس ، مثال بارز لادخال حضارة تعتمد على المدن من النوع الشرقي ، الى مجتمع بربري يقوم على نمط الحياة السائد في الأرياف . وهذه المدينة التي تمتاز بأسوارها وأحيائها وصناعاتها وبوجود طبقة حضرية فيها « القاسي » تضم سكانا يتسمون الى أصلين مختلفين : المهاجرين الذين أبعدها من قرطبة عقب ثورة قام بها سكان أحد أحيائها ، والمهاجرين القيروانيين الذين كانوا وقتا ما يشكلون حرس أمراء إفريقية ثم تخلص هؤلاء منهم فيما بعد .

وهكذا انقسمت المدينة التي قامت على وادي فاس الى ثلثين . عدوة
الاندلس ، وعدوة القرويين ، لكل منهما مسجد كبير وأسواق : بل ودوار
لصك النقود .

وسحر مدينة فاس ، يعود ، خصوصا ، الى توفر الماء بغزارة فيها .
فان القنوات العديدة المشتقة من وادي فاس ، تنوغل مياهها الى كل منزل
من منازل المدينة ، ذات الصحن الواسعة والثروة بالنبات والرياحين

وشوارع المدينة مبلطة . وكل يوم ، كما يقول الجغرافي ابن حوقل
(القرن العاشر) ، تطلق مياه نهر فاس على أسواقها لتفصل الأرض
وتنعش الجو . وكذلك تجري المياه في عشر حمامات عمومية وتسير
ثلاثمائة طاحونة . وقد شهدت فاس نموا سريعا ، فكان عدد سكانها
في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر يبلغ 100,000 نسمة .

وهذه هي الفترة التي يرجع اليها تاريخ البصرة التي تقع في شمال
المغرب الأقصى . وهذه المدينة غدت آكارها ولم تبق يد الدهر منها الا
على بعض أجزاء سورها . وأسوار البصرة مبنية بحجارة خفيفة ومزودة
بأبراج شبه مستديرة . وهذا النوع من الأبراج من مميزات الفن العباسي،
وقد وصل الى المغرب الأقصى عن طريق مصر والخرقبة .

ومن المدن الأخرى التي شيدت في هذا العصر ، مدينة وجدة التي
بنت في سنة 994 ، وإبنلي التي بنت في القرن التاسع الميلادي في
السوس الأقصى . وهذه المدينة ترتبط بسحطات القوافل التي تسير عبر
الصحراء . وأخيرا ، مدينة مراكن التي شيدها المرابطون الذين جاءوا
من الجنوب .

وهذه المعالم التي وضعت في أزمنة متقاربة ، ذات دلالة هامة في
تاريخ العمران في المدن الإسلامية . وهي تعطينا فكرة واضحة عن التجديد

الذي لحق الحياة في المدن وعن ازدهار العمران فيها . وهذا الازدهار ، يتصل ، بطبيعة الحال اتصالا وثيقا بحددة العلاقات التي تربط المغرب بالشرق والاندلس وصقلية ، وبخصوصا ، بافتتاح آفاق جديد للتجارة مع بلاد السودان ، عالم الذهب والعبيد ، عن طريق الصحراء .

ومن جهة أخرى ، فإن ازدهار العمران في المدن ، يرتبط بتوسع ديموغرافي قوي ، فقد كانت بلاد البربر في العصور الوسطى العليا مستودعا للاحتياطي من الرجال ، كما يشهد بذلك استثمار أصحاب الجبال من البربر للصحراء ، وفتح اسبانيا وفتح جزيرة صقلية في عهد الأغابة ، ثم غزو مصر وسورية في عهد الفاطميين بجيوش من أصل بربري .

ولم حركة العمران في المدن في اسبانيا ، بخفض نفس الاعتبار العامة ، مع تحفظ واحد ، وهو أن قائمة المدن التي شيدها المسلمون أقل طولا ، ولزدهار العمران فيها يقوم على النمو المعتبر الذي شهدته مراكز العمران القديمة التي انبثت الحياة فيها بعد أن تضعفت وتوقفت نشاطها في عصر البرابرة . وفي مقدمة هذه المراكز مدن الشاطئ الجنوبية التي يرومها النهر الأعظم (Guadalquivir) وهي قرطبة ، واشبيلية ، وقادس ومالقة ، والمدن الواقعة على نهر التاج ، طليطلة ، وأشبوغة (لشبونة) ، ومدينة إبرة ، سرقسطة .

وكما سبق أن ذكرنا ، فإن المدينتين الوحيدتين اللتين كانتا حقيقة من انشاء المسلمين — وانشأهما ذو منزى كبير — هما المدينتان اللذان يحتويان على دور لصناعة الأسلحة ، والتاجان لمملكة قرطبة ، وهما : المرية ، أو (برج المراقبة) في البحر الأبيض المتوسط ، وقصر أبي دانس الذي يقع على بحيرة شاطئية ، تواجه المحيط الاطلسي والمدينتان بنيتا في وقت متقارب ، بعد استيلاء أوائل ملوك بني أمية على الحكم في الاندلس . وبقيام هاتين المدينتين ، انفتحت التجارة في اسبانيا الاسلامية ،

في قس الوقت على البحر الأبيض المتوسط ، وعلى المحيط الأطلسي .
ومع ذلك ، فإن المرسى التي بنيت في سنة 706 م ، كانت أهم المدينتين .
فقد كانت هذه المدينة ، إلى جانب كونها ميناء ، مركزا نشيطا للتجارة
وتأوي مختلف الصناعات كما تشهد أسواقها ومعارضها التي يتردد ذكرها
في الفرنسية القديمة . وكانت تصنع في المرسى أسجة الحرير التي
يستعمل فيها الحرير الخام الذي تنتجه منطقة البشرات (Alpujarras)
وهي منطقة جبلية تمتد خلف المدينة . وفي المرسى أيضا تقع أحواض
كبيرة لبناء السفن كانت سببا في نمو صناعة الخشب والحديد والفضة
الذي تصنع منه أشرعة السفن .

ولكن الظاهرة الكبرى في نمو الممران في شبه جزيرة ايبيريا المسلمة ،
هي بدون شك ازدهار قرطبة ونشاطها العمراني . فان عاصمة جنوب
إسبانيا في عهد الرومان (Corduba) ، لم تكن شيئا يذكر لدى وصول
المسلمين إلى الأندلس في أوائل القرن الثامن الميلادي ، لأن المدينة الكبيرة
في ذلك العصر - ان صح استعمال هذا التعبير - كانت هي طليطلة ،
عاصمة ملوك القوط . ولكن موقع قرطبة كان ملائما . فان جيرا رومانيا
بني على الوادي الأعظم عند هذه المدينة ، يشكل حدا ونهاية للملاحة
في النهر . وفي سنة 719 ميلادية ، انتقل الوالي السادس للخلفاء الأمويين
في دمشق من اثبيلية إلى قرطبة ، حيث شرع في أعمال البناء الأولى :
بناء سور حول المدينة وإصلاح الجسر القديم وبناء طواحين على رصيف
تستعمل التيار المتولد من ماء النهر .

وفي هذا العهد ظهرت الضاحية التي تمتد في جنوب المدينة حيث خططت
المقبرة الإسلامية . وفي غضون الأعوام التالية ، ستشهد المدينة تطورا
ونموا سريعا : فقد ضاق بها السور وامتدت نحو الشمال والشرق والغرب ،
بينما استمرت ضاحيتها في الامتداد إلى الجنوب .

وقد شهدت قرطبة أوج ازدهارها في غضون القرن العاشر الميلادي ،
 وخموسا في عهد الحكم الثاني وعشام الثاني .



الشكل رقم ١٥ - خريطة .

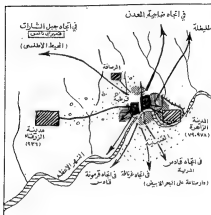
ومركز المدينة نفسها (Medina) له سبعة أبواب . وفي خارج المركز بيت واحد وعشرون حيا تشكل ما يعرف بالرملح الذي يمتد في جميع الاتجاهات . تسعة أحياء في الغرب ، وسبعة في الشرق ، وثلاثة في الشمال ، وحيان عبر النهر . ولزيادة عدد سكان قرطبة يسكن أن تستجبه أيضا من توسيع مسجد قرطبة المشهور مرات متوالية : ففي سنة 785 ميلادية ، أصلح عبد الرحمن الأول المسجد القديم ، وفي سنة 833 ، وسع عبد الرحمن الثاني المسجد وأضاف إليه مساحات مشيرة في اتجاه الجنوب ، وفي سنة 961 ، قام الحكم الثاني بتوسيعه من جديد نحو الجنوب . وأخيرا زاد المنصور في سنة 977 توسيع المسجد وأضاف إليه ثلث مساحته ، في الاتجاه الشرقي . وهكذا يسكن تقدير عدد سكان المدينة على أساس أبعاد المسجد بحوالي 300,000 نسمة .

ومن الظواهر التي تسترعي الاهتمام في ازدهار قرطبة ، امتدادها نحو الضواحي . فها أيضا ، أصبحت الضواحي التي بنيت فيها قصور الخلفاء نواة لمدن جديدة ، على غرار قصور الأغالبة والفاطيين في ضواحي القيروان .

وقد بنيت القصور الأولى في ضاحية على مسافة 3 كيلو مترات في الشمال الغربي — وكان ذلك في عهد عبد الرحمن الأول — وهي الرصافة ، التي تذكر بالرصافة التي كانت وقتا ما مقرا للخلفاء الأمويين في سورية ولكن الرصافة ليست الضاحية الوحيدة التي عمرها الخلفاء . لأن الضواحي مستمع لتشمل الحدائق المجاورة للمدينة ، الأمر الذي نجم عنه انتشار المناطق السكنية والعمران في سهل « فحمى » قرطبة ، حيث سبغني المنازل وتخلط القابر وتغرس الحدائق .

ولكن أهم ضواحي قرطبة وأشهرها ، هي مدينة الزهراء التي بناها في سنة 936 ميلادية عبد الرحمن الثالث لاحتضن منطحاته وسميت باسمها .

ومدينة الزهراء التي تقع على مسافة 5 كيلو مترات من قرطبة ، عبارة عن مباني تضم مساكن الأمراء والدواوين ، يحميها حرس من العقابية : وهنا أيضا نلاحظ اعتماد الخلفاء باستمرار سيطرتهم على العاصمة ،



الشكل رقم ١٦ - الامتداد العمراني في قرطبة

مع بقائهم يبدا عنها بعض الشيء ، حتى لا يفسدوا الحياة في مدينة يتزايد عدد سكانها مع مرور الزمن ، ويتعرضوا للمخاطر نتيجة للزلازل والاضطرابات التي تقع فيها ، مثل الثورة التي شهدتها الريش في القرن التاسع الميلادي .

وبناء مدينة الزهراء عملية مهمة اقتضت أعداداً استغنى تنفيذها عشرات المئتين واستخدم فيها 10,000 عامل . وقد شملت هذه العملية استيراد الرمر من قرطبة وسفاس ، استخلص من المباني القديمة في المدينتين .

كانت التجارة مزدهرة في مدينة الزهراء ، وكان قبائل التجار عليها كبيراً ، بحيث اقتضى الأمر فرض ضريبة على التجار الذين يسمح لهم بالاستقرار فيها ، مقدارها 400 درهم .

وفي سنة 978-979 ميلادية ، قرر المنصور بن عامر (11) الحاجب الذي استولى على الحكم في قرطبة ، بناء مدينة أخرى ترمز لسلطانه الجديد والقوي . وقد غادر مقره في العامرية وقبّل في شرق قرطبة في المدينة الزاهرة . ولكن المقر الجديد لم يلبث أن أصبح مدينة التحت بقرطبة ، وبذلك أصبح اسم « الزاهرة » يطلق على جميع الضواحي التي تمتد في شرق قرطبة .

وهكذا نجد أن عمران قرطبة التي أحيطت بهالة من الضواحي في المرحلة الأولى ، ثم تضخمت واتسعت أطرافها حتى وصلت إلى تلك الضواحي التي اندمجت في المدينة الأم في مرحلة ثانية ، عمران تسيطر حاد النشاط . وكذلك كانت المدينة وضواحيها ، ومدينة الزهراء والمدينة

11 - محمد عبد الله بن محمد بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الملقب بالماري الفطاني 326 - 392 هـ . المعروف بالمنصور بن أبي عامر ، المير في دولة الأمير الأموي واحد المسيحيين المدعاة ، الملك من الجزيرة الخضراء لمدم قرطبة حاشيا وعلم ليجا . وقد عظمى مكانته بعد ما تولى النظر في أموال السيدة صبيح (أم عصام الأمير) . ولي الشرطة والسكة والوقايت والصيد إليه القضاء بالقبيلة . ولما مات استلم الأمير « كان » الأمير « سفير السن وغلب من اضطراب الأمن ، ففسح ابن أبي عامر أم الأمير استقرار البلاد وبعد ذلك ، قام بشؤون الدولة وغزا وفتح ودانت المنطقة في يده 26 حاشا . وكانت الدولة في أوجها على القادر لمزيد (وهو محتجب من القنص) ولكن الملك كان في يد ابن أبي عامر . وقد غرت جيوشه فرنسا ، لندالة ، وجاسكون Gasconne ودمسكيت حتى ليون . المرجع : .

الزاهرة مجتمعة ، منطقة عمرانية هائلة ، هي « قرطبة الكبيرة » التي تضم حوالي نصف مليون نسمة . وهذا رقم مرتفع جدا في الغرب ، إذا اعتبرنا أن باريس التي كانت أكبر مدن الغرب المسيحي بكثير ، لم يكن عدد سكانها في القرن الرابع عشر الميلادي يتجاوز 200 و 300 ألف نسمة .

بقى علينا أن نحول أنظارنا الآن ، إلى جزيرة صقلية ، حيث نجد أن بلم ، كما لاحظ ذلك المسافرون المسلمون ، قد شهدت نموا مشابها لنمو قرطبة . ففي الوسط يمتد القسم القديم من المدينة (القصر القديم Casaro vecchio) الذي تحيط به حالة من الضواحي .

ذكر ابن حوقل (القرن العاشر الميلادي) أن القصر القديم كان محاطا بسور تخرقه تسعة أبواب ، ويضم المسجد الكبير والسوق الرئيسية ومنازل التجار الأثرياء . وحول هذا المركز ، تمتد أريئة أحياء ، الخالصة ، وهي مدينة إدارية يحيط بها سور تخرقه أربعة أبواب ويضم القصر ، والدواوين ، ودار الصناعة ، وحدائق . وسيصبح هذا الحي ، فيما بعد ، مقرا للملوك النورماندين . وبأني بعد ذلك ، هي المقابلة ، وهو أكبر أحياء المدينة ويسكنه ، كما يدل على ذلك اسمه ، العبد الصقلية ، ويلوي البناء وأرصفته . وهذا الحي لا يحيط به سور ، وهو مفتوح وله واجهة كبيرة على البحر .

والحي الثالث هو الحي المعروف باسم جامع بن سقلاب وهو أيضا حي واسع يمتد بجذائقه وطوائفه التي تعمل ببناء الجداول حتى يلتقي بالريف . وهذه الضاحية عبارة عن سهل « قمص » مترامي الأطراف ، تزدح فيه مختلف أنواع البقول والفواكه التي تحتاج إليها المدينة .

وأخيرا ، يأتي الحي « الجديد » الذي يكفي اسمه للدلالة على ما عرفته بلم الإسلامية من التوسع والامتداد .

من أهم المعلومات التي وصلت إلينا عن طرم الإسلامية ، تلك التي نقلها إلينا الراهب نيردوز (Theodore) (11) الذي أسر عندما سقطت سرقوسة في سنة 878 ميلادية .

فإن هذا الكاهن يقدم إلينا فكرة حسنة عن ازدهار العمران وحدة النشاط في مدينة إسلامية كبيرة حيث يقول : « انهما ، أي سيراكوسة ، مدينة مشهورة عامرة بالسكان من الأهالي والأجانب ، وكانت تدفق إليها جميع الجنس العربي ، من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى البحر ، ضاقت المدينة بسكانها الجدد . ونتيجة لذلك ، فقد أخذوا في البناء خارج أسوار المدينة . وبذلك تكونت عدة مدن في ضواحيها ، أحيطت هي الأخرى بأسوار ولا تقل ازدهارا عن المدينة الأم » .

ذلك هو الامتداد والتوسع الذي شهدته الامبراطورية الإسلامية من طرف إلى آخر . والآن بقي علينا أن نعرف كيف يعمل الناس في هذه الامبراطورية وما هو نوع النشاط الذي يمارسونه ، وما هو الغليان الاجتماعي الناجم عن كل ذلك .

12 - مارج : C. Zuretti *centenario della nascita di Michel Amari* Palermo 1910, pp. 167-173 et par M. Amari *Descr. de Palermo*, *Introd.*, pp. 7-8.

الفصل السابع

تنظيم العمل والحركات الاجتماعية

حقيقتان رئيسيتان تشكلان إطارا للتطور الاجتماعي في المدن الإسلامية ، تدفق الذهب واتساع نطاق تداول النقد من جهة ، وسرعة التوسع العمراني في المدن وزيادة الاستهلاك الناجم عن ذلك ، من جهة أخرى .

إن تعدد وسائل الدفع ، والنشاط الحاد في ضرب النقود وسرعة تنقلها ، واتساع نطاق عمليات القروض المصرفية والأقبال على الاستهلاك الناجم عن اتساع العمران في المدن ، كلها عوامل أدت إلى ازدياد سرعة نشاط التبادل التجاري ، وإلى حيوية الإنتاج الزراعي والصناعي ، وإلى انخفاض قيمة المعادن الثمينة وبالتالي إلى ارتفاع الأسعار خلال مدة طويلة ، ذلك الغلاء الذي يسانده تدفق المعادن الثمينة « النقود » بصورة أقوى وأهم من ازدياد حجم الإنتاج على الرغم من التقدم التقني الذي تحقق في هذا المجال .

وارتفاع الأسعار ، إنما تستفيد منه طبقة التجار وأوساط القصور . وتركز الثروة في يد التجار ، يدفعهم إلى السعي لاستثمار ثروتهم ، وإلى عقد صفقات تجارية كبيرة تضيف ثروة إلى ثروتهم وأما أوساط القصور ، فإنها تستنزف قسما معتبرا من الثروة المتولدة وتنفذ حياة البذخ ، عن طريق الضرائب وبواسطة أرباب المصارف الذين يتعاملون معها .

وكذلك يشكل رخاء التجار والبذخ الذي يسود في قصور الأمراء ، ما يقبض العيون القوي لحضارة المدن المادية . بل أن من الممكن القول ، إذا أضفنا رعاية العلوم والفنون والأدب ، أن هذا الرخاء والبذخ يمثل أساس الحضارة الإسلامية .

وفي هذه الأثناء ، ينتشر الفقر بين الجماهير الشعبية . فإن الزيادة في المرتبات والأجور أقل من الزيادة في الأسعار ، وذلك بحكم توفر فائض من اليد العاملة .

وكذلك نلاحظ ، إلى جانب ظاهرة ارتفاع الأسعار العامة ، وانتشار الرخاء في القصور وبين طبقة التجار ، ظاهرة وسطية تدور حول التوزيع غير العادل للأرباح والقوائد بين مختلف الطبقات الاجتماعية .

وانتشار نفوذ المدينة في الأرياف ، كان من نتائجه ضعف نفوذ الملاك الزراعيين . فإن أشكال الثروة المتقلبة تحول تدريجياً محل الملكية الزراعية . وهذا الانفجار الذي لحق بخلية « الاقطاع » الزراعي سيكون من نتائجه تفكك الحياة الاجتماعية . وكذلك كانت ثورات الفقراء في الأرياف ، استجابة لثورات العبيد والبؤساء في المدن .

وهذه الحركات الاجتماعية ، كانت في البداية متفرقة وتقوم هنا وهناك ، ولكنها في مرحلة نالية ، مستدغم في حركة شاملة وينضم تحت لوائها جميع الثوار من العبيد والأحرار ، من المدينين وسكان الأرياف ، وهذه الحركة هي حركة القرامطة التي هزت العالم الإسلامي في القرن العاشر الميلادي . وأدت إلى قيام تنظيم جديد للعمل على أساس المهن والحرف .

طبقة التجار والقصر :

كانت طبقة التجار هي الوحيدة التي استفادت من الاختلال النقدي ، كما لاحظ ذلك تلي مهري (Teli Mehri) منذ النصف الثاني من القرن

الثامن الميلادي والواقع أن نشاط التجار ، كان يمثل الأساس الذي يقوم عليه الازدهار الاقتصادي . وروح المغامرة والمبادرة في مجال التجارة من التقاليد المتوارثة في المشرق . وكانت المبادرة تتخذ شكل مشاركة رؤوس الأموال وإنشاء شركات تجارية ومصرفية .

والتاجر صاحب الاتصال يعتمد إلى إقامة صناعة وتشغيل العمال فيها . وتوفير المواد الأولية وتقديم القروض ، كما يقوم بتوزيع المنتجات . والتاجر يميل إلى المغامرة واستكشاف الأسواق في البلدان البعيدة وهو الذي سيكتشف مولد الذهب في السودان ويدفع في مقابل حمل بعير من الذهب شحنة من الملح والسلع ذات القيمة الزهيدة . وهذا الذهب سينقله إلى شواطئه المحيط الهندي وإلى بلاد الهند عن طريق البحر ، حيث سيبيعه بأضعاف ثمنه ويشتري سلعا أخرى يوسئها إلى البصرة في عمليات تضمن للتاجر أرباحا طائلة .

فإن شحنة سفينة آتية من الصين ، قدرت قيمتها بنصف مليون دينار . ومناطق الأنهار الكبيرة في روسيا ، ستوفر العبد ، وهي السلعة التي تضمن أوفر الأرباح في أسواق التخزين في الشرق الاسلامي وفي كل مكان يسود نشاط يستهدف كسب الثروة سريعا . وقد نجم عن ذلك تعدد المراكز التجارية على طول الطرق المعروفة في العالم . ومن هنا ارتفع شأن طبقة التجار التي يمثلها التاجر الكبير وهو مسلم في العادة ، ولكنه كثيرا ما يكون يهوديا أو مسيحيا أيضا .

والتاجر الكبير يملك أموالا طائلة من ثروته الخاصة ومن ثروة العائلة ويشترك مع غيره من التجار لإنشاء دارا تجارية تقوم على الاعتمادات التي يضمنها جميع الشركاء ورؤوس الأموال الناجمة عن العمليات التجارية يباد استثمارها باستمرار في مشروعات تجارية تزداد الساعا مع

مرور الزمن في عالم تسري فيه حسي الأفعال والكسب ، كما تشهد بذلك الوثائق العبرية التي بين أيدينا .

فنحن مثلا نعرف رسالة (1) بشأن تاجر يهودي من سورية ، وهو من أصل مصري — اعتبرنا اسمه المصري — في أوائل النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي من القدس إلى القاهرة عن طريق القرم (2) بشأن وصول سفن إلى جزيرة صقلية ويطلب فيها تزويده بعلومات عن سفينة إسبانية وعن غيرها من السفن التي تصل إلى الاسكندرية . وصاحب الرسالة يأمل في الحصول على جواب سريع عن استفساراته من مراسليه في القيروان وصيدا .

وكذلك ترنا وثيقة (3) أخرى يرجع تاريخها إلى القرن العاشر الطريقة التي نظمت بها دار تجارية عائلية ، فالدار الأصلية تقع في القسطنطينية بإدارة فرع للدار في مدينة عدن ، وهذا الآن قسام يسفرين إلى الهند بإدارة فرع للدار في مدينة عدن . وهذا الآن قام يسفرين إلى الهند ووصل حتى سيلان وزار كلومبير . وأما خال الأولاد الذي أرسل إلى الهند ليعمل فيها وكيلًا وممثلًا للدار فقد مات هناك .

والتاجر الكبير متعلم — ونحن نستطيع أن نتصوره مستغرقًا في مراجعة دفاتر حساباته ، وفي تحرير رسائله ، ومعالجة أوراق الأعضاء الخ . ،

R. Gotheil, Fragment - from the Cairo Genizah in the
best collection. New York, 1927, p. 116-129, n° XXXVII.

2 - مدينة فتيحة بين القريش والقسطنطينية طراب ، سلك الرمال عليها قرب ليبيا ،
عربي وليس على ساحل البحر ، وبينها وبين بحر القرم اتصال بالعطش الهندي ،
أرضها أديم ، وهو الرب موضع بين البحري ، على القرم اسطود العرب بالروم
منه فتح مصر ، ولحقها عمرو بن العاص ، والقرم من التي ذكرها أبو نواس في
أحدى قصائده . ان يقول :

وأصبحن قد فوجن عن نور فلسطين وعسكن من البيت القديس زور
عسالك بالسويكيات غيرة هالكهم وبالقروم من حاجبين شمسود

3 - المصدر السابق ، صفحة 44 - 57

ومن جهة أخرى توجد كتب ورسائل تقنية تتجه عادة إلى الموفقين ، يذنب مضمونها على توفر حظ من الثقافة العملية عند رجال الأعمال . فإن كتابا فارسيا عاش في خراسان وبنداد ، أبا الوفاء (940-997م) وضع كتابا مبسطا في الحساب يشتمل على المعلومات الضرورية للكتاب ومديري الأعمال في علم الحساب .

وهؤلاء التجار يعرفون فن التشفرة والرسائل السرية . وهم يعلمون الأرقام الهندية (التي نسميها العربية) التي تقوم على تسع علامات وصفر ، ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادي جرى تعميم هذا النظام في الكتب العلمية ثم بين العلماء وفي أوساط التجار ،

والى جانب هذه الثقافة العملية ، كثيرا ما يتمتع التاجر الكبير بحظ كبير من الثقافة الحقيقية ، وهو يضر في هذه الحالة خصوصا بمعلوماته في العلوم الدينية وفي الشعر . ففي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي كان شقيق الشاعر ابن اللبابة ينظم الشعر هو أيضا ، ولكنه لم يكن يعيش على قرض الشعر لأنه كان تاجرا .

ومن جهة أخرى فإن الشاعر أبا بكر بن عبد العزيز الذي تلقى مبلغا معتبرا من المال مكافأة له على إحدى قصائده قرر أن يستقر في القرية ويشتغل بتجارة مربحة .

والتاجر الكبير يقوم بدور هام في فعل الخير والرعاية بما يقدمه من الصداقة والاحسان للمحوزين في الجماعة وهو يساهم كذلك في تمويل تكاليف تحيين وتوسيع المآب (المساجد والبيع والكنائس) ويسد بالمال المؤسسات الخيرية وهذه المؤسسات تشمل أيضا في الاسلام إنشاء مؤسسات ذات فائدة عمومية مثل المدارس والفقارات . والتاجر الكبير يقدم المأوى والضيافة للطلاب والعلماء كما يفتح أبواب منزله للحجاج

ولعاري السيل والتجار الأثرياء من اليهود في الاسكندرية والقاهرة . وكذلك كانوا يتقدمون القدية لتحرير اليهود الذين وقعوا في أسر القراصنة . وهذه القدية تمثل 33 دينار للرجل . وهو السعر المعمول به في جميع البلدان الواقعة على حوض البحر الأبيض وهذا المبلغ يمثل تأميناً شخصياً للتاجر المسافر .

والتاجر الكبير يفتق بسطاء ويميش عيشة واسعة في منزله الفسيح في المدينة بين جبايات من العبيد والخدم والمترين اليه ، محاطاً بـ مكتبة وبما اقتناه أو استجلبه معه أثناء أسفاره من البلدان البعيدة من التحف والطرائف النادرة .

والتاجر الكبير يفتح بـ مكانة اجتماعية مرموقة ، فإن بعض التجار الأثرياء الذين اتهموا بالاشتراك في ثورة اعتقلوا بهذه التهمة ، ولكن الوالي ، استعظم وقت الغداء تناول الطعام على مائدته ، وكبار التجار كثيراً ما يتشتمون بالحظوة في قصور الملوك والخلقاء . وهذه هي الحالة خصوصاً بالنسبة الى الصرافين المعتبرين لدى القصر ، والذين يقرضون المال لكبار الشخصيات والتجار ، يسمون القصور الملكية بالسلج-ولا سيما البضائع الثمينة ، والذين يدفعون الضرائب المستحقة على الآخرين ويتعهدون باستخلاصها . وكذلك نجد صرافاً يهودياً في البلاط يستخلص الضرائب المستحقة في الأهواز ثم يستمر الحصيلة في أعماله الكبيرة في صناعة السكر ، أو النسيج ، ثم يقدم اعتماداً للخليفة ليستخلص المبلغ المستحق من بيت اليهودي في بغداد . وهذا الصراف (الجيهل) يؤمن سرعة تنقل الأموال بعمليات كناية بين الولايات وخزينة الخليفة ، دون أية مخاطرة بتحويل الأموال نقداً .

بل أننا نجد في نهاية السلم الاجتماعي ، أن التاجر قد يرفع مقامه ويشغل منصباً رسمياً بل وأرباباً لقد الوزارة ووضع على رأس إدارة الدولة للشؤون المالية .

ولكن التاجر الكبير ذي المركز الرفيع والنفوذ والجاء ، قد يفقد الخطوة وينزل مقامه فجأة ، وقد الخطوة كثيرا ما يرافقه الاستلاء على أموال التاجر وممتلكاته ، وحينئذ تكون حياته العملية منتهية ، والمثال المشهور في هذا السياق هو ذلك الذي وقع في القاهرة في أوائل عهد القصور الفاطمي (1036 - 1094 م) ، فإن الأخوة تستري من المرابطين والتجار اليهود في الأهواز (وكانت تجارتهم في البضائع الثينة الآتية من شواطئ المحيط الهندي والصين) ، قد جلبوا للخليفة الفاطمي (لأعزاز دين الله) جارية سودانية جميلة ولدت له خليفة على عرش الفاطميين ، المستنصر بالله ، وهذه الجارية هي التي تولت الحكم أتمومت الفاطميين حيث أن ابنها لم يبلغ سن الرشيد بعد ، وكان ذلك بمساعدة الأخوة تستري ، وقد دام حكم هؤلاء اثني عشر عاما (1036 - 1048 م) ولم يزحزحهم عن كرسي الحكم إلا وزير ، من أصل يهودي هو الآخر ، ولكنه اعتنق الإسلام ، وقد تقلد هذا الوزير منصبه بفضل الأخوة تستري ، ولكنه مع ذلك ، لم يتردد في أن يأمر الحرس التركي باغتيالهم . وأما الملكة الوالدة ، فقد أخضت على نفسها أن تنتقم لسادتها السابقين ، وبعد الحادث بسنة أشهر ، قتل الوزير بدوره .

وهذا المثال واضح الدلالة ، ولكنه لم يكن نادرا ، لأن حوادث مماثلة وقعت وتوضح ما كانت طبقة كبار التجار تستع به من الثروة والنفوذ ، وكيف يشتركون في المؤامرات التي تحيك في القصور ويشكلون حلقة وصل بين القصر وطبقة الأثنياء في المدينة . وهؤلاء التجار هم الأحرار الرئيسيون المحركون - مع كتاب الدواوين - للحياة الاقتصادية في العالم الإسلامي . وهم الصنف الذي تقوم عليها الحضارة الإسلامية العظيمة خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر الميلادي .

القمع الاقتصادي في المدن والأرياف :

المركز الاقتصادي للمدينة الإسلامية ، هو السوق الذي يتردد عليه ويعمل فيه الصناع والعمال الأحرار والعبيد والدلالون والحصانون . ونظرا للصعوبات المتزايدة التي تلقاها هذه الفئات من السكان لكسب الرزق ، فهي أبدا في هرج ومرج وكثيرا ما تتعرض للقتل .

وفي الأرياف يعيش صغار الملاك والفقيرين والعمال التبايسين . فسان الأثرياء والمرايين من سكان المدن يطردونهم من أراضيهم التي يستمرون فيها جزءا من الأرباح الطائلة التي يحققونها من التجارة . وفي هذه الأثناء يزداد قبضة المدينة وضوفا توتغلا في الأرياف ، سنة بعد سنة .

ومن جهة أخرى فإن عبء الضرائب يزداد فدعا على سكان الأرياف مع تناقص القوة الشرائية للنقد . والادارة المركزية للإمبراطورية تتوانى في كل شيء إلا في جباية الضرائب .

ونحن نجد صورة مفصلة للبؤس الذي كانت تعاني منه الأرياف في عدد مهم من المصادر النسطورية واليعقوبية ، بالنسبة الى ما بين النهرين وسورية ، وفي التواريخ السريانية وأوراق البردي ، بالنسبة الى مصر .

وقد كان الأمل الوحيد في النجاة لسكان الأرياف ، هو الهروب الى المدن . وفي المدن يفقد القري كل روابطه وعلاقاته العائلية والاجتماعية . حيث أنه يقصدها في كثير من الحالات للتخفي وللتخلص من دائنيه المدينين . وكذلك ينحدر شيئا فشيئا في السلم الاجتماعي ، وربما افضى به الأمر أن يحترف السرقة وقطع الطريق .

والآفة الكبرى التي تشكل منها الأرياف هي اضطراب الأمن العام — والحكومة تسخر قواتها للقضاء على الاضطرابات ، رغبة في تأمين الاستقرار ، لكي تتمكن من جباية الضرائب وضمان فلاحه الأرض .

وكذلك أنشئ في مصر مكتب خاص بمهنة البحث عن الهاريين ،
وانتهى الأمر الى فرض جواز السفر على الأشخاص : فأما الأشخاص
ذوو المكانة الاجتماعية فيمنحون وقائق تحمل ختما رسميا ، وأما أبناء
الشعب والفقراء فيحملون ختما ، في أذرعهم أو أيديهم ، أو تعلق في
أعناقهم قطعة من الرصاص لاثبات شخصيتهم .

وهذا البؤس المنتشر بين الطبقات الشعبية في الأرياف والمدن هو
السبب في ظهور كثير من الحركات الاجتماعية التي تنطوي على عناصر من
الدين والشعوذة ، وتوهم العامة بأن ساعة الخلاص ستأتي ولا ريب ،
وما عليهم إلا أن يصبروا حتى يأتي المهدي المنتظر .

وهذه الحركات تجد اقبالا خصوصا في ثلاث فئات اجتماعية : الفلاحين
والعبيد ، والطبقة الشعبية المتواضعة في المدن .

ففي طبقة الفلاحين تشاهد نيقط الميول الايرانية القديمة لتحقيق
العدالة في المحيط الزراعي ، تلك الميول التي كانت قد أوجت منذ عهد
الساسانيين في القرن الخامس الميلادي بالحركة المزدكية التي تتصل هي
الأخرى ، من الناحية الاجتماعية ، بازدهار الحياة الاقتصادية والعمران
في المدن . وقد كانت ايران وبلاد ما بين النهرين في القرن الثامن والقرن
التاسع الميلادي مسرحا لعدد من الثورات التي كان يتزعمها أشخاص
يدعون النبوة ويستمدون آراءهم وأفكارهم من تعاليم مزدك ، وفي
مقدمة هؤلاء السباذ الجوسي (754 - 755 م) وأستاذ مسيس
(766 - 769 م) ، وكلاهما كان موجها وقائدا لحركة قوامها الفيل

والحقد ، كانت بمثابة رد فعل لاعتقال الداعي العلوي والقائد العباسي ،
أي مسلم الخراساني (4) .

وبعد هذا التاريخ بقليل ، قامت ثورة أخرى في أرمينيا (774-775 م)
كانت نتيجة لتعسف محصلي الخراج واللبؤس المنتشر في المنطقة . وأثر
ذلك ، قامت ثورة مذهبي النوبة الملقب (المقتنع) في خراسان (777-780م)
ثم وقعت الاضطرابات التي قام بها الباطنيون في جرجان (5) أي البلاد
القائمة على ضفاف بحر قزوين الجنوبية الشرقية . وهذه الثورات التي
أثيقت لنفسها علما أحمر ، حققت نجاحا مذكورا في سنة 782 — 783
ميلادية .

وفي حوالي سنة 800 ميلادية ، في عهد هارون الرشيد ، قامت أهم
هذه الثورات جسيما وأخطرها في خراسان برعامة بابك (816 — 838 م)

وكانت ثورة بابك التي تدور حول القضايا الدينية والمطالب الاجتماعية
قد اجتاحت في المرحلة الأولى أذربيجان . وبعد ما تركزت قوته في قلعة
جبليية حيث دعم قيادته وأعداد تنظيم أنصاره ، انطلقت قواته في اتجاه

4 - عبد الرحمن بن مسلم الخراساني (800-837 ع) : مؤسس الدولة القياسية وأحد
كبار القادة المبكرين ، اتصل أبو مسلم في شبابه بآبراهيم بن الإمام ا من بني
القياس ا فارتبط آبراهيم الي خراسان داعية قائلما لها واستمال أهلها وولب
علي ابن الكرمانلي ا وأبي ليسير ا قلعة واسطولي على المدينة وخطب لها باسم
عبد الله السجاني ثم سر جيشا بقيادة مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية وأقاربه
بالوهاب ، وحرم جيوشه ا وبذلك اشترفت دولة بني أمية ا سنة 132 ع ا
وخلص الله السجاني ا ولا تولى الخلافة بعده المصور خفي من ابن بطيخ أبو أسام
في ذلك ا لذلك برودة الكائن . وكان أبو مسلم نصيحا بالفرسية والمطرية ا
داوية الفرس ا هذا إلى جانب ما كان يتصف به من الدعاء السياسي والسياسة
والجزم ا ولكن أبرز خصائل أبي مسلم ا بغير شك ا هو تلك الكرامة بالان وبسطاف
العرف حيث مات وليس له دار ولا حقل ولا عبيد ولا أمة ولا ذليل . «الفرج»

5 - وقعت ثورة الباقية في سنة 900 ع ا وانتهت بمحاصرة السلطان محمد بن طغتكين
للديلم التي لم ينجح في شاكل ا بالقرب من أصفهان ا وبعد محاصرة طويلة ا
تول بعض الباقية بالآلان ا وفي صاحب شاهر ا وأسمه أحمد بن عبد الملك
بن طغتكين مع جيشا يسيرة من أسعابه لها ا لرحل السلطان طيما وقتل ابن
طغتكين وأصحابه ومكك القلعة وغربا . «الفرج» .

أرمينيا غربا ، وخراسان شرقا ، والعراق جنوبا وبذلك انتشرت الثورة في جميع أنحاء إيران وشملت جزءا من بلاد ما بين النهرين . وكان خطر هذا التأثير يثلث في أنه كان يقطع طرق القوافل ويعرقل حركة التجارة ، في الوقت الذي شل فيه حركات عدد من الجيوش التي تتكون من الجنود المرتزقة الأتراك ، وجهها الخليفة للقضاء عليه . وأخيرا ، استولت قوات الخليفة على قلعة وخرينها وقبضت عليه وسلمته إلى الخليفة المعصم الذي أنزل به عقابا كانت فظافته على قدر المخاوف التي أثارها : فقد تجولوا به في شوارع بغداد بعد ما قطعوا يديه ورجليه ، على ظهر فيل يحمل أيضا لائحة كتبت عليها قائمة الجرائم التي عزي إليه ارتكابها ، وكانوا قد وضعوه في جلد ثور حديث السخ وخاطوا الجلد حوله ووضع قرني الثور عند مستوى أذنيه ، وذلك حتى تضغط رأسه في جلد الثور الذي يجف تدريجيا ، حتى الموت .

والثورة الأخرى التي قام بها الفلاحون ، هي تلك التي أعلنها قبائل الزط (النجر) في أسفل ما بين النهرين في عهد المأمون (813—833م) (6) — والزط (الجط أو النجر) من أصل هندي أهدوا من أسفل نهر مهران (السند) إلى المستعقات الخليفة فيما بين النهرين ، واستقروا في هذه الأرض التي يكثر فيها القصب ، وكانوا يشتغلون بتربية الجاموس ، ولكن البؤس والشقاء دفعهم إلى الثورة ، فهذه كانت ثورة المنيوذيس اجتماعيا . ولذلك ، فرعان ما وجدت صدى وانضم إليها منيوذون

6 - عبد الله بن حارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، أبو العباس 170 - 218 هـ « سابع الخلفاء وأحد حكام دولة الإسلام في حله وسعة ملكه حيث كان ملكه يمتد من أفريقيا إلى خراسان - ولي الخلافة بعد أخيه الأمين « 198 هـ « قسم ما يده جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة ، وقد طبع من القوافل التي كان يبعث اليهم بالصف والهدايا أن يملأوه بما لديهم من الكتب « فبعثوا إليه يمدد كبير من كتب الأمازون وأريستوطاليس وأبقراط وجالينوس وأفلاطون وبطليموس ، فاستدبر لها مائة الترجمين ، وترجمت وحضر الناس على قراءة ، وكذلك قرأ عبد الله المنصور والخلفاء والمحدثين وأهل اللغة والأخبار والتكلمين وأطق العربية لأهل الجدل والفلسفة ، توفي في بغداد ودفن في طرسوس . » الترجمة « .

آخرون ، ولا سيما من العبيد الهاربين . ولما قضت عليها قوات الخليفة ، أبعاد الزط إلى منطقة الحدود مع بيزنطة وسورية الشمالية وإلى مستنقعات نهر العاصي ومن هذه المناطق ، انتقل الزط إلى الاناضول ثم إلى بلاد البلقان وبوهميا .

وأول حركة ثورية قام بها العبيد ، يرجع تاريخها إلى سنة 770 م . حينما ثار العمال السود في الزراعة والمناجم . ولكن الثورة الحقيقية التي قام بها الملونون ، ستأتي بعد ذلك بحوالي قرن من الزمن ، أي في سنة 768 ميلادية ، حينما التجأ العبيد إلى المستنقعات الواقعة في أسفل نهر التمرات (وهي المنطقة التي ثار الزط فيها قبل ذلك بثلاثين سنة) ، بقيادة خراساني ، اتخذ لنفسه اسم « صاحب الزنج » ، واشتهر باسم « الخيث » . وكان يدعي أنه من نسل علي ، بينما كان على مذهب مزدك وعلي رأس قواته من العبيد ، سيقب في وجه الخليفة لحسن عشرة سنة ، حتى سنة 883 ميلادية ، ويحدث أضرارا كبيرة . وقد انضم إلى جيش العبيد لاجئون ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية الفقيرة ، ونجحوا في نهب المدن الغنية الواقعة على الخليج ، وفي أسفل ما بين النهرين ، أبله ، والأهواز ، والبصرة ، وواسط ، بعد ما ذبحوا سكانها . وكذلك قطعوا الطرق بين بغداد والخليج وشلوا حركة التجارة . وأما القوات التي بعث بها الخليفة لاختصاصهم ، فقد فشلت في مهمتها بسبب صعوبة الأرض وبسبب سرعة تنقل الثوار . ولكن الموقف شقيق الخليفة سوف يتحمل على عاتقه مهمة القضاء على ثورة الزنج الذين ضرب حصارا مشددا عليهم في منطقة من المستنقعات . وبعد ما تحملوا الحصار مدة طويلة في قلعتهم ، قبضت عليهم قوة الخليفة وقتلهم .

وأما الطبقة الفقيرة في المدن ، فقد كان حظها من البؤس أكبر من حظ الطبقة الفقيرة في الأرياف ، ومن ثم فقد كانت باستمرار هالكة مائجة .

وكذلك يرى أنه عند ما قام النزاع بشأن من يخلف هارون الرشيد اثر وفاته (7) بين ولديه الأمين والمأمون ، تمكن الفتراء من السيطرة على مدينة بغداد ومن الاستيلاء على الحكم وقتا قصيرا .

وفي عهد المأمون . قام الصناع اليدويون بالإقباط بشوة كانت ثورة اجتماعية خطيرة حيث أنها وقعت في منطقة لصناعة للتسوجات الرقيقة . وهذه الصناعة كانت تتركز على عدة مشاغل منتشرة في عدد من المدن الصغيرة . وهنا أيضا تسع الحركة الثورية وتتركز في منطقة من المستنقعات - مستنقعات الدلتا ، وبالتحديد ، مستنقعات بحيرة بستم . وقد كانت هذه الثورة من الخطورة بحيث اقتضى الأمر توجيه قوات الخليفة لقمعها ، بل وسير الخليفة نفسه إلى مصر . وبعد اخضاع الثورة ، أبعد آلاف من الثوار المنصرين ، إلى ويحوا في أسواق العبيد في سورية وبين البحرين . وكذلك تجسع الحركة إلى جانب كل هذه العناصر ، الانجاعات الاحتجاجية المختلفة التي عرفها القرن التاسع والقرن العاشر الميلادي ، والتي كانت موازية لحركة نمو هائل في التجارة والصناعة وال عمران في المدن ، بهذلك تكون تجمعا يضم محركي الاغرابات وغير ذلك من مظاهر الأزمة الاجتماعية ، والساخطين والثوار . وكذلك وضع مذهب القرمطية الذي يتسم بالأصالة والالحاق على حرية الفرد ، ورفض قوانين الشريعة الإسلامية مع تأكيد الادعاء بأن كل شيء ذو طابع لسبي في العلاقات البشرية .

7 - هارون الرشيد ابن محمد (العبدي) بن المصور السياسي أبو جعفر (149 - 193 هـ) عشرين حنك الدولة العباسية في العراق وأخبرهم ، وقد بارى له كان أبوه أمرا طيبا ونشأ في دار الخلافة في بغداد . ولا أبوه لمرور الزمن في القسطنطينية . تسلمته الملكة أيرين (Irène) زوجة الخليفة بعد وفاة أخيه العبدي (سنة 170 هـ) عام تأسيسها وازدهرت الدولة في أيامه وكذلك اتصلت الثورة بينه وبين ملك فرنسا شارلمان (Charlemagne) . 180 جهاديين المفسد ، وكان الرشيد هذا بالجنيت والمهنة وبالأدب وأخبار العرب ، كما كان شجاعا كثر الفروقات حلقا أربابا خواصها ويجمع مرة كل سنة ، وهو أول خليفة لعب بالثورة والصولجان ، وكان الروم يدعون الثورة إليه طول حياته ، وهو الذي أولي بأسرة البرابكة الإيرانية . «الفرج» .

وعلى الصعيد السياسي ، فقد تبلورت حركة القرامطة في أئمن العاشر الى خلافة الفاطميين الذين انتشر مذهبهم وسلطانهم من الفريضة وصفلية الى مصر وسوريا وغربي شبه الجزيرة العربية . ومن جهة أخرى ، فإن سلطان القرامطة كان يمتد ليصل بلدان الخليج : المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية وأسفل ما بين النهرين والشواطئ الإيرانية .

ومن الناحية الروحية والاجتماعية ، اقترح القرامطة نموذجاً من « الطرق » الإسلامية ، ظهر في القرن العاشر الميلادي ، أول ما ظهر في المناطق التي كانت تحت سيطرة الفاطميين والقرامطة ، ثم انتشر بعد ذلك ، وهو لا يزال يحتفظ ببعض خصائصه الى يوم الناس هذا .

انه لمن أصعب الأمور - لسوء الحظ - أن نفرض بتعمق حركة تنزيم السرية والتكتم وتفضل على تسجيل مبادئها في وثائق ، تدرب أعضائها وتلقينهم لغويًا ، والصعوبات الأخرى ، التي تواجه الباحث هي في عدم دقة لغة القرامطة واعتمادها على الإشارة والتورية ، على الأقل ، في النصوص التي وصلت الينا . ولكن هذه النصوص ، مع ذلك ، تتضمن حقيقة ثابتة ، وهي الاهتمام البالغ الذي يوليهِ المؤلفون القرامطة لطبقة الصناع اليدويين ، ولعالم العمل ، بصفة عامة ، ولاسيما ما يتعلق منه بالتقنية والتنظيم . هؤلاء المؤلفون لا يفتأون يشيدون بنبل المهنة اليدوية وعلو مكانتها .

وفي هذه الامتاء ، نجد المنظمات المهنية في البلدان التي تدعى بمذهب أهل السنة (غير القرامطة) تتعرض للاضطهاد ، أو على أحسن تقدير لكثير من القيود والمراقبة الشديدة التي تمثل استمراراً لروح التشكك وسوء الظن القديمة في علاقات السلطة بعالم العمل . وهذه الروح لم يلحقها الا تغير طفيف نتيجة للتنظيم الجديد الذي جاء به القرامطة .

وأما في البلاد الخاضعة لسلطان الفاطميين ، على العكس من العمول به في البلدان التي ندين بمذهب أهل السنة ، فقد كانت المنظمات المهنية تتمتع بكثير من الحرية والرخاء ، حيث كانت الدولة تعترف بها ومن المنظمات المهنية التي عرفت كثيرا من النجاح ، عقب تأسيس القاهرة (970 م) ، تلك التي كانت تضم طلبة وأساقفة جامع الأزهر (المتح في سنة 972 م) ونحن نجد في هذا التنظيم دليلا على الاهتمام الذي كانت نظرية القرامطة توليه للتعليم - تلك الاهمية التي نربطها « انيسكلويديا » مشهورة ، « وسائل الخزان الصفا » ، حيث نجد فيها تركيزا على تجميع العمل الذهني واليدوي .

وهكذا كان ازدهار التنظيم الذي جاءت به حركة القرامطة في مصر ، عاملا من عوامل الرخاء والتوسع الصناعي والتجاري الذي شهدته البلد . والحركة نفسها ، سجدت في مصر ظروفًا ملائمة لانتشارها في اتجاه البحر الأحمر والمحيط الهندي . ولكن صلاح الدين الأيوبي ، سيقمع الحركة ، على الأقل في مصر ، ويحرم التنظيمات المهنية في سنة 1171 ميلادية ، من الامتيازات التي كانت تتمتع بها

وبعد قيام التنظيم المهني على أساس من الدين ، يشكل الفارق الأساسي بين التنظيم الفاطمي - القرمطي ، والتنظيم الذي كان سائدا في الغرب المسيحي . وهذا التنظيم يذكرنا بأن نظرة الشرق عالية وأنه كان مفتوحا لمختلف التيارات ، وأن كيانه الاجتماعي يتركب من عناصر متكاملة ، وذلك في الوقت الذي كان الغرب المسيحي فيه يتمسك بعقائد جامدة ومطلقا على نفسه . كان المسلمين والمسيحيين واليهود ، كانوا يتمتعون بالعضوية في التنظيمات المهنية في العالم الإسلامي ، على قدم المساواة . بل أننا نجد أن غير المسلمين ، في بعض هذه التنظيمات يشكلون أغلبية . وهذه هي الحالة خصوصا ، في تنظيم الصباغة ، وفي التجارة

في المعادن الثمينة وفي المراقبة ، حيث كان اليهود يقومون بدور مشير
ومعظم الألباء كانوا مسيحيين أو من اليهود .

وفي الختام ، لابد من أن نربط الانهيار الاقتصادي المفاجيء الذي
شهده العالم الاسلامي ، بالتوترات الناجمة عن انتشار الحركة الجديدة
للتنظيم المهني . وأهم خصائص هذا التنظيم : تلقين الطقوس ، والتضامن
المهني ، وإداء اليمين ، وانتخاب الرؤساء . والنظرية تقوم على مبادئ
سرية واجتماعية في نفس الوقت .

وهذه الخصائص . هي التي تميز التنظيم المهني في العالم الاسلامي
عن التنظيم المهني الذي كان سائدا في عهد بيزنطة ، وفي عهد الساسانيين،
والذي كان ذا طابع رسمي تحت اشراف الدولة ، ولا يتكاد يتجاوز
اجتماعات يقددها الصناع اليدويون الذين يراقبهم موظفوا الدولة
ويخضعون لقواعد تليها السلطة الحاكمة .

ومع ذلك ، فإن التنظيم الجديد لم يكن خاليا تماما من كل تأثير
لنظام القديم . بل على العكس ، فإن رواسب هذا التأثير كانت في الشرق
عناصر سيماد تركيبها ، بحيث يتكون منها نظام في القرن العاشر الميلادي،
يتميز ، كما قلنا ، عن التنظيم الذي سيمود في الغرب المسيحي خلال
القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي . وهذا التنظيم الاخير ،
سيتمسك كثيرا من التنظيم الشرقي ، وسيكيف العناصر التي اقتبسها
لظروف البيئة الغربية التي تقوم على عقائد جامدة ، والتي لا تزال من
بعض النواحي بيئة ريفية .

وفي هذا السياق نجدد الإشارة الى أهمية الحركات غير المتجانسة
التي يعود أصلها الى التنظيم المهني الذي كان سائدا في العالم الاسلامي،

والتي يمكن التعرف عليها بين حركات البران (Patarian) (8) في إيطاليا الشمالية في القرن الحادي عشر ، أو حركة (9) في حوض الألبان (Aquitan) (10) الأليجوا وكلها ذات طابع ديني واقتصادي وفلسفي واجتماعي : مثل حركة القراطة .

8 - هو الاسم الذي يطلق على أعضاء عدد من المجتمعات الانحدادية المرتبطة التي ظهرت في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر الميلادي ، خصوصا في شمال إيطاليا .
« الترجمة » .

9 - أو « كاتار » (Cathares) اسم لفئة تظهر للمرة ابداءا من القرن الثاني عشر الميلادي في جنوب فرنسا (إلى ناحية مدينة ألب) (Albi) كان اليسابا التوسنت الثالثة قد اطلق حريا صليبية عليها (1209) وقد قاد الصليبيين إلى هذه الحرب سيمون الرابع (Simon IV) صاحب مونتفورد (Montfort) لغزو مدينة بيزير (Beziers) ومدينة كركسون (Carcassonne) وعلى الرغم من مساعدة القوات المولود « ريموند رايمنون Raimond Raymond » الساسي لها ، فقد حومت هذه القلعة في معركة وقعت في سورد (Muret) سنة 1213 لم في مدينة تولوز (Toulouse) في سنة 1214 ميلادية ، وقد كانت هذه الحرب كارتة على جنوب فرنسا لأن الحرب التي اشترك فيها لويس الثامن ، لم تنته الا بمساعدة باريس (1244) (Monacoegm) وقد انصهر القلعة ، لقد اتممت تسليم بعد الحضر مونسيجور (1244) « الترجمة » .

10 - يدخل حوض الألبان شكل منطقة الألباخ ويمتد بين سلسلة جبال ارموريكا (Armoricaine) وسلسلة الجبال الوسطى ، وجبال البرانس (Pyrenees) الأتلسي ، وهو يشكل في منطقة حوض نهر الجارون (La Garonne) « الترجمة » .

الفصل الثامن

الانتاج و سلع التبادل التجاري

أهم الخصائص التي تميز المناخ الاقتصادي الذي كان يسود فيه الانتاج في العالم الاسلامي ، هي الاقبال على الاستهلاك ، والاقبال على الاستهلاك منشطه ظهور المدن الكبيرة وازدهار الممران فيها ، حيث أن طلبات السكان في ازدياد مستمر الى الكمية وإلى النوع أيضا ، بسبب ارتفاع مستوى المعيشة . ولكن الاقبال على الاستهلاك يشمل أيضا الكماليات الرائجة في قصور الملوك وبين طبقة السكان الثرية .

وفي هذا السياق ، يبدو من الضروري أن تقدم أولا ، وصفا جغرافيا للمنتجات التي تشكل قائمة محلية للسلع التي يجري تداولها في الأسواق .

وفي نهاية هذه الدراسة ، ستكون الخريطة التي رسمها ، أكثر من مجرد عرض لهذه المنتجات (1) حيث أنها تسلسل الأضواء أيضا على سلسلة من المشاكل الحيوية . ودراسة كل قطاع للانتاج على افراد ، على ضوء متطلبات مراكز الاستهلاك ، سيسمح لنا بالتمييز بين الانتاج الذي يستهلك محليا ، والانتاج الذي يجهز للتصدير الى بلدان قريبة أو بعيدة ، وبعبارة أخرى ، السلع التي ينصب عليها التبادل التجاري مع الخارج .

وهكذا ، سنتسكن من تقييم تطور حاجات مراكز الاستهلاك وتحديد شكل الاستهلاك ، وقوة الطلب في مختلف المراحل التاريخية التي مرت بها هذه المراكز : انشائها ، ونموها ، وازدهارها ، ثم انحطاطها .

(1) - لم يكن الاستهلاك المراحل من الناحية هذه الخريطة حيث عاينته يد اللون في وقت مبكر .

وهذا النهائي من هذه الدراسة ، هو تقديم وصف جغرافي للمنتجات التي يجري تداولها بنشاط من حيث المكان (مشاكل التوزيع) ، ومن حيث الزمن (مشكلة أنواع الطلب التي منتجات للاستهلاك) . وستكون دراسة المنتجات على أساس قوائم كبيرة ، الخطوة الأولى في عرض مخطط عام لشبكة التبادل التجاري الفاعلة لمعطيات الجغرافيا الطبيعية والبشرية .

وعلى أساس هذا المخطط ، سندرس النباتات الغذائية ومنتجات تربية الحيوانات . والأخشاب ، ومنتجات الغابات ، والمعادن والأسلحة والمنسوجات والأقمشة ، ومنتجات الحجر والأرض . ومنتجات البحر ، ودعائم الكتابة : ورق البردي والرق ، والورق ، والمنتجات الطبية والرقائق .

النباتات الغذائية :

يقوم غذاء الشعوب المستقرة في الشرق وعلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، أساسيا على النباتات . والنباتات الرئيسية هي الحبوب (الدقيق والخبز والمجنّين باختلاف أنواعه) والزيتون الذي يشكل زيت المادة الدسمة الأساسية ، والخضروات والفواكه ، ولاسيما الكرم الذي يؤكل عنبه أو يصنع خمر ، وهو نبات خاص بخصر البحر الأبيض في العصور القديمة ، والنخيل الذي يشكل إنتاجه من التمر أساس الأغذية في الواحات . وهذا الغذاء من النبات الخالي من اللحم في حد ذاته ، يفترض استعمال التوابل لتحسين مذاقه .

وعلى العكس من ذلك ، فإن غذاء شعوب آسيا الوسطى الرحل ، وإيران وشبه الجزيرة العربية والصحراء ، يقوم على اللحوم ومنتجات الألبان . والمادة الدسمة للطيخ في هذه المناطق ، هو اللبن .

ودراسة العادات والأنظمة الغذائية — وهي تكتسي طابعا من الأهمية لأنها بمثابة محرك للإنتاج — يجب أن تكون مقرونة بدراسة المسائل التي تتعلق بنقل النباتات .

والمزروعات التقليدية في العالم القديم في حوض البحر الأبيض المتوسط . هي في معظمها : ما يزرع في الأرض الجافة : الحبوب (القمح والشعير) ، وشجر الزيتون والكرم . وأما المزروعات التي نقلت إلى هذه المناطق ، فهي كلها ، من المزروعات التي تعتمد على الري : الأرز وقصب السكر وشجر البرتقال والتفاح . والامر كذلك بالنسبة إلى المزروعات الصناعية : القطن وشجر النيلة .

وإدخال هذه المزروعات الاستوائية وشبه الاستوائية ، يربط بطبيعة الحال ، ارتباطا وثيقا بتوسيع المناطق التي يشتملها الري والتقدم التقني الذي تحقق في مجال الزراعة .

وانتقال هذه المزروعات قد تم ، أو على الأقل : زاد نشاطه حدة . نتيجة لتكوين العالم الإسلامي الذي خلق حلقة اتصال بين منطقتين متكاملتين للإنتاج ، بتوحيده شواطئ المحيط الهندي وشواطئ البحر الأبيض المتوسط .

وانطلاقا من هذه الحقيقة ، كانت الطرق التجارية التي تستعمل لتبادل المنتجات ، تستخدم في نفس الوقت وسيلة لنقل المزروعات .

ودراسة الأزمنة التي انتقلت فيها المزروعات والطرق التي سلكتها ، والتوسع التدريجي الذي عرفته ، وما نجم عن هذا الانتقال من اتساع قائمة المنتجات الزراعية وتنوعها، تشكل فضلا جوهريا في تاريخ الاقتصاد .

والاقبال على الاستهلاك ، يقوم أساسيا على حاجات المراكز العمرانية الكبيرة الى المواد الغذائية . وهذه الحقيقة مهمة من حيث الاسباب التي أدت اليها والنتائج التي أسفرت عنها . وهذا الاقبال نجم عنه ، خصوصا نمو زراعة البقول والخضروات ، في حدائق وجنات (فحوص) ، تختط في ضواحي المدينة الكبيرة .

والظاهرة الاخرى التي يمكن ملاحظتها هي ، أن بعض المزروعات تنتشر في مناطق مناخها غير ملائم ، وبالتالي ، فإنتاجها ليس من النوع الجيد . ولكن الناس يفتنون عليها ويقتنون بها لأنها قريبة المثال . وهذا ما حصل في الغرب المسيحي ، حيث كان الكرم يزرع في شمال فرنسا وأوروبا ، وهي مناطق تقع خارج الحدود الطبيعية لنمو هذا النبات .

وامثلة هذه الظاهرة كثيرة في العالم الاسلامي : فعب السكر في شمال اسبانيا ، والقطن في شمال افريقية والكروم في اديسة الصعيد (وكانت قد نقلت الى هذه المنطقة لأغراض دينية) .

ولكنه الى جانب هذه المنتجات ، توجد منتجات أخرى تتخصص في إنتاجها مناطق معينة وتتمتع بشهرة عالمية ، يجري تصديرها بفضل النمو الذي شهده التبادل التجاري العالمي ، الى مناطق أخرى حيث يشتد الاقبال عليها . وهذه المنتجات هي التي يتحدث الرحالة والجغرافيون الغرب عنها حين ينوّهون بنوع مادة ويقولون عنها « وتجز الى الاقطار » ، ومثال ذلك ، تمر الجريد ، وجوز تبة ، والتين والزبيب الذي تنتجه مآلقه ، والبرقوق والمربى التي تنتجها ضواحي دمشق .

والحبوب ، ولاسيما القمح والشعير ، من المزروعات القديمة في حوض البحر الابيض المتوسط . ويمتد إنتاج الحبوب على ثلاث مناطق كبيرة ، تشكل « الاهراء » التقليدية . وأول هذه المناطق ، مصر التي

اشتهرت في التاريخ بكثافة السكان ، وبالتالي ، فهي بلد قوي الاستهلاك ومع ذلك ، فإن مصر كانت دائما تنتج فائضا من الحبوب للتصدير . فإن الضريبة من « محصول الحول » التي كانت مصر تدفعها عنها ، كانت تنج ، على التوالي ، الى روما ، ثم الى القسطنطينية ، ثم الى مكة والمدينة ودمشق .

وقد كانت التجارة في الحبوب ، وهي في مقدمة المنتجات التي تصدرها مصر تجري عن طريق القوافل في اتجاه الواحات الليبية وفي اتجاه الصحراء الشرقية والنوبة ، أو بواسطة السفن الى بركة والموانئ العربية على البحر الأحمر ، وإلى عدن وشوالم ، الخليج وعصان والبحرين والبصرة . ومن هذه المدينة الأخيرة ، ينقل القمح المصري الى بغداد .

وأما سورية ، فهي تصدر الدقيق عن طريق القوافل الى البلاد الداخلية في شبه الجزيرة العربية ، وبواسطة القوارب التي تنزل في نهر الفرات الى بغداد وغيرها من مدن ما بين النهرين .

وهكذا نجد بغداد ، مرة أخرى ، مع القمح المصري ، الذي يصل اليها بعد رحلة بحرية حول القارة ، والدقيق السوري الذي ينزل اليها عن طريق الفرات ونهر عيسى ، مركزا عظيما من مراكز التجارة العالمية في المنتجات الغذائية .

والهرود الأخير من أمراء القمح في العالم الاسلامي ، هي افريقية الشمالية ، ولا سيما سهل نهر مجردة ، وبيجة التي كانت ترسل كل يوم ألف حمل بعير من الحبوب الى القيروان ونولس .

وكذلك كان المغرب الأوسط والمغرب الأقصى كلاهما غنيا بإنتاج الحبوب . والمناطق المشهورة بإنتاج القمح والشعير ، هي سهل قسنطينة ،

وسطيف ، وشواطئ المحيط الأطلسي ، والهضاب العليا في المغرب الأقصى

وهذا القمح الذي تنتجه افريقية الشمالية ، يصدر بواسطة السفن الى اسبانيا وصقلية ، وبواسطة القوافل في اتجاه سجلماسة ، والصحراء الغربية وبلاد السودان (افريقية الغربية) .

والجدير بالتسجيل ، أن قوافل البربر كانت هي التي أدخلت زراعة القمح المروي في مواسم الجفاف الى سواحل افريقية الغربية ، خلال الفترة بين القرن العاشر والقرن الحادي عشر الميلادي .

وفي الاتجاه المعاكس ، اتخذت الذرة البيضاء (السورغو) التي هي من الحبوب الرئيسية ، التي تنتجها افريقية الغربية ، طريقها الى الشمال ، نحو النوبة ومصر العليا والواحات الليبية وبرقة والتل الجزائري ، في نقاط معينة ، تم الى المغرب الأقصى .

وفي هذه الفترة ، انتشرت زراعة الأرز في حوض البحر الأبيض المتوسط ، بعد ما انتقل من الهند الى أسفل ما بين النهرين حيث كان يزرع منذ الفترة السابقة لميلاد المسيح . ومن أسفل ما بين النهرين ، انتقل الأرز تدريجيا الى جميع المناطق الملائمة في الجزء الواقع على البحر الأبيض المتوسط من العالم الاسلامي وكذلك صلحت زراعة الأرز بالسري في منخفض النور ، أي على ضفاف البحر الميت ونهر الأردن ، وفي الفيوم والواحات المصرية ، وفي السوس الأقصى ، في جنوب المغرب وقد لعبت هذه الثبة لجانا ، بصفة خاصة في اسبانيا ، في سهول النهر الأعظم وفي منطقة بلنسية التي كان إنتاجها وفيرا .

وهكذا نرى أن العالم الاسلامي ، قد أضاف الى زراعة الحبوب القديمة في البحر الأبيض الروماني ، الذرة البيضاء التي جاءت من الجنوب والأرز الذي جاء من الشرق .

والأساس الآخر الذي يقوم عليه إنتاج المواد الغذائية : الزيتون وهو شجر موطنه البحر الأبيض المتوسط ، حيث أن انتشاره ينحصر في المنطقة التي يسود فيها مناخ البحر الأبيض . ومراكز الانتاج وتصدير الزيت متعددة .

وأول هذه المراكز ، افريقية ، وخصوصا الساحل التونسي الذي يسمى « غابة الزيتون » . وهذا الشجر منفرة افريقية التي ورثته عن الرومان ، قد قاوم عواذي الزمن ، بما في ذلك الغزو الهلالي في القرن الحادي عشر الميلادي .

وسفاس ، هي الميناء الكبير الذي يصدر منه الزيت التونسي « مرسى الزيت » ، كما يسمى ابن حوقل . ومن هذه المدينة يتجه الزيت التونسي الى مصر ، وهو بلد لا يملك شجر الزيتون ، والى صقلية وإيطاليا وبنزلة والمغرب الأوسط .

وأما سورية ، فقد عرفت انتشار شجر الزيتون الذي تشته حقوله من فلسطين حتى منطقة انطاكية ، وسورية من كبار البلدان المصدرة للزيت الذي ينقل عن طريق القوافل الى مصر وجزيرة العرب ، وعن طريق بحر الفرات الى ما بين النهرين .

واسبانيا كانت هي الأخرى تصدر الى المغرب الأقصى الزيت الذي تنتجه منطقة النهر الأعظم ، وخصوصا الشرف (Adgeale) الواقعة في شمال إشبيلية .

ومن جهة أخرى ، فإن المغرب الأقصى ، شهد نمو شجر الزيتون في أرضه شيئا ، فشيئا ، ولا سيما في مناطق فاس ومكناس (التي تسمى مكناس الزيتون) ، حيث سيحل تدريجيا محل شجر البرتقال .

وأما مصر التي ليس لها شجر الزيتون ، فهي تستورد ما تحتاج اليه من الزيت من سورية والفرقية .

وكذلك تعتمد مصر على إنتاجها المحلي من فجل الغبل والسسم والقت والقلناس والخس والفروع والكتان وما يستخرج من هذه النباتات من الزيتون .



المشكل رقم ١٧ - تجارة الزيتون في البحر الأبيض الاسلامي

وقبل أن تترك موضوع الزيتون ، ينبغي ألا ننسى أن تشير الى أن زيت الزيتون يسون عددا من الصناعات ، مثل الصابون وزيت التواليت التي تقوم عليها صناعة الروائح العطرية . وفي هذا المجال أيضا ، نجد أن مراكز الصناعة الكبيرة ومراكز تصدير هذه المنتجات ، تقع في سورية وفي الفرقيية .

والكروم ، مثل شجر الزيتون ، من أقدم الزروع التي انتشرت على ضفاف البحر الأبيض من سوريا حيث كانت العقيدة الدينية تتطلب

استعمال الخمر في بعض الطقوس . ولكن الإسلام حرم الخمر ، وكان بعض الخلفاء الأتقياء ، مثل الحكم الثاني الأموي في قرطبة ، يهندون باقتلاع الكروم ؛ ولكنه على الصعيد العملي ظل الخمر مستعملا ومشترا في العالم الإسلامي في مجموعه ، كما كانت قصور الخلفاء كثيرا ما تتردد فيها أسداء القوائد التي يتغنى فيها الشعراء بالخمر .

والكروم تصلح في جميع الأراضي الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، ولكن المناطق الكبيرة الانتاج والتي تنتج للتصدير ، هي فلسطين (خمر عسقلون) سورية الشمالية (بيت رأس) ، وخصور كتي المتقطين كانت مشهورة منذ العصور القديمة . وقد اشتهرت مصر بخصور دمايط ومريوط ، كما اشتهرت خصور ساحل افرقية .

وأما اسبانيا ، فقد كانت تنتج عددا من الخصور المشهورة التي أهمها : خمر مالقة وبريجو وجيريز . وهذا النوع الأخير يصدر من غب كرمة استوردت من شيراز ، في إيران .

وهذه القائمة من الخصور التي يذكرها المؤلفون المسلمون بكل تسامح ، تدل على أن زراعة الكروم كانت تحظى بعناية على الرغم من تحريم القرآن للخمر وهذه الحالة سوف لا تتغير الا في القرن الحادي عشر الميلادي ، حينما تغير وضع الإسلام .

وعلى كل حال ، فإن البلدان المذكورة غلبها كانت من أكبر المنتجين للزيت : دمشق والخليل في سورية ، وأسن في مصر العليا ، ومالقة في اسبانيا .

وشجر النخيل موطنه الحقيقي والفضل ، هو ما بين النهرين وإيران . ومنذ الفترة السابقة للفتح الإسلامي ، كانت النخلة قد دخلت الى سورية الجنوبية ومصر وجنوب تونس . ولكن الفتح الإسلامي وسع زراعة

النخيل ، الى سورية الشمالية وجزيرة صقلية خصوصا ، (غابات النخيل في مالقة وعين زربة) ، والى اسبانيا ، وخصوصا الى الصحراء الغربية حيث يعتبر التوسع في تربية الجبل ونتاج الملق وحفر الآبار وزراعة النخيل ، عوامل أساسية في اعمار الصحراء .

والمناطق الكبيرة الانتاج والتي تصدر التم ، هي شواطئ الخليج ، وجنوب تونس والجزائر : الجريد ومنطقة بسكرة والزاب .

وأما قصب السكر ، فقد أدخلت زراعته من الهند الى ما بين التهرين (سوزيان) في عهد كسرى أنوشروان (530 - 579 م) (1) من الهند ، وقد أصبحت ولاية سوزيان ، أو خوزستان فيما بعد ، مركزا مهما لزراعة قصب السكر ، يمتد جميع مناطق الشرق الاسلامي بهذه المادة . ومنذ ذلك الوقت ، نلاحظ قيام صلة بين العمل في مزارع قصب السكر واليد العاملة من العبيد السود الذين يستوردون من افريقية الشرقية .

ومن خوزستان ، منتقل زراعة قصب السكر ، في مرحلة تالية ، وتنتشر في حوض البحر الأبيض المتوسط في مصر الاسلامي وخصوصا في مصر التي صلح فيها قصب السكر وبشرت زراعته فيها ابتداء من القرن الثامن الميلادي . ومنذ ذلك الحين كانت أغصب التربة المصرية تزرع بقصب السكر .

ومن مصر ، انتقلت زراعة قصب السكر الى سورية ثم الى جنوبي المغرب الأقصى (منطقة وادي سوس) ، والى الشواطئ الاسبانية الجنوبية

1 - كسرى الأول ، أو خسرو أنوشروان بن كباد ، ملك ساساني حارب بيزانطة وأدخل الطاقة ثم طرد ساعدة مع الهولنديين واستقر على اليمن (570 م) ، الشمر يندله وبمشرفة الزرادعية ولا سيما : سح الأرض واصلاح نظام الضرائب . « التاريخ » .

ولكن مصر ، مستغل المركز الرئيسي في حوض البحر الأبيض المتوسط
لاتاج السكر ولتصدير هذه المادة . وكذلك كانت مصر تستهلك (على
الأقل ، في قصور الفاطميين) كميات كبيرة من السكر الذي سجلت
صناعته قديما معبرا . وكانت الحلويات والمربات المصرية تنتج بشهرة
واسعة . وكانت المربات من أهم صادرات دمشق ، ونحن ينبغي ألا ننسى
أن عادة تناول « الحلو » بعد الوجبات عادة شرقية .

والسكر الذي يصنع في مصر والشام ، سرعان ما تجد كميات كبيرة
منه طريقها الى يزرقة ثم الى الغرب المسيحي . وأول شحنة من السكر
(الاسم الذي لا تزال هذه المادة تحصله في اللغات الأوروبية) سجل تاريخ
وصولها الى البندقية ، تعود الى سنة 996 ميلادية .

وكما أشرنا ، فإن زراعة الخضر والفواكه قد انتشرت حول المدن
الكبيرة . وقد تحسنت طرق الاتاج تحسنا معبرا ، خصوصا بتوسيع
المناطق المروية . وكانت اسبانيا مثالا لتطور زراعة الخضر والفواكه .

وفي هذه الفترة ، انتشرت زراعة الخرشوف والسبانخ والكسرات
الأندلسي واللوز والأفراج والليمون والبرتقال . وقد أدخلت زراعة
البرتقال من بلاد ما بين النهرين الى سورية في سنة 943 م . ، وفي سنة
970 ، شوهد البرتقال في جزيرة صقلية وفي جنوب المغرب الأقصى .
وفي نهاية القرن العاشر ، وصل البرتقال أيضا الى مالقة ثم الى غرناطة
وفي سنة 1047 ميلادية ، كان البرتقال يزرع في مصر على السطوح في
أكباس خاصة . وفي سنة 1068 ميلادية ، وصل البرتقال الى برفة .

وهكذا تكونت « حديقة » أو ، إن شئت ، « ولحة » البحر الأبيض
المتوسط ، بما فيها من شبكة من قنوات الري ومن أنواع الخضروات
وأشجار الفواكه النموذجية . وهذه الحديقة الإسلامية تختلف اختلافا

كثيرا عن الحديقة المنتشرة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة ، والتي أضيفت إليها أنواع كثير من النباتات والأشجار في العصر الهليني ، مثل الجوز والكرز والخوخ والشمش .

وفي فترة لاحقة ، سيتلقى حوض البحر الأبيض أنوارا جديدة من النباتات الأمريكية ، مثل القاصوليا والطماطم والبطاطس والفرة الصفراء والتين الشوكي « الصبير » .

وكما نرى ، فإن الفترة بين القرن الثامن والقرن العاشر الميلادي ، تشكل في مجموعها مرحلة هامة في تاريخ الزروع والغلات ، وذلك بإدخال أنواع جديد من الزروع وبتمية تقنية الزراعة والانتاج في نفس الوقت .

تربية الحيوانات :

ينبغي أن نفرق بين تربية الحيوانات في المدن للأغراض المنزلية ، وتربية البدو الرحل للحيوانات ، حيث أن نشاط الفئة الأخيرة يكتسي أهمية أكبر بسبب تعدد الأغراض التي تستخدم الحيوانات فيها (توفير اللحوم والدهون ومنتجات الألبان) . والحيوانات التي تنتجها الفئة الأخيرة توفر أيضا المادة الأولية للصناعات (الصوف والجلود) ، كما توفر الطاقة المحركة (الفرس والجمال والبغل والحصار) . وهذه الحيوانات ، من جهة أخرى ، هي أساس القواقل التي تتكون من عدد كبير من حيوانات النقل والتي تربط بين الطرق التجارية في اليابسة . ويضاف الى ذلك ، ما تنتجه هذه الحيوانات من طاقة الدفع والجنب لتسيير التوائير (2) والآلات التي يستخلص بها الماء لأغراض الري .

2 - راجع : G.S. Colin, La Nécia marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe, Hesperis, XIV, 1932, pp. 22 et suivantes.

نمت تقنية تخصيص الحيوانات للأغراض معينة في العالم الإسلامي ، ولا سيما تقنية الفروسية تحت تأثير حضارة آسيا الوسطى : الركاب ، والسرّج ، وأكثيل الجواد ، وقلادة الشد ، ولعبة كرة الفرسان «البولو» .
والنتائج الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تربت على نمو تقنية تربية الحيوانات وتخصيصها للأغراض التي تلائمها ، نتائج خطيرة الشأن ، ومن هنا أهمية دراسة مناطق تربية الحيوانات وانتداد هذه المناطق وتمدداتها ، ونقل الحيوانات .

انتشر الجبل في مركزين واسمين : أولا : آسيا الوسطى بلد الجبل ذي السنامين (المسمى البكتري) ، وبلده الأصلي هي المنطقة التي تمتد بين النهرين الكبيرين ، أموداريا وسرداريا ، ثم جزيرة العرب ، ولا سيما وسط الجزيرة « نجد » ، بلد الجبل ذي السنام الواحد .

وقد كانت المناطق الرئيسية لتربية الجبل في غضون الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، هي : آسيا الوسطى وإيران وما بين النهرين من جهة ، والجزيرة العربية (نجد وسان وحضرموت والحجاز) ، ثم أنبوتيا والنوبة (جمال بجة) وواحات الصحراء الغربية ، من جهة أخرى .

ولكن منطقة الجبل ستنتج لتشمل سوية الشمالية ، وآسيا الصغرى ، وضاف بحر قزوين من روسيا الجنوبية ، وآسيايا ، والسودان ، وكذلك تعددت طرق اتقاء السلالات والتجهين ، ولا سيما بين قطمان الساقية الحمراء ، التي ستنتج البعير القوي والبطيء لحمل الإقتال ، والبعير السريع الذي يستعمل للركوب ، وخصوصا لنقل الأغبار .

والفرس له أربعة عروق أساسية : الفرس التركي — المنغولي الذي أصله آسيا الوسطى ، وهو صغير ، مكثّر ، قوي العضلات ، شديد

الفراس ، وتوقع . وهذا الفرس ، هو الذي تتكون منه خيالة كبار الفزاة الآسيويين . وأصل هذا الفرس يمتد شرقا الى الصين الشمالية ، وغربا الى السهوب وأوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى .

والفرس الايراني مفتول المضلات ، ويستطيع أن يجعل فارسا مدججا بسلاح ثقيل ، وهذا الجنس يصغر كثيرا الى الخارج ، وقد وصل الى الهند ، عن طريق الخليج ، فكان تجار الخيل الايرانيين هم الذين كونوا خيالة معرات (3) .

والفرس البربري ، أصله من لومبديا (4) ، أو عبارة أدق هو ينتمي الى التلال المرتفعة الشمالية والى أطراف الصحراء في هذه المنطقة ، وهو حيوان صغير نوعا ما ، قوي البنية شديد الفراس ، ومنذ العصور القديمة ، كانت خيول جميع البلدان الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط الغربية تلتحق تدريجيا بدم الفرس البربري ، وذلك خصوصا في إيطاليا وأسبانيا وفي جنوب الجولوا ، وغزو المسلمين لأسبانيا وصقلية بجيش يتألف فيه البنصر البربري ، سيجرز هذا الاتجاه ، ونجم عنه الحصان الأندلسي الذي يسمى باللغة الأسبانية « جنيت » (Jinet) أي زنتاني ، نسبة الى القبيلة البربرية الكبيرة ، التي اشتهرت بفرساتها ، والتي كانت تقطن الهضاب المرتفعة في المغرب .

والجنس الأخير في الخيول المشهورة ، هو الفرس السوري الذي ظهر منذ عهد الرومان ، نتيجة لتجهين الفرس البربري الذي كان يستورد الى شمال سورية ، بالسلالة الايرانية التي كانت تسرع في الشتاء في سهوب الصحراء « بلدية الشام » ، ثم انتشر في العصر

3 - حسب عدي يسكن ولاية مهاراشتر (Maharashtra) « التبرج » .

4 - بلاد لومبديا بين طرمينة والمغرب الأقصى في عهد الرومان ، والجزائر شكل تقريبا لومبديا ، مع تعديل خفيف في الحدود الشرقية . « التبرج » .

الاسلامي الى نجد ، وهي منطقة دعي مرتفعة في وسط الجزيرة العربية ، والحصان العربي الفاضل ، هو حصان للسرعة والركوب ، وله شكل رفيع وذو حرارة وحركة سريعة ، وكان الحصان العربي يصدر الى الشرق عن طريق الخليج . حيث يختلط بالخيول الايرانية التي تصدر الى الهند ، كما كان يصدر الى الغرب في اتجاه البحر الأبيض المتوسط .

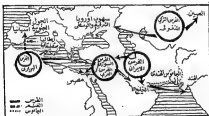
وقد كانت مصر هي الأرض التي اتى فيها الحصان العربي الفارسي بـ حصان افريقية الشمالية ، ومن هنا كانت خيالة مصر تبحث الرعب في ثوبس الغزاة النخول والعليين .

وفي مقابل النمو الذي شهدته تربية الخيول ، تلاحظ تقدما تقنيا كبيرا في دراسة خصائص الخيول وأصولها ، كما تشهد بذلك الكتب العديدة التي وضعت في هذا الموضوع ، فان الدارسين للقرن اعتمدوا بتصنيف مزايا الخيول وعيوبها وأمراضها وسرعتها ، بدقة . وهذه العناية والتفريق ، كانت أساسا لمصطلحات تقنية كثيرة ولطرق البحث سيطورها البيزنطيون والغرب المسيحي ، ولكنهم سيحتفظون ، مع ذلك بكثير من المصطلحات والكلمات العربية التي لا يزال المختصون في تربية الخيل يستعملونها حتى الآن .

ومن المسائل المهمة التي تتعلق بتربية الخيل ، مسألة التوسيع في زراعة النباتات الضرورية لغذاء الفرس ، مثل الشعير والبرسيم فان السهوب وأطراف الصحراء ، تحتوي على مراعي طبيعية ولكن مناطق الزراعة الكثيفة والحدائق ، تحتاج الى خلق مساحات زراعية بطرق صناعية ، مثل المروج المروية .

وكذلك وأينا زلزلة البرسيم تنتشر من إيران إلى ما بين النهرين ثم إلى مصر وأسبانيا غربا ، وإلى الصين عن طريق آسيا الوسطى شرقا .

والقم يربي لتوفير الغذاء للرجل ، ولكنه يربي ، خصوصا ، لإنتاج الصوف ، ومن ثم ، فإن من الطبيعي أن يرتبط التوسع والتقدم في تربية القمح ، بنمو صناعة الصوف . وهذه الظاهرة ، سنشاهدها في إنجلترا خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي حيث كانت قطعان الأديرة الإنجليزية تقدم المادة الأولية الضرورية لصناعة الألبانخ الفلمنكية .



الشكل رقم 14 - انتقال البوا من الحيوانات وتماثلها في العالم الإسلامي خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر .

وفي غضون الفترة التي تهيأ (القرن الثامن - القرن الحادي عشر الميلادي) ، كان العالم الإسلامي هو المنتج الوحيد للصوف في العالم . ونحن هنا ، بالطبع نتحدث عن إنتاج واسع النطاق ومن النوع الجيد .

والوطن الأول لتربية النعم ، هي السهول المرتفعة التي تمتد في شمال افريقية ، حيث كانت تربي سلالات ذات صوف رفيع غزير مجدّد نادر . وهذه السلالات ، تكيفت في أسبانيا بفضل البربر الذين استقروا في هذه الديار . والنعم البربري ، لا يزال يحمل باللغة الاسبانية اسم « مريزو » (Merizo) المشتقّ اما من بني مريز ، وهي قبيلة بربرية من الرحّل في المغرب الأقصى أو من الكلمة العربية « مرن » ، أي لين ناعم (الصوف) .

والى جانب تلقيها لهذه السلالة من النعم ، استقبلت أسبانيا أيضا ، طريقة البربر لتربية النعم ، وهذه الطريقة تقوم على التربية الجبائية للنعم ، بمعنى أن مجسوعة من السكان تمهد بقطع كبير للرعي الى راع مسؤول يساعده عدد من الرعاة ، على معرفة تامة بالمراعي الجيدة في الصيف وبالمناطق الجبلية ، وبهذا النظام الذي يسمى « المشتى » تسلك أسبانيا ، مؤسسة للرعي نادرة في العالم ، سيستمر العمل بها حتى القرن العشرين ، بكل ما تنطوي عليه من الامتيازات والطرق التي تسلكها القطعان ، والمراعي المخصصة لها ، والقوانين التي تضبط نشاطها ، والمصطلحات المتعلقة في تربية النعم والسرمي في اللغات القشتالية (النصيرة بالمراعي وتربية المواشي) واللغة البلنسية ، واللغة البرتغالية ، يعود كثير من ألقابها الى أصل عربي ، مثل « مشتى » (Mesta) و « المشترك » (Musarrah) و « النمام » (Alganame) ومنذ القرن الثامن والقرن التاسع الميلادي ، قامت في أسبانيا الحاديات وجسيمات تضم الرعاة وملّاك قطعان النعم . وفي هذه الفترة ، بدأ تنظيم مؤسسة المشتى التي ستتمتع وقوى ، خصوصا في القرن الثاني عشر الميلادي ، وهو عصر استعادة المسيحيين للأندلس ، وهذا العصر الذي أصبحت فيه أسبانيا مسيحية من جديد ، هو الذي ستركس فيه جهودها لتنمية وتوسيع كثير من المؤسسات الاسلامية . و « مريزو »

و « المشتى » مؤسستان في مجال تربية الغنم ، من وضع البربر في أسبانيا .

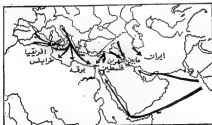
وأما تربية سلالات البقر ، فقد كانت لها أهمية أقل في العالم الإسلامي ، حيث أن حياة البقر ترتبط ارتباطا وثيقا برطوبة المناخ وبالعشب الغزير . وكذلك يرى أن تربية البقر نشاط يمارسه ، خصوصا سكان السهول الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي في المغرب الأقصى ، وفي بعض المناطق المحظوة في التل الجزائري ، وفي أسبانيا . والنقطة التي تستحق التسجيل في هذا السياق ، هي وصول الجاموس الهندي إلى العالم الإسلامي عن طريق هجرة قبائل الزط . وقد انتقل الجاموس من منطقة المستنقعات التي تمتد في دلتا نهر السند (وهي التربة المفضلة للجاموس) . ولما أبعد الزط في منتصف القرن الثامن الميلادي من هذه المنطقة إلى المستنقعات الواقعة في أسفل ما بين النهرين ، استمحبوا معهم هذه الحيوانات . ومن هناك ، انتقل الجاموس إلى سورية الشمالية حيث تكيف وأقلم في مستنقعات نهر الفاصي .

وبصفة عامة ، فقد شهد نشاط تربية الحيوانات في العالم الإسلامي توسعا وتحسينا لنوع الانتاج . ولكن هذا النشاط واجه عقبات جمة من أهمها تخريب الرعاة للغابات التي يشعلون النار فيها لكي يحولوها إلى مراعي ، وانحطاط نوع التربة والقضاء على البراعم والنباتات الصغيرة . والانحطاط في استغلال مناطق الرعي بطريقة المشتى سببت أضرار كبيرة في جزء مهم من الأراضي الأسبانية . كان سوء معاملة الغابات الناشئة ، مضافا إلى ذلك أحوال المناخ وتقلبات الطقس في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي جميع بلدان الشرق الإسلامي تهدد الغابات بأن تتحول تدريجيا إلى سهوب ثم إلى صحاري والانحطاط في استغلال الأرض للرعي ، سيؤدي إلى قيام مشكلة مهمة جدا : مشكلة الغابات .

الطبيب ومختص الفيليا

مناطق الغابات الحقيقية محدودة في العالم الإسلامي فالغابات الواقعة على الشفاف الجنوبية لبحر قزوين ، لها هي التعداد في الاتجاه الشرقي لغابات مملكة البورت (سابقا) التي تشتر بهذا الشكل من الشواطئ الشمالية في آسيا الصغرى الى الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين (جبال البرز) .

وبنفس الشكل ، تمتد الغابات السورية عند أطراف سهول الأفاضول ، حتى لبنان ، وكذلك توجد بعض الغابات في جزيرة صقلية وفي المغرب وأسبانيا . وهذه هي مساحات الغابات في العالم الإسلامي . و وراء هذه البقع الخضراء من الشجر ، في بلاد ما بين النهرين أو الجزيرة العربية ، وفلسطين ، ومصر ، و بركة ، وطرابلس ، وأفرقية ، والصحراء لا يوجد إلا الغابات .



الشكل رقم ١٩- توتر العالم الانساني والحيثي

والغابات التي تقع خارج العالم الإسلامي ، أقربها هي التي تمتد على الشواطئ الشمالية للبحر الأبيض المتوسط : غابات القرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة (أبنين ، وإلاب ، إيستري ، ودالماتيا) ، وغابات الامبراطورية البيزنطية (البلقان وآسيا الصغرى) . ولكننا اذا توجهنا الى شرق العالم الإسلامي ، وراء منطقة واسعة الأطراف من السهوب والصحراء ، ووراء امتداد المحيط الهندي ، فإن الغابات التي ستقابلنا ، هي غابات شواطئ الهند الغربية ، وخصوصا ، غابات الساحل في ملبار .

وأما مولد الغابات القديمة في الشرق وفي الحوض الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط ، فقد انقرض في استغلالها منذ وقت طويل ، في عهد حضارة ما بين النهرين وحضارات الفينيقيين والمصريين . ففي هذه اليهود ، كانت الغابات تقدم المادة الأولى لمراكز الصناعة ولتصدير المدن ، وخصوصا لبناء الأساطيل ، ولا سيما أساطيل الفينيقيين . ونتيجة لذلك ، وقع تخريب وتدمير للغابات لا يمكن تعويضه ، زاد من خطوره استغلال الرومان . لموارد الغابات بدون تمييز ولا رعاية . وقد كان لبنان ، من أكبر المنتجين لخشب الأرز في العالم القديم ، وكان يمد جميع مصانع السفن في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي بالخشب . ولكن هذا البلد توقف عن تصدير الخشب منذ العصور الوسطى العليا . ونحن الآن نعرف ماذا جرى لغابات لبنان التي كانت من أجل غابات العالم ، حيث لم يبق منها سوى بقع وأشجار منتشرة هنا وهناك .

ومع ذلك ، فإن الجبال كانت خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، أقل حرما مما هي الآن .

ومثال ذلك ، فإن جبل الإصارة (جبل العلوين) الذي شهد في القرن العاشر والقرن الحادي عشر استغلالا واسع النطاق ، وكان ينتج الخشب للتصدير ، أصبح الآن عاريا مجرد كلفة .

ومما يزيد مشكلة الغابات تعقيدا ، أن الأقبال على الخشب كان يتزايد مع مرور الزمن بظهور حاجات جديدة إلى استعماله . والحاجة إلى الخشب كانت ، أولا ، لتوفير الوقود للصناعة : صناعة المعادن والزجاج القديمة ، والصناعات الجديدة مثل السكر ، المنتشرة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط .

وهذه الظاهرة — ظاهرة تعري الجبال من الغابات — ستشهدنا جزر الأتيل ، بدورها ، في غضون القرن الثامن عشر الميلادي ، نتيجة لانتشار صناعة السكر المستخرج من قصب السكر .

وبعد ذلك ، تأتي الحاجة إلى الخشب لبناء المنازل في المدن التي تزداد اتساعا مع مرور الزمن ، ثم للأغراض الري ، حيث أن الخشب ضروري لصنع رافعات الماء ، وتبطين الآبار . ثم الحاجة إلى الخشب لبناء السفن : لبناء الأساطيل التجارية التي تزداد الحاجة إليها باتساع نطاق التبادل التجاري بالطرق البحرية والنهرية ، من جهة ، ولبناء الأساطيل البحرية لمواجهة بيزنطة التي دخلت في فضال طويل مع العالم الإسلامي من أجل السيطرة البحرية ، من جهة أخرى . ونتيجة للتوسع الذي طرأ على تقنية صناعة السفن التي زادت أحجمها وأصبحت تحمل سارية طويلة للشرع المعروف بالشرع اللاتيني ، احتاج الأمر إلى قطع طويلة من الخشب ، وبالتالي إلى أشجار أكبر .

وأخيرا ، الحاجة إلى الخشب لصناعة الأثاث ، تلك الصناعة التي ينشطها انتشار حياة البذخ في منازل الأثرياء وفي قصور الملوك .

ومتحف القاهرة يحتفظ لنا بمخازن رائعة من الخشب المحفور والمنحوت والمرصع . ونجني أن نلاحظ في هذا السياق أن الخشب يجمع قطعة قطعة . وهو يشكل مادة ثمينة يسمى الصناع نجدهم لاستغلال كل قطعة منه لغرض من الأغراض .

والنتيجة الغريبة التي نلاحظها ، هي أن تقنية استخدام الخشب سجلت تقدما في العالم الإسلامي أكبر من الذي شهدته البلدان التي تنتج كميات كبيرة من الخشب . وكذلك نرى أن البلاط اليابوي قد التجأ في القرن الرابع عشر الميلادي إلى المعدن والصناع العرب في أسبانيا لوضع سقف قصر البابا في ألبينون وتزيينه .

وقد كان الطلب للخشب قويا ، خصوصا ، في بلاد ما بين النهرين ، ومصر ، وإفريقية الشمالية ، وهي من البلدان القوية الاستهلاك والتي لا تملك موارد من الخشب . ومصر أقل هذه البلدان غابات وأشدّها اقبالا على استهلاك الخشب ، حيث أنها تملك صناعة متقدمة ، تتطلب كثيرا من الوقود (صناعة السكر ، مثلا) في الوقت الذي تحتاج فيه إلى كميات كبيرة من الخشب لأغراض الري ، وبناء المدن ، ولا سيما القاهرة الجديدة التي شيدها الفاطميون (لبناء المنازل ولمنع الأثاث) ، ثم لبناء قطع أسطولها الكبير التي تستعمل للملاحة النهرية وللملاحة البحرية : البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر .

ولحل مشكلة الخشب ، كانوا يستعملون ثلاث وسائل : أولا : تنظيم استعمال الموارد المحلية المتوافرة من الخشب . فقد كانت جميع قطع الخشب التي يمكن استعمالها لبناء السفن في مصر الفاطمية تخصص لدور صناعة السفن التابعة للدولة . وفي نفس الوقت تحاسن الغابات العمومية بعناية خاصة ومراقبة دقيقة لقطع الخشب .

وثانياً : كانت السفن المصرية والسورية تقوم بشحن هجبات على شواطئ الاناضول وداليا التابعة لبيزنطة للحصول على الخشب .

وثالثاً وأخيراً ، استيراد الخشب من البلدان البعيدة التي تملك ثروة من الغابات . وكذلك كان خشب أرمينية ينزل بواسطة تمويمه في دجلة حتى مدينة بغداد .

ومن الهند ، يستورد خشب الساج الذي ينقل الى بلاد ما بين النهرين عن طريق الخليج ، والى مصر ، عن طريق البحر الأحمر وقناة أسير المؤمنين التي يوصل فيها على طولها الطبيعي الى مستودع الخشب في ساحل الخشبة .

وأما الغرب المسيحي ، فيصدر الى العالم الاسلامي أخشاب الصنوبر والتوب التي تنتجها غابات أبنين والألب وايشري ، عن طريق ألماتي والبندقية . وكما حدث بالنسبة الى الأسلحة فقد كان تصدير الخشب ، ولا سيما في شكل قطع طويلة متوفا بعد ما حرم هذا النشاط الأباطرة البيزنطيون الذين كانوا في تضال دائم مع المسلمين من أجل السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي . ونحن نذكر بأن سلطات القسطنطينية قد أحرقت في سنة 971 ميلادية ، ثلاث سفن تابعة للبندقية كانت تنقل الخشب وكان اثنتان منها ، على وشك الانقلاع في اتجاه الهدية ، والثالثة في اتجاه طرابلس .

على أن تجار البندقية لم يكونوا يحترمون قرار حظر تصدير الخشب الى العالم الاسلامي ، أكثر مما كانوا يحترمون بالقرار الذي يتعلق بحظر تصدير الأسلحة الى هذه المنطقة . فإن هذا النشاط التجاري كان مورداً لأرباح طائلة ، حيث أن التهريب كان في جميع العصور أوفر مكسباً من التجارة المشروعة .

وكذلك نجد أن العالم الإسلامي كان يواجه حالة دقيقة للغاية ، فيما يتعلق بالحصول على ما يحتاج إليه من الخشب . وهو يعتمد على مناطق غابات بعيدة تفصل عنه وبينها مسافات طويلة وتخترقها طرق تتعرض لجميع المخاطر التي تتعرض لها العلاقات بين طرفين متباعدين . وهذا الخشب الطبيعي كثير التكاليف ويضغ ثمنه بالذهب . وفيما يخص هذه النقطة ، نجد أن العالم الإسلامي فقير ، بالقياس إلى الغرب المسيحي الذي يملك موارد لا تستنزف من الخشب . وقد ظل الغرب المسيحي يشتم بهذا الوضع حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، حينما أخذ يواجه صعوبات في تأمين المدن الكبيرة بالخشب .

وهذه الطرق التي يسلكها الخشب إلى العالم الإسلامي ، هي نفس الطرق التي تسلكها منتجات الغابات الأخرى ، مثل عسل النحل والقار والقروء .

التقصص

أدى التقصص في الخشب الذي كان يشكوه العالم الإسلامي منه إلى فرض قيود على نمو صناعة المبادئ . فإن الطرق التقليدية لمعالجة المبادئ تحتاج إلى كميات كبيرة من الخشب أو من الفحم الخشبي . وهذه الكميات من الضخامة بحيث تستهلك غابات بأسرها : فإن الحصول على 10 كيلو جرام من الحديد النقي ، يتطلب 150 مترا مكعبا من الفحم الخشبي . وكذلك كانت صناعة المبادئ في الحضارات الشرقية القديمة « تبذل » الغابات بسهولة .

وأخطر من التقصص في الخشب في تقييد صناعة المبادئ في العالم الإسلامي ، هو قنوه في المبادئ . وهذا القنوه مرجعه إلى تقصير جوف الأرض نفسه . فإن الشرق لا يحتوي إلا على مناطق قليلة من الأرض

الغنية بالمعادن . ويضاف الى ذلك ، استنزاف العروق المعدنية السهلة المنفذ ، بسبب الإفراط في استغلالها خلال آلاف السنين في بعض الحالات . وأخيرا يجب ألا تنسى النقص في تقنية معالجة المعادن ، ذلك النقص الذي ينجم عنه ضياع كميات من المعدن النقي ضمن الخبث أثناء المعالجة .

وهنا أيضا ، سيعوض الاستيراد من البلدان البعيدة ، على الأقل جزئيا ، عن النقص : فإن السفن الإسلامية والقوافل ، كانت تقصد البلدان الواقعة على أطراف العالم الإسلامي ، وبطحا بعيد جدا ، وتحمل منها المعادن الخام (الذهب ، والحديد ، والتصدير) أو المنتجات الكاملة الصنع (السيوف وأدوات الطبخ المصنوعة من النحاس) .

وأما البلدان المنتجة ، (وهي مراكز لصناعة المعادن) ، فهي الفوقاز ، وجبال الآرال ، وجبال الألباني ، والهند ، وإفريقية السوداء ، أو الغرب المسيحي . وكذلك نرى أن قاعدة المعادن التي يقوم عليها الاقتصاد الإسلامي غير متينة . فالعالم الإسلامي ، هنا أيضا ، يعتمد على الخارج .

ففيما يتعلق بالمعادن الثمينة ، الذهب والفضة ، التي هي أساس صناعة الصياغة ، فقد سبق أن أشرنا ، في سياق الحديث عن المناطق المعدنية التي تكون دور الضرب ، الى أن العالم الإسلامي لا تحتوي أرضه إلا على عدد صغير من مناجم الذهب . وهذه المناجم تقع في الجزيرة العربية وفي أرمينيا ، ويضاف الى ذلك مقلان لثراب الذهب في كرمان وفي أمبانيا (عند نهر التاجور) . ولكننا رأينا أيضا أن كميات كبيرة من الذهب المكتنز قد انحلت في دائرة النقد المتداول أثناء الفتوحات الإسلامية ، وأن الذهب كان يتدفق على العالم الإسلامي ، نتيجة لامتداد نطاق التبادل التجاري مع البلدان الواقعة في الشمال

وفي الشرق وفي الجنوب . فأما الذهب الآسيوي : فهو يأتي من القوقاز والأرال والألطاي والتبت وتركستان . ولكن ذهب افريقية السوداء ، وأولر من ذهب آسيا ونحن نستطيع أن نميز ثلاث مناطق منتجة للذهب في القارة الافريقية .

أولا : المنطقة التي تمتد بين نهر النيل والبحر الأحمر .

ثانيا : بلاد النوبة .

ثالثا : ساحل افريقية الشرقية .

ومن هذه المناطق ينقل الذهب الذي يستخرجه السود من مناجم تقع في الداخل إلى المراكز التجارية التي أقامها المسلمون على الشواطئ ، التي من بينها « سفالة الذهب » (وربما كانت هي المنطقة التي تسمى أوفير (Oufir) في العصور القديمة) . وإلى الشمال من ذلك ، يقع مركز بلاد الزنج . وأخيرا ، ينقل الذهب من شواطئ افريقية الغربية « السنغال ، والنيجر ، وساحل الذهب » ، على ظهر الجمال وقوافل البربر عبر الصحراء ، إلى بلاد المغرب .

وهذا الذهب هو الذي يوفر المادة الأولى لسك الدنانير والصناعة الصياغة التي كانت مهمة . فإن معامل الصياغة في القصور وفي الحواضر ، مثل أسواق الصياغة ، نشيطة في كل مكان . وتفقد الذهب التداولية تسبك وتصاغ ، ثم تذهب ويعاد سبكها مرة أخرى . وهذه الحقيقة تشهد بما قائمة بمخلفات القصور الناطلية ، على الرغم من قلة ما وصل إلينا من بعضها .

والفضة تستخرج في كثير من الحالات من مناجم الرصاص التي تحتوي على معادن الفضة . وبعد استخراج المعدن المختلط ، يعالج ثم

يفصل الرصاص عن النفضة . والمنطقتان الرئيسيتان اللتان يستخرج العالم الاسلامي منهما ما يفي بحاجته من المعدن الأبيض ، هما : شريط من الأرض التي تحتوي ثروتها على معدن النفضة ، يمتد في شمال إيران (من القوقاز حتى تايوان) ، حيث تقع مناجم بنجر الشجرة ، في شمال كابول ، ومناجم أسبانيا المسلمة التي استغلت بإفراط ، بحيث لم تعد تحتوي في عصرنا هذا إلا على عروق من الرصاص .

ومعدن النفضة الضروري للصياغة ولصك النقود « الدرهم » ، تستورد منه كميات كبيرة إلى مصر القديمة من هذا المعدن الذي يحظى في البلد بكمالة لا تقل عن مكانة الذهب عنه ، كما تشهد بذلك الآثار والنقوش التي لا تزال محفوظة في مساجد القاهرة .

والعالم الاسلامي لا يملك إلا ثروة قليلة من معدن الحديد . واستغلال مناجم الحديد ، في معظم الحالات يقتصر على طبقة سطحية من الأرض يسهل الحفر فيها . وهذه المناجم كانت معروفة منذ زمن بعيد ، وتقع في لبنان ، وفي افريقية الشمالية وفي أسبانيا ، وخصوصا ، تلك التي تمتد في « قسنطينة الحديد » في غربي قرطبة عند سفوح جبل القنارات (Sierra Morina)

وفي هذا المجال أيضا ، يحتاج العالم الاسلامي إلى تشكيل موارده الخاصة من البلدان المجاورة ، أو من البلدان البعيدة . فمن القوقاز ، مثلا ، يستورد العالم الاسلامي الحديد والخبراء في صناعة الحديد من ورمو تقاليد قديمة في صناعة الحديد : فان سكان وادي دافستان ، كانوا متخصصين في صناعة الفروع والزروع .

ولكن العالم الاسلامي كان يشجع خصوصا إلى الهند وإلى الغرب المسيحي ، وهي البلاد التي انتشرت فيها طرق تقنية خاصة لصناعة الفولاذ والسيوف المشهورة والتي يشتد الطلب عليها .

أصل شرقي ، تسمح لنا بتقدير أهمية التجارة في السلع الثقيلة ،
وتخصص مراكز الإنتاج التي تقع في دائرة التبادل التجاري منتجات
تساعدنا مادة أولية ثم منتجات نصف مصنعة ، ثم منتجات تامة
الصنع .



الشكل رقم ٢٠ - انتقال حديد الشرق الأوسط والهند

وأما الغرب السحي ، فإن أرضه تحتوي على عدد من مناجم الحديد
التي يستخرج الحديد منها من مستودعات غير عميقة ، وجبال الألب
الشرقية ، وجبال التيرول ، ومنطقة استيري التي كانت تسمى «نوريكم»
(Noriem) في عهد الرومان ، كانت مراكز هامة لإنتاج الأسلحة ،
وكذلك يجب أن نذكر في هذا الصدد بلاد الموزل والموز ، وبلاد رتآن
والشيمان ، في جهة نوجن أن باسني ، وجبال البيرنز الشرقية . وقد
كانت جميع هذه المناطق غنية بالنابات ويتوفر فيها الوقود بكثرة . وهذا
يسر لنا نمو صناعة المادن نموا معتبرا في الجول الرومانية وفي جبال
الألب الشرقية .

فإن الهند عرفت تقدما كبيرا في صناعة معدن الحديد ، وهذا البلد هو الذي اكتشف في أوائل العصر الذي تلى ميلاد المسيح الفولاذ المذوب في بوقته . وهذه الطريقة التي تقوم على تكرير الجزيئات ، تتج فولاذاً من النوع الرفيع وهياكل كثيرة الحجم ، ويمكن طبع رسوم على المنتجات النهائية ، وترى خصوصا على شفرات السيوف .

والمعروف أن بلدان البحر الأبيض المتوسط كانت تستورد الفولاذ الهندي منذ عهد الرومان الذين كانوا يسمونه (*Ferum indicum*) . وربما كانت مملكة الشراس الواقعة في وسط دكان وفي جنوبها ، هي التي تنتج هذا الفولاذ وتصدره . وقد اشتد الطلب على الفولاذ الهندي في العصر الاسلامي ، وأصبح يعرف باسم « هنداي » أو « هندي » (وهذه التسمية ، اشتق الاسبان كلمة (*Alende*) وهو عبارة عن مرآة من الفولاذ المصقول) .

وهذا الفولاذ الجاهز للصنع يصل الى دمشق وغيرها من المدن التي تصنع فيها الأسلحة ، ولا سيما ، مدينة طليطلة . ولكنه يستورد أيضا مباشرة من الهند في شكل مصنوعات تامة الصنع ، مثل السيوف التي كانت يجري للثل في الأدب العربي لقوتها وحدتها ومرونتها .

والجدير بالملاحظة ، أن المادة الخام للحديد الذي يصنع منه الفولاذ الهندي في الولايات الجنوبية ، كانت تستورد من شواطئ أفريقيا الشرقية ومن بلاد الزنج . وهذا الحديد كان يعتبر أفضل من الحديد الهندي لصنع الفولاذ . لهذا المعدن الذي يستخرجه السود في شكل خام لم يعالج الا معالجة خفيفة ، ينقله التجار المسلمون الى الهند ، حيث يحول الى فولاذ هندي ، ثم يصاد شحنه الى العالم الاسلامي في شكل فولاذ خام أو سيوف هندية . وهذه الطرق — طرق الحديد والفولاذ التي تمسكنا من التعرف عليها بفضل قطع من الفيلسوف من

ومن الحقائق الأساسية في الموضوع ، أن البرابرة لم يحاولوا القضاء على هذه الصناعة ، بل العكس . استفادوا لتكامل تسليح جيوشهم ، وزيادة على ذلك . فقد أضاف البرابرة طرقاً تقنية جديدة إلى هذه الصناعة التي أصبحت تنتج صفائح من الفولاذ النمل من التي كانت تنتجها في عهد الرومان . وهذا يصلق خصوصاً على ما يسمى « الدمشقي القلند » . وطبقاً لهذه الطريقة . تصنع قضبان رفيعة من معدن مختلف التركيب . بعضها من الحديد اللين . والبعض الآخر من الحديد الصلب : وتنشئ بالفولاذ . وبعد ما تنبتك القضبان طبقاً للطريقة متنوعة في التركيب . تلحم ثم تسوى وتطرق ويعاد تطبيقها . فتتخذ القطعة في شكلها النهائي مظهرها يشبه الدمشقي الحقيقي . ولكن هذا المظهر يستخلص بعد عمليات من الطرق واللحام ، ينمسا يستخلص الدمشقي الحقيقي من كتلة الفولاذ نفسها بطريقة التبريد بعد الصبر في البوتقة .

وعلى كل حال ، فإن الأسلحة التي تصنع من كلا النوعين من الفولاذ متائلة حيث أن كلا منها يشتمل على مزيج من جزء صلب وآخر أقل صلابة . ومن هنا متانة السيوف وقوة احتسائها وحدتها . مفاها إلى ذلك المرونة .

وهذه الأسلحة أمكننا أن ندرسها ، خصوصاً بفضل الآثار التي اكتشفها المثقبون في مقابر البروفانجيين . وأما قبور الكارولانجيين . فقد كانت مخفية للأمال ، حيث أن عادة دفن المحاربين بأسلحتهم . كانت قد أهدمت في القرن التاسع الميلادي . ولكن السيوف الكارولانجية . موجودة في البلاد السكافدينافية وفي منطقة الأنهار الروسية ، حيث ظلت عادة دفن الفرسان بأسلحتهم ممسولاً بها حتى القرن الحادي عشر الميلادي .

ومهما يكن من شيء ، فإن لدينا نصوصا عديدة تحدثنا عن أسلحة الغرب المسيحي ، وهذه النصوص ، أصلها من الأبراطورية الكارولانجية والأطولية أو من العالم الإسلامي .

فإن سيوف « الفرجة » أي سيوف الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة ، مشهورة جدا . وقد كان العالم الإسلامي يستورد كميات كبيرة من هذه السيوف ، عن طريق بلاد الصقالية والإندلس . وكان استيراد سيوف الفرجة ، إلى الشرق الإسلامي يتم بواسطة الأنصار الروسية وعن طريق بحر قزوين . وأما الغرب الإسلامي ، فيتلقى هذه السيوف عن طريق وادي الرون والبندقية التي كانت متخصصة ، كما رأينا في تجارة التعريب ، والتي كانت تخرق أوامر أباطرة بيزنطة التي تقضي بتحريم بيع الأسلحة والخشب للمسلمين .

بقي معدن النحاس ومعدن القصدير . إن وضع العالم الإسلامي في إنتاج النحاس أحسن من وضعه في إنتاج الحديد . ومناجم النحاس الرئيسية تقع في آسيا الوسطى وفي أعالي ما بين النهرين (منجيم أروغانة) وجنوب المغرب الأقصى وآسيايا .

وإذا كان العالم الإسلامي يستورد القصدير من الجزر البريطانية ومن شبه جزيرة ماليزيا ، فهو ، في مقابل ذلك ينتج الزئبق (التوتيا) في أرمينيا وفي أقرضية الشمالية . وقد كانت صناعة النحاس والبرونز والليطون ، مزدهرة في العالم الإسلامي ، وكان صناع الإداوات النحاسية والتجار فيها يترددون على أسواق جميع المدن الإسلامية الكبيرة .

وبخلاصة القول ، أن فقر العالم الإسلامي في المعادن (باستثناء النحاس) ، قد أجبره إلى استيراد جميع المعادن بكميات كبيرة .

وكانت الحضارة الإسلامية - وهي في توسع دائم - في حاجة مستمرة إلى المعادن الثمينة لصناعة الكساليات ولصك النقود ، وإلى المعادن الأخرى لسد الحاجات اليومية . وفي مقابل العالم الإسلامي ، يمتد الغرب المسيحي الغني بمعدن الحديد والذي يملك ثروة كبيرة من الثروات التي توفر الوقود الضروري لمعالجة الحديد . وكذلك كان الغرب المسيحي يبدو ، بثروته المعدنية التي لم تكده تمتد إليها يد الإنسان ، وكأنه عالم حديث الاكتشاف ، في مقابل بلدان قديمة انخرطت في استغلال ثرواتها الطبيعية .

الأقمشة :

إن الحضارة الإسلامية ، حضارة تقوم على صناعة النسيج لصنع الملابس ، ولكنه خصوصاً لصنع الإثاث ولو أن قطعة الإثاث الأساسية ، وأحياناً الوحيدة ، في المشرق ، هي السجاد ! والأقمشة تستعمل لصنع الملابس ولتزويق المنازل من الداخل ولصنع الخيم ، ولكنها تستعمل أيضاً لصنع الأعلام والرايات . وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي كانت المشاغل تعمل بدون انقطاع لإنتاج أقمشة رائعة : أقمشة رفيعة من الكتان والصوف الموسلي والقطن والحرير المطرز بالذهب . والمشاغل الخاصة أو « الطراز » كانت تعمل لهذا الغرض بما تحتاج إليه من الأقمشة الغالية التي تزيد من عظمة الحضلات الرسمية . والأقمشة تعتبر من الأشياء الثمينة ، وبشأنه مال احتياطي ، بحيث أن كلمة « الخزنة » في اللغة العربية تعني في نفس الوقت خزنة الدولة ، وخزانة الملابس الشخصية .

والأقمشة تستعمل في مناسبات كثيرة مكان النقود ، فتصبح هدايا وتُدفع بها المرتبات وتخلع على الأشخاص على سبيل المكافأة .

وكسوة الشرف التي تطرز باسم الأمير ، هي التي استوحى منها أمراء العرب أزياءهم . وقد قام في العالم الاسلامي نظام اجتماعي هرمي الشكل على أساس فخامة اللباس الرسمية . وهذه العادة يرجع أصلها إلى قصور الملوك الشرقيين البيزنطيين والساسانيين اعتمدوا الخلفاء العباسيون رغبة منهم في احياء تقاليد قدماء ملوك ايران باتباع المراسم وطرق التشريف التي كانت سائدة في صورههم .

وصناعة النسيج ، تعتمد في المرتبة الأولى على الصوف الذي تحدثنا عنه بمناسبة الحديث عن تربية الغنم في آسيا الوسطى وأرمينية وإفريقية الشمالية وأسيايا . والكتان ، يزرع خصوصا في مصر ، حيث كان منتشرا في الدلتا وفي مختلف المناطق الواقعة على ضفاف النيل . والترية المصرية المشبعة بالطين لثامه كثيرا كما كانت القنوات والبحيرات الشاطئية توفر له الماء الضروري .

والخيوط المستخرجة من الكتان المصري من النوع الرفيع وتستعمل لصنع ثياب من النوع الرفيع (قصب وشرب وديقي) . وعلى الشروط التي تضبط الانتاج في مصر ، نجدتها متوفرة في أعالي ما بين النهرين ، وخصوصا ، في سوريا ، هذا بالإضافة إلى بعض المناطق المحدودة الانتاج بسبب قلة المياه ، مثل سورية وإفريقية الشمالية وأسيايا .

ولكن زراعة القطن ستحل محل الكتان في أعالي ما بين النهرين ، كما سيحل محل الكتان في سوريا ، قصب السكر ، وهي تبة تتطلب ظروفًا طبيعية وبشرية تشبه الظروف التي تتطلبها زراعة الكتان : تربة عميقة ، وماء غزيرا . وزراعة الكتان سوف لا تحتفظ بمكانة مهمة إلا في مصر ، حيث تنتشر زراعة قصب السكر أيضا (ولكن زراعة القطن لم تنتشر فيها بعد) .

والقطن الذي هو مادة للنسيج . أصله من الهند : أدخلت زراعته إلى ما بين النهرين في القرن السابع الميلادي . وانتشرت في رقعة واسعة في أعالي ما بين النهرين والخابور الكبير وحران . بين دجلة والفرات . وأول ذكر لزراعة القطن في تركستان . على الطريق البوذية التي تربط الهند بالصين . عن طريق الهند - كشمير وآسيا الوسطى . يعود إلى القرن السادس الميلادي . ولكنه في القرن التالي . حينما أقيمت دعائم العالم الإسلامي ، تولفت زراعة القطن (الذي أخذ الألبان اسمه من العربية " *Algodon* " في حوض البحر الأبيض المتوسط . ولحقه نجد القطن بكثرة . في المرحلة الأولى ، في سورية ، ثم في المنطقة التي تمتد بين الفرات وحلب . وهذه المنطقة تمثل امتدادا طبيعيا لمنطقة الخابور الكبير . وفي مرحلة ثانية . انتشرت زراعة القطن في منطقة الفجر . على ضفاف البحر الميت حيث سيجد تربة منخفضة عن مستوى البحر ذات طقس حار مشرب بالرطوبة ، ثم في منطقة سبسي ، ولا سيما بين جبال طوروس والتضاريس السورية .

وكذلك نجد أن سورية كانت من أكبر البلدان المنتجة للقطن في العالم في العصور الوسطى . ولكن زراعة القطن لم تنتشر في مصر . حيث ظل الكتان ذي الإنتاج الوفير والربيع . يحتفظ بمركز قوي . وهكذا ، كانت مصر في العصور الوسطى تستورد ما تحتاج إليه من منتجات القطن من سورية والهند .

وفي المرحلة الأخيرة . انتشرت زراعة القطن إلى شمال إفريقيا لتشمل الجنوب التونسي (الجريد) والغرب الأقصى (أعالي نهر أم الربيع وسهول تادلة) : (وبواسطة الري حتى السوس الأقصى) . وأسيافيا (أسفل الوادي الأعظم) : وصقلية (ضواحي بلرم) : وجزيرة قبرص .

قيما بعد : حيث ازدهرت زراعة القطن خصوصا في عهد اللوزانيين (5)،
ثم أخيرا في جزيرة كريت حيث اتسعت زراعة القطن في عهد البندقيين .

ومادة النسيج الجديدة الثابتة في العالم الاسلامي - وهي الحرير -
الذي يقوم انتاجه على زراعة التوت وتربية دودة الحرير - ومن المعلوم
أن تربية دودة القطن بدأت وانتشرت في المرحلة الأولى في الصين ثم في
آسيا الوسطى ، على ضفاف بحر قزوين وأرمينية . وفي القرن الخامس
الميلادي ، أدخلت تربية دودة الحرير الى بيزنطة ، في سورية الشمالية .
وقد تم نقل نشاط تربية دودة الحرير من آسيا الوسطى الى
الامبراطورية البيزنطية عن طريق الناصرة .

وكما أن زراعة القطن التي استقرت في أعالي ما بين النهرين - لم
تدخل الى مناطق أخرى ، إلا بعد قيام العالم الاسلامي ، فان تربية دودة
القطن لم تنتشر إلا بعد قيام تكتل اقتصادي اسلامي واسع الأرجاء .

ومن الظواهر الغريبة أن نلاحظ في سياق انتشار المنتجات الزراعية
والثقافة الزراعية في العالم الاسلامي ، أنه في الوقت الذي انتشرت فيه
تربية دودة الحرير من تركستان الى شواطئ البحر الأبيض المتوسط .
أي ، في القرن السادس الميلادي ، كانت تركستان تتلقى زراعة القطن
من الهند .

وبعد الفتوحات الاسلامية ، انتشرت تربية دودة الحرير في جميع
شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، حيث كانت صناعة المنسوجات الرخيصة
الباذخة ممكنة بفضل الاقبال الشديد على منتجات الحرير . وكان من
ضمن المناطق المنتجة للحرير ، جنوب سورية ، وجزيرة قبرص ،

5 - (Lavigan) أسرة الخليفة ابيها من بواحي (Poles) استقر اقتصادها في الشرق
الافريقي ، وفي القبرص في عهد جي دولو لرينيان * 1129 - 1194 م . وفي مدينة القدس
نجمت هيراج الثالث ، ملكه في سنة 1284 ميلادية . - "الفرجين" .

وجنوب تونس (منطقة قابس) . وخصوصا أسبانيا الجنوبية . وجزيره صقلية . وكان السوريون هم الذين أدخلوا تربية دودة الحرير الى منطقة البشرات وضواحي جيان في الأندلس . وهؤلاء السوريون الذين استقروا في المناطق المذكورة في القرن الثامن الميلادي ، جاءوا الى أسبانيا من منطقة قسرين الواقعة في شمال سورية والمشهورة بازدهار الزراعة فيها .

وقد كان الأندلس يحتل مكانة مرموقة في الغرب المسيحي خصوصا بفضل صناعة الحرير فيه .

ولما حرر صقلية ، فقد انتشر أولا ، في الغرب المسيحي ، قبل أن يصل الى جنوب إيطاليا وشمالها .

وهكذا تمت صناعة الحرير في جميع أنحاء العالم الاسلامي وفي عهد الساسانيين ، كانت مادة الحرير المستوردة من الصين تنج في المكان الأول ، الى النماغل الأيرانية ، ولكنه لا يستبعد أن تمر كميات من الحرير الصيني عن طريق إيران الى بيزنطة .

وأما في العصر الاسلامي . فقد توقف استيراد الحرير الخام من الصين في وقت مبكر . ولكن استيراد المنتجات المصنوعة من الحرير من الصين ظل على المستوى الذي كان عليه سابقا . ومن جهة أخرى ، فإن العالم الاسلامي لا يصنع في مشاطلة جميع الكميات التي ينتجها من الحرير الخام ، حيث أنه كان يصدر نسبة معتبرة منها الى بيزنطة . وكذلك كانت مصانع نسج الحرير البيزنطية بتوقف تصادها كلية عن المادة الخام التي يزودها بها العالم الاسلامي . وذلك على الرغم من أن منطقة بتومي كانت تنتج الحرير في القرن الثاني عشر (وقيل أن هذا الانتاج بدأ في القرن العاشر الميلادي) .

والمادة المستعملة للصبغة في صناعة الحرير ، هي في المكان الأول
النيلة ، والقرمز ، والزعفران ، وقد دخلت الصبغة بالأزرق من شجرة
النيل من الهند وما بين النهرين الى المناطق الحارة المنخفضة والمروية
في النور ، ثم انتشرت الى الواحات الليبية ووسط الجريد ووسط الحفنة
والسوس الأقصى .

ويدخل شجرة النيل الى هذه المناطق ، توفقت زراعة ورد النيل
الذي كان يلون به . والقرمز عبارة عن حشرة خطراء متطفلة ، تعيش
في السديان ، وتستعمل في الصباغ باللون الأحمر ، وقد كانت تعالج
في أرمينية وفي أسبانيا . والقرمز كان ينافس البقم (أو عود البازيل
كما يسمى الآن) الذي جاء من الهند . وبانتشار البقم والقرمز ، تخلص
الناس عن نبات القوة (نبات صيفي) والريق الذي كان يستعمل في
الصباغ الأرجواني .

ولكن الصباغ بالزعفران (اللون الأصفر) كان هو المفضل والكثير
الاستعمال في المصانع الشرقية . واللون الأصفر الذي هو لون الشمس ،
ولون الإكاسرة الساسانيين ، كان يستعمل لصبغ الثياب . وتحت تأثير
العين التي كان اللون الأصفر فيها ، هو لون الإباطرة ، كان ورق
الوثائق الرسمية في العالم الاسلامي يلون بالأصفر . وكذلك اتسعت
زراعة الزعفران الذي كان يستعمل أيضا لتحسين مذاق الطعام ،
وشملت مناطق شاسعة .

وقد نجم عن انتشار زراعة المواد الأولية للنسيج ومواد الصبغة في
العالم الاسلامي ، تقدم كبير في الطرق التقنية لصناعة النسيج وتلوين
النسوجات . وصناعة النسيج بالنول المنخفض والنول المرتفع ،
وبالدواسة ، من أصل صيني . وهي تشمل صناعة السجاد ذي الخيط

المفود في نهايته (آسيا الوسطى) والسونجرد الذي تكف حوائشه
بالأبرة ، والسجاد المصري للزوج .

والأنواع الشهيرة : هي السجاد الأرميني والمصري والطرطوسي
(سورية) وكذلك اشتهرت الأقمشة الجرجانية التي تنتجها المصرة
(الأندلس) ، والأصفهانية (الطاكية) ، والديقي (من مدينة تقع في دلتا
النيل) . والعنابي (بغداد) والصقلي المنتشر في مصر وفي أعالي ما بين
النهرين وفي الإندلس .

ففي كل مكان نلاحظ امتزاج الطرق التقنية وتحسينها ، وفي كل مكان
تؤكد مراكز الإنتاج الكبيرة مكائنها بتمدد أنواع منتجاتها وبالشهرة
العالية التي تكسبها هذه المنتجات .

فكل مدينة كبيرة تخصص مراكز النسيج فيها في إنتاج نوع معين
من الأقمشة التي لها مكائنها الخاصة بها في الأسواق الدولية . بل أن
بعض مناطق العالم الإسلامي ، كانت مناطق تتميز بانتشار صناعة
النسيج فيها ، حيث تقبل المدن والقرى الصغيرة بنشاط على العمل
لإنتاج الأقمشة فيها .

وتسويق منتجات النسيج ، يفترض وجود تجار يقدمون للصانع
المواد الخام ويتولون تسويق المنتجات المصنوعة . والأقمشة المصنوعة
تعمل على حمايتها اسم المدينة التي صنعت فيها . وكذلك اشتهرت .
مثلا ، مدينة القسا ، في فارس ، بشياها الموشاة بالقصب والمصنوعة من
أقمشة الحرير الثقيلة المنموجة المظهر والتي كانت الزي المفضل في قصر
المتنعم العباسي ، كما اشتهرت بسجادها المصنوع من الصوف الثمين ،
وإعطيتها المصنوعة من الحرير وتعمل رسوما (وهي تعمل للخليفة دون
غيره) ، وبما لا يبرق بالفارسية بالسونجرد (أي الأقمشة المطرزة

بالأبرة) ، وهي أفضل من النوع المعروف بالقرقوب ، لأنها أمتن منها .
 والتطريز في النوع الأول يقوم على قياس من الصوف بينما يقوم
 التطريز في القرقوب على الحرير . والقصا ، تنتج أقمشة من الصوف
 والحرير ، كما تنتج أقمشة من الحرير الخالص التي يشتد الاقبال عليها
 في كل مكان . ومنطقة فارس - خوزستان تضم ، في قرقوب نفسها ،
 مشغلا رسميا لا يعمل إلا للإنتاج لسد حاجات الخليفة وحاشيته .
 وهذا المشغل الكبير يتكون من عدة مشاغل صغيرة للنسيج ، وتنتج
 أقمشة فاخرة وأقمشة من النوع العادي ، تصدر إلى الخارج عن طريق
 ميناء البصرة وسيراف .

والمنطقة الأخرى الكبيرة الإنتاج : هي الدلتا المصرية التي تنتج
 أقمشة من النوع الفاخر ومن النوع العادي ، والتي تشكل أهم مناطق
 الإنتاج بدون زراع ، في حوض البحر الأبيض المتوسط . وأقمشة الدلتا
 المصرية ، كانت تصدر إلى الشرق الإسلامي وإلى شواطئ المحيط
 الهندي وإلى الامبراطورية البيزنطية وإلى المغرب وإلى الموانئ
 الإيطالية .

والمادة الأولى لصناعة النسيج في مصر ، هي الكتان الذي ينتج
 محليا ولكنه يمزج بالحرير الذي يستورد من سورية أو بخصيوط
 الذهب . وأنواع المنتجات ، هنا أيضا ، متعددة ، وتتراوح بين « الشرب »
 الرفيع والأقمشة الثقيلة الصباغة والمطرزة الحوائشي بالذهب .

وصناعة النسيج في الدلتا المصرية تجري في حوالي عشرين مدينة .
 لكل منها « طرازها » الخاص ، وفي قرى تابعة لهذه المدن وتعمل بتعاون
 معها .

ومن أهم هذه المدن : ديباط ، وديق ودميرة وخصوصا تيس التي تقع في بحيرة تحمل اسمها «الثولة» . وتيس التي كانت نموذ بواسطه القوارب وتعيش على صيد السمك الوفير على أرض تغطيها المياه كلها تقريبا ، كانت تملك المياه الغزيرة التي تحتاج اليها زراعة الكتان . وكذلك كان ملقها المتسبع بالرطوبة يسبح بغل خيوط الكتان الرفيعة بسهولة . وقد كان في المدينة خمسة آلاف لول . وكان من ضمن ما تنتجه كموة الكعبة .

ومراكز صناعة النسيج في الدلتا يتخصص بعضها في صنع الأقمشة البيضاء والبعض في تبيض خيوط النسيج : والبعض في دكك الأقمشة البيضاء ، والبعض الآخر في سفل الأقمشة وتلميع الحرير (بالصمغ الذي ينتجه السودان) ، أو في الصباغة ، أو في رسم الزخارف بالذهب على الأقمشة .

وجميع هذه المنتجات كانت تصدر الى الخارج وذلك في الوقت الذي تنتقل فيه الى البلدان الأجنبية الطرق التقنية التي تصنع بها ، مما سينجم عنه محاولة تقليدها هنا وهناك . وهكذا نجد مثلا : أن « القصب » و « الديقي » ينتج أيضا في مشاغل ما بين النهرين وفارس .

وبفضل تنوع منتجاته ، احتل العالم الاسلامي مكانته الى جنب الصين وبيزنطة وهذه هي الكتل الثلاث للبلدان الكبيرة الاتساج والمصدرة للأقمشة الفاخرة .

منتجات الجبسر والتمري

وإذا استثنينا بعض الأعمدة واللوحات المنقوشة وأحواض الوضوء ، مثل التي نجدها في مدينة الزهراء ، فإن العالم الاسلامي لم يكن يصنع

شيئا من الحجر . ومادة البناء ، هي الطوب المكوي للحيطان والأقواس على السواء ، وذلك بسبب نقص الخشب . فان سلطات القضاة ، مثلا اضطرت الى الاستيلاء على أعجاز النخل لتوفير الخشب لقصر الحكومة (دار الامارة) . وفي بناء المساجد كثيرا ما يعاد استعمال أعمدة الرمر للآخونة من مباني قديمة . وكذلك كانت قرطجة محجرا استخلصت منه مواد بناء مدينة القيروان الجديدة وتونس . وقد استعملت أعمدة قرطجة وأعمدة سفاقس أيضا لبناء مدينة الزهراء بالأندلس . وأما الحيطان فهي تبنى عادة بالطوب المكوي الذي يغطي من الداخل بطلاء من مادة أخرى أفضل . بقصد إخفاء مظهر الطين المتواضع : الجص المنحوت والمنقوش والمحفور والملون أو المذهب كما في سر من رأى ، وفي منازل بني طولون في مصر ، وفي شمال إفريقيا وخاصة ألواح الزجاج الملون ، وهو ترمة التطور التقني الذي وقع فيما بين النهرين وإيران كما تشهد بذلك آثار قصور ملوك الفرس وهذه التقنية مستتشر في جميع البلدان الإسلامية الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط .

على أن البلدان التي كانت خاضعة لبيزنطة . قبل الاسلام ، ستظل على عادة التزيين بالصيفاء المصنوعة من قطع من الزجاج المذهب ومن عجينة ملونة . وكذلك كان الأمويون في دمشق أولا . ثم في قرطبة بعد ذلك ، يلجئون الى الفنانين البيزنطيين لتزيين المساجد الكبيرة . وهؤلاء الفنانون يدربون تلامذة لهم في البلاد الإسلامية يفتنون استسرار العمل بالطرق التقنية البيزنطية في مجال التزيين بالصيفاء .

والصناعة الأخرى التي تستخلص مادتها الأولية من الأرض ، هي صناعة الخزف والصيني . فان الحضارة الإسلامية قد أنتجت مروحة واسعة من الصحن والزهرجات وأحواض غسل الأيدي التي أبهى الدهر لنا على بعضها . وفي هذا المجال أيضا ، كما لاحظنا ذلك في

التزويق الخزفي ، نجد تأثيرا قسواً ما بين التهمين وقسوة ابراهيم
الساسانية . ولكن صناعة الخزف كانت : الى جانب ذلك ، تحت تأثير
نفوذ الصين الذي وصل الى العالم الاسلامي عن طرق آسيا الوسطى
التي تربط الري بسر من رأى التي اكتشفت ضمن آثارها قطع من
الفخار الصيني ، او عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر التي
تنتهي عند القسطنطينية - القاهرة : حيث كشفت الحفريات أيضاً عن
الصيني . وكلمة « الصيني » و « الصينية » ، مشتقة . كما هو واضح
من الصين .

وتقنية صناعة الفخار الصيني بلغت درجة عظيمة من التقدم ، ولا
سيما ، تلك التي يصنع بها الفخار الملمع والذي ينعكس بريقه لونا
ذهبياً هو نتيجة لطلاء الصحن أو الآنية بزجاج معدني قبل احراره .
والمراكز الكبرى لصناعة الفخار الصيني هي الري ، في إيران ، وسر
من رأى في القرن التاسع الميلادي ، ومصر في القرن التاسع والقرن
العاشر ، وإفريقية الشمالية والأندلس ، ولا سيما في مدينة الزهراء ،
في القرن العاشر الميلادي .

وهذه التقاليد التقنية في صناعة الفخار الصيني مستمرة خلال
القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر ، وستكون صحنون الفخار الكبيرة
للذهب (العربية الاسبانية) . أصل صناعة الفخار في جزيرة مايورقة
وفي إيطاليا في عصر النهضة .

وصناعة الزجاج ، صناعة قديمة في حوض البحر الأبيض المتوسط ،
اشتهرت بها في العصور القديمة مدن ، مثل صور ، وصيدا ،
والامسكندرية حيث يوجد نوع من الرمل المتنازل لصناعة الزجاج .

وقد ظلت سورية ومصر خلال العصور الإسلامية ، أكبر المراكز التي تنتج الزجاج ، وذلك فيما يتعلق بالزجاج العادي ، وزجاج البذخ ، على السواء .

ومع ذلك ، فقد ظهر مركز جديد : العراق ، كان يصدر منتجات الزجاج التي تحمل اسم « العراقي » والتي تحدث عنها المؤلفون الآسيانية السحيحة في القرن العاشر والقرن الحادي عشر الميلادي . وكؤوس البذخ التي تنتجها مصر وسورية أو العراق . كؤوس ملونة ، مذهبة ، مطلية بالبناء ، مخدومة العوالني . أو منقوشة ، كانت تصدر إلى الصين ، في مقابل الفخار الصيني الذي يستجلب من هذا البلد .

وفي عهد الحروب الصليبية ، يقوم الصليبيون بنهب تحف الكؤوس الملونة السورية ، وهم يستقدون أنها قد نحتت من الأحجار الكريمة .

وأما البندقيون ، فيحصلون قطع الكؤوس التي نهبوها وتحطمت ويميدوا صورها في البندقية ، ومن هذه العملية ، ظهرت صناعة الكؤوس في البندقية .

وفي القرن التاسع الميلادي ، ظهر مركز آخر لصناعة الزجاج في الأندلس الإسلامية ، حيث اكتشف عباس بن فرناس طريقة لصنع البلور ، بإضافة عنصر الرصاص إلى العناصر التي يصنع منها الزجاج .

وفيما يتعلق بالأحجار الكريمة ، يمكن القول بأن المسلمين كانوا يحتكرون التجارة في هذا القطاع . فالزمرد الذي يستخرج من صحراء الجزيرة العربية ومن أعالي مصر ، سيطر ، حتى اكتشاف أمريكا ، الزمرد الوحيد المعروف في العالم . قان بامير ، في بلاد بدخشان ،

تنتج يا قوتة مشهور ، وهي يا قوتة « بلدش » . التي حرف اسمها
باللغات الأوروبية الى « يا قوتة بالي » .

وأما الماس ، فكانت تنتجه سيلان والهند ، بينما كانت بلاد المغرب
والأندلس تنتج البلور الطبيعي .

وفي كل مكان ، كانت توضع كتب ورسائل يصف أصحابها مختلف
النواحي التي تتصل بالأحجار الكريمة . وهذه الكتب هي التي تسوحي
منها في الغرب المسيحي في المصور الوسطى نظريات تنزو الى الأحجار
الكريمة لخصائص سحرية .

ومن قطع الأحجار الكريمة والأحجار الصلبة بلغ أوجه في الدقة .
فقطع الضلع والتفنن كان متنازلا . بالأحجار الكريمة المنقوشة والمقنق
المحفور ، وقطع البلور الصخري الرائعة المعروفة لدينا ، هي غير شاهد
على ذلك ، وكثير من القطع النسيئة التي صنعت في العصر الإسلامي ،
لا تزال محفوظة في متحف اللوفر وفي متحف البندقية وغيرها من
المتاحف الأوروبية . وفي النقش على الأحجار الكريمة الذي حافظ
عليه العالم الإسلامي وبناء كان قد اختفى في الغرب المسيحي ، ولم يعد
اليه إلا في وقت متأخر .

منتجات البحر

يملك الشرق الإسلامي امتدادا واسعا من السواحل : البحر الأحمر
وسواحل جنوب الجزيرة وسواحل الخليج . والسك في هذه المناطق
يشكل الغذاء الرئيسي للسكان . وأما في شواطئ البحر الأبيض ،
فإن نشاط صيد السمك أقل أهمية ، بسبب ضيق المناطق السمكية
حيث أن سطح امتداد القارة في البحر محصور ، ويبدأ عمق البحر
على مسافة قليلة من الشواطئ . وصيد السمك غير ممكن إلا في عدد

من المواقع : البحيرات الشاطئية التي تمتد في دلتا النيل ، ومسطح مضيق صقلية ، وشواطئ تونس الشرقية : ومنطقة مضيق جبل طارق ، مضافا الى ذلك شواطئ المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي .

وفي جميع هذه المواقع ، كانت تستخدم الطرق القديمة لصيد السمك .

وأما صيد سمك التونة ، فيجري خلال الموسم السنوي الذي يهاجر فيه هذا الحوت ، والطريقة المستعملة هي ، لما الخطاف (وهي الطريقة التي يسير عليها صيادو السمك في مضيق صقلية في أيامنا هذه) ، أو المذرية ، وهي عبارة عن مجموعة من الشباك تمتد وتوجه اليها أسماك التونة . وهذه الشباك تسمى في الوقت الحاضر في مضيق صقلية (تونارية) (Tomaria) وكلمة «مذرية» (جمع : مذارب) ومنها اشتقت الكلمة الأروبية (Madrague) كانت تطلق على قنعة لصيد السمك مسمولة في شكل زجاجة ذات عنق ضيق .

والملح ، وهو عنصر ضروري لطبخ الطعام ، كما يستعمل في صناعة حفظ الأغذية وغيرها (الجلود) ، يستخرج من ملاحات على الشواطئ . أو من مناجم الملح في داخل البلاد . والملح يشكل مادة هامة في التبادل التجاري مع بلاد السود . فإن القوافل تنقل الملح من تغازي . وهي واحة تقع في شمال الصحراء الى تلك البلاد ، وتعود من شواطئ السينغال ونهر النيجر محملة بالذهب والعبيد .

ولكن البحر مستودع كذلك لمواد ثمينة . مثل المرجان والؤلؤ والمرشف والسلحفاة والخنزير ، والمرجان الأحمر الذي هو من خصائص شواطئ البحر الأبيض المتوسط . وهو يستخرج من مرسى الغرغز ومن القل ، (في شرق غابية) ، ومن هذه المنطقة تصدر كميات كبيرة منه

الى الخليج العربي الذي لا يوفر المرجان الأحمر ، والى الهند ، حيث تصنع منه الحلبي والتمايم التي يحملها الناس لدفع الشر ولجلب الخير . ومن هنا شدة الاقبال على المرجان الأحمر في الهند .

وقد كان المرجان الأحمر مادة كبيرة الأهمية للبيسوت التجارية اليهودية في القسطنطينية - القاهرة ، حيث كانت تتولى تصديره الى شواطئ المحيط الهندي .

وأما اللؤلؤ ، فموطه المحيط الهندي . وقد كانت مصائد اللؤلؤ في الخليج العربي تفذي المدن الإسلامية بما يصدر من انتاجها .

والتجارة في المرجان واللؤلؤ ، تفرخ أسطولا مهماا للثقل وتنظيما محكما للمصايد ، ومراتب دقيقة من التجار والسامرة وأرباب الأعمال ، وخصوصا من جيلة الضرائب والولاء ، لهذه المصايد وأما قشر السلحفاة ، فيأتي خصوصا من شواطئ أفريقيا الشرقية ، ويصدر الى القسطنطينية - القاهرة ، حيث يوجد الصناع المتخصصون في تصنيع هذه المادة .

والعنبر يتصلب في معدة السمك السمي عنبر ، وهو يوجد خصوصا في شواطئ المحيط الهندي وشواطئ المحيط الأطلسي . وقطع العنبر تنتقط على شواطئ الجزيرة العربية وأفريقية الشرقية وأفريقية الغربية ، على المحيط الأطلسي وشبه جزيرة الأندلس .

والعنبر يستعمل رائحة عطرية ، كما يوفر المادة الخام لصناعة الروائح العطرية ، حيث يخلط ببواد أخرى .

وكذلك ، نرى أن المسلمين الذين كانوا سادة التجارة في الأحجار الكريمة ، كانوا يسيطرون أيضا على مختلف المسواد الثمينة التي تستخرج من البحر .

دعمامة الكتابة

كانت الدعمامة المفضلة للكتابة في العالم القديمة ورق البردي والرق . والبردي عبارة عن صفحات من القشور مضغوطة ترتب طبقات بصورة أفقية أو عمودية ونفري ثم تلتصق بمادة كيميائية . وأما الرق فيصنع من جلد الغنم الذي يرقق ويصقل . وكان في المرحلة الأولى يصنع في آسيا الصغرى . وقد استعملت أسرة السلوقية (6) بينما استمرت أسرة لاجيد (7) على استعمال الورق البردي .

وأما الامبراطورية الرومانية والامبراطورية البيزنطية ، فكانت كتابتهما يستعمل أوراق البردي المصرية لكتابة الوثائق الرسمية والوثائق المكتوبة على ورق البردي لها قيمة الورق الذي يحمل طابعا شريفا . وأما الرق ، فقد كان يستعمل للوثائق الرسمية في مختلف عهود ملوك القرس ، بما في ذلك عهد الساسانيين .

وفي عهد الخلافة الأموية ، كان المسلمون يستعملون ورق البردي في جميع الدواوين . وفي القرن الثامن الميلادي . كانت الكتابة على ورق البردي بالحروف العربية . بدلا من الحروف اليونانية وكان ذلك في نطاق سياسة تعريب الدواوين . وأثناء حملة اسلامية .

وفي عهد الدولة العباسية التي كانت أكثر ميلا الى اعتماد التقاليد الايرانية تحت تأثير وزراء بني العباس من البرامكة ، استبدل ورق البردي بالرق في دواوين خاصتهم الجديدة ، بغداد ، في منتصف القرن الثامن الميلادي .

6 - أسرة حليبية حكمت في اسيا خلال الفترة بين 305 - 64 - ق.م . انتشاعا جيولوجوس الاول ، وكانت سوريا مركز قوة السلوقيين ودعماء دولتهم التي تقس طوعا الجدران بوسم الروماني . المرجع .

7 - أسرة حاكمة اسبانية احد أفراد الاسكندر المقدوني ، بطليموس بن لايرس ، حكمت مصر من سنة 306 حتى سنة 30 ق.م - المرجع .

وفي منتصف القرن الثامن الميلادي ، وقع تحول جوهري في دعامة الكتابة ، حين أمر جعفر البرمكي ، وزير هارون الرشيد وخفيد خالد ابن برمك ، بإدخال الورق الى الدواوين الرسمية . وأسباب هذا التحول ، فيما يروي الكتاب العرب ، ترجع الى قلة تكاليف الورق ، وخصوصا الى استحالة غسل الورق أو مسح الكلمات المكتوبة عليه دون أن يترك ذلك أثرا ، على عكس ورق البردي والرق . وباعتقاد الكتابة على الورق في عهد بني العباس تحولت الأوراق الى وثائق رسمية حقيقية .

ولكن من أين جاء الورق ؟

كانت الصين تعرف استعمال الورق منذ القرن الأول الميلادي . وكان الورق يصنع من الكتان وألياف القنب . وأقدم الوثائق المكتوبة على الورق ، فيما نعلم ، يرجع عهدها الى القرن الثاني والقرن الثالث الميلادي . وقد وصلت إلينا هذه الوثائق من تركستان الشرقية التي كانت تقع في منطقة النفوذ الصيني حتى القرن الثامن الميلادي . وهذه الوثائق محفوظة في المتحف البريطاني .

وكذلك انتشرت صناعة الرق من الصين الى آسيا الوسطى وأما إمبراطورية الساسانيين ، فهي ، إذا كانت لا تصنع الورق ، فقد كانت ، على كل حال ، تستورد هذه المادة من الصين . وبعد معركة طلاس التي انتصر فيها الجيش الإسلامي في سنة 751 ميلادية افتتحت أبواب آسيا الوسطى أمام المسلمين . والقصة التي تقول بأن أسرى صينيين قد أدخلوا صناعة الورق الى سمرقند التي كانت محاطة بحقول شاسعة من مزارع الكتان ، قصة تمثل حقيقة تاريخية . وقد كان دخول تركستان في فلك العالم الإسلامي اقتصاديا وسياسيا ، علما من شأنه أن يسهل هجرة الفنيين وطرق الصنع التقنية في الاتجاه الغربي .

ومما يجدر بنا ملاحظته في هذا السياق أن أخا جعفر البرمكي (الذي أنشأ أول مصنع للورق في بغداد في سنة 794 أو 795 ميلادية) ، كان هو الخوالي على سمرقند من قبل العباسيين في هذا التاريخ .

وهكذا انتشر استعمال الورق خلال القرنين التاسع والعاشر الميلادي في جميع بلدان العالم الاسلامي . وقد كانت مصانع الورق منتشرة في سورية حيث كان المناخ ملائماً لزراعة القنب ، وفي صقلية حيث كان يصنع في الشاطبة الورق المعروف بالشاطبي (وهذا الاسم لا يزال يطلق في المغرب الأقصى على نوع الورق الفليط) . بل أن مصر نفسها ، استتخلي عن استعمال ورق البردي ، حيث توجد نسخة من القرآن الكريم مكتوبة على الورق يرجع تاريخها الى القرن العاشر الميلادي . والوثائق الرسمية لم تعد تكتب في القرن التاسع والقرن العاشر على ورق البردي الذي لم يحتفظ الا باسمه «ورق» . وكذلك تخلت المصالح الادارية البابوية وادارة بيزنطة عن استعمال ورق البردي في نهاية القرن العاشر الميلادي .

والوثائق الفرية الاولى المكتوبة على الورق والحنوطة يرجع تاريخها الى القرن الثاني عشر الميلادي . وهذا الورق مشهور ومن التاج مصانع الإندلس وصقلية . وبيزنطة نفسها كانت تستورد الورق من سورية أو من مصر .

وأما تقنية صنع الورق ، فانها لم تصل الى الغرب المسيحي الا في القرن الثالث عشر الميلادي ، حينما أنشئت مصانع الورق الأولى في إيطاليا وفي جنوب غربي فرنسا .

المنتجات الطبية

لمس علم الطب وتطور في العصر الاسلامي ، بفضل الأطباء العرب واليهود على أساس المعلومات الطبية اليونانية المترجمة الى اللغات

السرانية والآرامية والعربية ، ويضاف الى المعلومات التي هي من أصل يوناني ، معلومات أخرى من أصل شرقي من إيران ، ولا سيما من مدرسة جنديسابور (8) ، ومن الهند .

والمعلومات الطبية اليونانية ، مثل الفكر اليوناني بصفة عامة ، تختلط بالمعلومات التي اشتملت عليها كتب أرسطوطاليس ، وهذه المعلومات مرت خصوصا ، بالمراحل التالية : انتقلت من اليونان الى سورية ثم ترجمت الى اللغة السرانية والآرامية والعربية ثم انتقلت الى المراكز العمرانية الكبرى في العالم الاسلامي ، مثل بغداد والقاهرة وقرطبة ، حيث عمل اليهود الأندلسيون لترجمتها الى اللغة اللاتينية ، وهو الشكل الذي وصلت فيه الى الغرب المسيحي : الى سلون في القرن التاسع الميلادي ، ثم الى مونبيلي .

وفي غضون الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، كانت بيزنطة تمثل جزيرة من وجهة نظر الطب . فقد كانت الاتصالات بين الشرق والغرب اللاتيني عن طريق غرب البحر الأبيض المتوسط الاسلامي ، أوثق من علاقات التبادل القاسمة بين الشرق الاسلامي وبيزنطة . فان سيمون سيث (Simon Seth) كان أول من تحدث عن السكر في بيزنطة في سنة 1075 ميلادية ، وعن العقاقير الطبية التي يستعملها العرب . ولكن العرب لم يدخلوا عالم الطب في الحقيقة الا في القرن العاشر الميلادي . حيث كان الساطرة عهدا طويلا هم الذين يديرون مدرسة جنديسابور .

8 - هكذا شكلها صاحب المراسد الاطلاع . وأما المبني ، فيوردعا باسم جنديسابور ، على مضاف اليه سابور من بلاد فارس) - مدينة إيرانية تقع في طوزستان) المسماة سابور الأول واسكن فيها أفراسيا بن اليونان السرخس . فقصا أبو موسى الاسعري في سنة 17 هـ . في عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وأخذ المصنف جنديسابور بمدرسة الطبية التي كانت تستعمل فيها اللغة الآرامية - (المعجم) .

والعلوم الهندية التي كانت تحظى برعاية خاصة في عهد الساسانيين ،
 ستلقى عناية في العهد العباسي ابتداء من سنة 750 ميلادية . وفي هذا
 العصر ، اكتسب علم الطب العربي ثروة جديدة ، ففي هذا الوقت درست
 خصائص السكر الذي تنتجه غوزستان ، في جند يسابور ، وازدادت
 أهمية السكر في صناعة الأدوية الشرقية لتحلية العقاقير الطبية وجعلها
 سائلة المذاق .

وقد كان انتشار الكتب والرسائل العلمية في موضوعات الطب ،
 وتعدد المراكز الطبية والمستشفيات (9) والصيديات في العالم الاسلامي .
 عاملا يسر لنا ما سجله علم الطب وصناعة العقاقير والأدوية من
 التقدم .

وكذلك كان من نتائج التقدم في الدراسات الكيميائية والصيدلية ،
 ظهور امكانيات جديدة لصنع الكياليات مثل ماء السورد والبنفسج
 والقرظيل ومختلف أنواع الدهان والمراهم والماسح والروائح العطرية
 والمشروبات . وافر ذلك اكست التجارة في العقاقير ومستجات الزينة
 أهمية كبيرة . وكان من بين العناصر التي ازدهرت التجارة فيها الثوب
 المصري ، والوبرق الذي تنتجه أرمينيا ومصر ، وكبريت صقلية ،
 وغير ذلك من المنتجات المستخلصة من الحيوانات والنبات مثل الثوب

9 - أول المستشفيات في الاسلام بناء الوليد بن عبد الله + 88 هـ . - وفي ايام الخلافة
 العباسية كثرت المستشفيات (والمستشفى كان يسمى بـ *بستوان* : من الفارسية)
 في بغداد وفي الأنصار . وكان كبار هذه المستشفيات هم علويون الرشيد والبركات
 وبنو قلام العلوية المتقدمة ، والقنبر العباسي ، وأم القنبر ثم مع الدولة بن
 بويه وأخوه عبد القولا ، وقد كانت مصر من البلدان التي حظيت بمشاة خاصة ،
 حيث بنى الأمويون مستشفى في القسطنطينية ثم بنى الفاطميون خليفة وزير الطبقة
 المتوكل العباسي مستشفى آخر في القسطنطينية ، ولحقا بعد بني أحمد بن طولون
 المستشفى (الأعلى) كما بنى كالمور الأشعري في 346 هـ ، ولا استقرى
 الفاطميون على مصر وبنو الجليل الأحرار ، بنوا ثروة بـ *بستوان* القنبرين ،
 وفي عهد صلاح الدين بنى المستشفى الناصري في القاهرة وبـ *بستوان* الاسكندرية ،
 وقد كثرت المستشفيات في سوريا ولبنان والحوال خصوصا لواجهة الحاجة التي
 نجمت عن الحروب الصليبية . (الترجمة) .

والأفيون المنتشر استعمالها في العالم الإسلامي للأغراض الطبية . وكذلك كان الأقبال كبيرا على الرتج وصنع جافة وصنع البلسم ، والتناع ، والأعليلج ، والرلوند ، والسنا ، والفروع ، الخ ..

بل إن الضر نفسه يؤخذ على أنه نوع من الدواء ، فيشرب بمسد إضافة بعض التوابل التي تحسن رائحته . وقد حل السكر محل العسل في عجن العقاقير الطبية . وأصل بعض هذه الأدوية محاط بالغموض والأسرار ، والبعض الآخر تروى عنه قصص وأساطير ، أو يزعمون أنه ترياق قانع لكل داء .

وفي هذه الإحتواء كان البحث يجري بنشاط عن عدد كبير من النباتات الطبية التي لا يزال بعضها يستعمل حتى يومنا هذا ، لتصديرها . ولكن العالم الإسلامي كان يستورد أيضا أعشابا طبية خصوصا من الهند والصين ومن شواطئ أفريقيا الشرقية . ونتيجة لذلك ، فقد اتخذت التجارة الدولية في العقاقير أهمية كبيرة ، وساهمت مساهمة فعالة في نمو التبادل التجاري بين العالم الإسلامي والبلدان البعيدة كما ساعدت على تغيير العادات والتقاليد ، ففي هذا العصر انتقلت زراعة الأفيون من إيران إلى آسيا الوسطى والشرق الأقصى .

المرقيق

عرف العالم الإسلامي الرقيق الذي ورث التجارة فيه عن الحضارات الكبيرة القديمة ، وخصوصا عن الحضارة البيزنطية . وقد كان المبيد القوة المحركة في العمل الجماعي في المزارع الكبرى وفي المناجم ، كما كانت اليد العاملة في المدن تتألف من المبيد والممال الأحرار على سواء .

والخدم في المنازل أيضا كانوا من الغصيان والجواري والعبيد وكذلك كان الموسيقيون والمغنون في قصور الملوك ومنازل الأعيان فان قصر الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث في قرطبة كان يحتوي على 6300 جارية ، بينما كان عدد الجواري في قصور الفاطميين في القاهرة يبلغ 12000 جارية ، وقد كانت البجوات للموسيقى التي هي من لوازم حياة الترف والبدخ : تتكون من الرقيق الذين أنشئت مدارس خاصة لتعليمهم وتدريبهم على فنون الغناء والعزف (10) والرقص والنحو والشعر (11) ، في بغداد ، والمدنية وقرطبة . والعبيد الذين يتقنون التعليم والتدريب ، يباعون بأسعار مرتفعة جدا (12) . وهذه كانت حالة اشراق السويداء ، الجارية السوداء التي اشتهرت في الأندلس في القرن العاشر الميلادي بتضلعا في النحو وفي علم العروض .

10 - يرى صاحب الألفاني من إبراهيم التوملي من الرشد قوله : « لم يكن الناس يملكون الجارية الصماء الغناء ، وأما كانوا يملكونه الصغر والسود ، وأول من علم الجوالي القناعات أبي . فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ ، ورغب من القادرين » . وفي هذا السياق يقول أبو حنيفة التمار : « وكان يبيع جارية سوداء » أما « جارية مولاة أبيها فلما كبر » .

لقد رأيت صوفي أمساك قد طلى سوجه بيا قبيحا
لا جسد له التوملي أبا شخصك فلا طرا ولا احسنا
جسدا غرسك يوحى من التيهنك المكنى به طريشا القينا

والصنف بالذم أن إبراهيم التوملي : جريا على سنة أبيه ، ألف هو وزيد حورا شركة لغراء الخوالي ولطيفين الغناء والشركة في ربحين . (المترجم) .

11 - كان يمل الغناء يستلج علم الأدب ، لأن الناس كانوا في ذلك العهد يشتون بالشعر المصنوع ، حتى شعر خير بن أبي ربيعة وشعر وسيل بن الوليد ، وكانت الفتية تحتاج لأبيات الغناء ، إلى حفظ كثير من الشعر وحرفة مطرغ التعريف ورواية علم القلة ، ولذا البرد من الجاهل من إبراهيم بن السدي أنه قال : كانت تعمل إلى جارية مصفولة في حجابات صاحبها ، فأجعب نفسي بها وأطرد الخواطر من ذكري وأحضر ذهلي جدي ، خوفا من أن يورد علي ما ؟ ألهمة : أيد طورا واشتدرا علي أن يبري علي استلحا ما في قبيح . (المترجم) .

12 - أخبار صاحب الألفاني في هذه الظاهرة وقال أن علم الجارية ينقل لبيها أصداة مفضلة . فقد عرفت جارية بطلاقة دتار ، فلما طبعها إبراهيم بن الهادي الغناء ، عرض في أمها ليلة الألف دتار ، وقد بيعت عرب الفتية الشهيرة بمائة ألف دتار ، وكان ديمان يشري جارية بدائي دتار ، ليملها ويبيعها بستر ألف دتار ، وكذلك لشري الرشيد جارية من التوملي بمائة ألفاين ألف دتار - بالترجمة -

والنوع الآخر ، والمهم أيضا في الرقيق ، هو الرقيق العسكري .
فإن حرس الملوك والأمراء ، يتكون أساسيا من العبيد ، وحرس بني
طولون في القسطنطينية في القرن التاسع الميلادي ، كان يتكون من 24
ألف من الأتراك و 40 ألف من السود ، وأما خلفاء بني أمية في قرطبة ،
فقد كانوا يملكون عشرة آلاف عبدا ، وهذا الحرس الذي تتولى
قيادته ضباط يختارون بمثابة من المتوقفين كان دائما يقوم بدور في
الدرجة الأولى من الأهمية في الحياة العامة . وقد كان ابن طولون بن
عبد تركي متوق ، كما كان أبو المسك كافور (13) ملك مصر (905 -
968 م) عبدا مخصيا .

وكما حدث بالنسبة إلى العبيد المتوقفين في الامبراطورية الرومانية ،
والمخصين في الامبراطورية البيزنطية ، فإن الشخص الذي كان عبدا
في السابق ، كثيرا ما يلعب دورا خطيرا في الحياة السياسية والعسكرية
والاجتماعية في العالم الاسلامي .

وهما يكن من شيء ، فإن التجارة في الرقيق كانت من أهم القطاعات
التجارية في العالم الاسلامي .

ولكن سكان العالم الاسلامي لا يباعون ولا يشترون عبيدا . وبعد
مرحلة الفتوحات ، لم يكن يوجد في داخل الحدود الاسلامية سوى
مسلمون وذينيون تحميمهم الشريعة الاسلامية : اليهود والنصارى وأتباع
ديانة زرادشتية ، وهذه الفئات جميعا يحرم الاسلام استبعاد أفرادها

13 - كافور بن عبد الله الأغبشي ، الأمير المشهور ، صاحب القسطنطينية ، ورد تاريخ ميلاده
في النص لمعة ، 966 م . والمصنف ما ذكره وهو يوافق 356 - 357 هـ . وكافور
كان عبدا حينما اشتراه الأغشيد ملك مصر (312) هـ . نسب إليه وأمنته لفرقه
في السلم الاجتماعي حتى وصل إلى ملكة مصر في سنة 355 هـ . وأخباره كثيرة توسع
صاحب التهجيم الزاهرة في ذكرها . وقد كان يهدي كافور على القاهرة في سنة وسبع
والسبع ، ولا حولي حول ما يوفيه إلى القسطنطينية بها . المرجع .

إذا استثنينا حالات قاهرة ، مثل الاتياع الذين قاموا بالثورة التي تحدثنا عنها في الدلائل المصرية . ونتيجة لهذه الوضعية ، فإن العالم الإسلامي يحتاج إلى استيراد العبيد من البلدان الواقعة خارج حدوده إذا لم يتم في يد المسلمين أسرى في الحرب .

وهكذا نجد ثلاثة بلدان ، أو مناطق ، هي التي توفر الرقيق ، وهي : بلاد الصقالبة (ومنها اشتقت كلمة (Slave) الأوروبية ومعناها العبد) ، وهي بلاد النابات الواسعة التي تمتد في أوروبا الوسطى وبلاد الأتراك ، أو تركستان ، أي سهوب آسيا الوسطى ، وأخيرا ، بلاد السودان التي تمتد على حافات الأدغال الإفريقية .

كان الصقالبة خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، يحتلون في الغرب المناطق التي انتشروا فيها عقب هجرة الجرمان نحو الغرب (بين القرن الثالث والقرن الرابع الميلادي) . وهذه المناطق تمتد حتى نهر الألب ونهر سال وجبال الألب الشرقية وإستري ودالماتيا والبالقان ، بل وحتى جزر البليبيوز التي ردها منها على أعقابهم بعد القرن السادس الميلادي .

وفي الشرق ، تمتد أرض الصقالبة على وجه التقريب حتى حدود النابة الشمالية الكبرى وتشمل أعالي نهر الدنيبر ، وأعالي نهر الدون ، وأعالي نهر الفولجا ، مع السن متقدمة في السهول ، حيث استطعت شعوب البوليان (Polovians) بشعوب المارغليان (Mairghians)

و وراء بلاد الصقالبة تمتد في اتجاه بحر البلطيق ، أراضي الشعوب الفينلاندية التي تشملها عند الجغرافيين الغرب كلمة « الصقالبة » .

وفي السهوب الروسية الجنوبية ، وفي جنوب نهر الدانوب ، كانت تعيش الشعوب التركية - المغولية الأصل ، الخزر ، والبلغار . والمجر .

والصقالية يعيشون عيشة تعتمد على منتجات الغابات : حيد السمك ، وسيد الحيوانات والقطف والجني . وهم موزعون في قبائل مشتة لا التحام بينها . ولكن الصقالية أخذوا يتلبرون إلى كيانات متماسكة في القرن العاشر الميلادي ، حين أسسوا دولاً في منطقتين : بوهيميا ، وبرلندا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن السكandinaviين كانوا يجوبون ، ابتداء من القرن الثامن الميلادي ، منطقة الأنهار الروسية الكبرى (الفولجا والدون والدينير) ، حيث شكلوا في القرن التاسع الميلادي أمارات روسية اسكندنافية في كييف وعلى ضفاف نهر الدينير .

وأما التجارة السكندنافية ، فكانت تتجه نحو بحر الشمال وأوروبا الغربية (ومن هناك تصلها طرق التجارة المؤدية إلى الأندلس والمغرب الإسلامي وشواطئ البحر الأبيض المتوسط) ، ونحو الجنوب ، إلى بحر قزوين والشرق الإسلامي ، وأخيراً ، نحو البحر الأسود ويزنطة .

وكانت هذه التجارة تصب خصوصاً على الرقيق المصقلي الذي كانت تصدره أماره كييف في اتجاه العالم الإسلامي ويزنطة .

وفي الاتجاه الشرقي كان المييد يبرون يبلاد الخزر ، في أسفل نهر الفولجا . وقد كانت مدينة أتييل الواقعة على ضفاف بحر قزوين تفرض ضرائب (جبركية) على الرقيق الذي يجري توزيعه فيها بين الطريق البرية المؤدية إلى باب الأبواب ، وإلى أومينا التي كانت مركزاً

للخصي ، والطريق البحرية عبر بحر قزوين ، في اتجاه طبرستان ،
والري ، وبلخ .

وطريق العبوز (الترازيت) الأخرى لتجارة المعيد ، هي التي تجتاز
بلغاريا الكبرى وتمر بمدينة بلغار الواقعة عند ملتقى نهري الفولجا
ونهر كاما . وهذه الطريق التي تمر بالسهب تؤدي الى خوارزم حيث
كانت أوجانتي السوق الرئيسية للريق في آسيا الوسطى . ولدى
كانت تابعة للدولة السامانية التي كان سلطانها يمتد ليشمل أيضا
سمرقند وبخارى ، اللتين كانتا مركزين للخصي ، ومن الشواهد التي
تدل على أهمية التجارة في الرقيق في الدولة السامانية ، تلك الكميات
الكبيرة من الدراهم السامانية التي عثر عليها ، على طول الأنهار
الروسية الكبرى (14) حيث كانت عملة الدفع لشراء الرقيق ، وغيره من
السلع التي كانت تمر بمدينة بلغار : الفراء ، والعمل ، والخيول ،
والجلد .

ومن خوارزم ، ستجّه قوافل المعيد الى آسيا الوسطى ، الى إيران
وما بين النهرين ، حيث توزع في مختلف أسواق العالم الاسلامي .

وفي الاتجاه الغربي ، كانت تجارة الرقيق تجري على يد الفرنج ،
ولا سيما التجار اليهود الذين ينتمون الى أعالي السدائوب والراين
والأراضي الواقعة على أنهار الموز والساوم والرون . ومن برهيميا ،

14 - راجع : A. Markof, Topografia Kladoj vostochnykh morej, Seira
Peterbourg, 1910.

R. Vasser وكلاهما التكميلات التي لها Trudy numizmaticheskoi
Komitij وابتداء من سنة 1972 في

Beilage Zur Ikon de Estlande وكلاهما

راجع كلاهما المبدئية التي ظهرت من طبع النقود العربية في الجولات العلمية
B. Gupilec, Bibliografia Numismatiki واليهما :
PolskiePaństwo Archeologiczne biblioteka Numismatyczna

1.

حيث كانت مدينة براغ مركزا للخصي ، يتجه العبيد الى مدينة رانسبون في ألمانيا . ومن هناك يوزع الرقيق على الأسواق الجرمانية الواقعة على شفاف أنهار الألب والصال ، ويصل الى فردان ، التي كانت سوقا كبيرة للعبيد ومركزا للخصي في نفس الوقت ، ثم الى مدينة ليون حيث يقوم التجار اليهود بتوزيع سلعتهم البشرية . وهذه الأسواق تؤكد وجودها ابن خردذبة الذي كان يكتب في سنة 847 ميلادية ، كما تؤكد رسائل أسقف مدينة ليون ، أجوبار (توفي في سنة 840 ميلادية) (15) . ومن مدينة ليون ، كان الرقيق يمر الى أربل وزيرونة ، ومن هناك يتجه الى أسبانيا ، وعن طريق البحر مباشرة الى مصر وسورية .

وأخيرا ، توجه التجارة في العبيد الى الجنوب ، نحو البندقية التي تعتبر قاعدة أساسية لهذه التجارة . فان البندقية تتلقى الرقيق الصقلي الآتي من أعالي الدانوب ومن بلاد رينان عن طريق مسارات جبال الألب ، أو من جبال الألب الشرقية وإيستري ودمالتيا . وبعد ذلك ، يقوم البحريون البندقيون بتصدير هذه البضاعة البشرية الى مسوانىء المشرق في البحر الأبيض المتوسط ، والتجارة في الرقيق كانت مربحة للغاية ، وكانت تزيد المواد الهامة التي كانت البندقية تجنيها من تعريب الأسلحة والخشب الى البلدان الاسلامية .

وكذلك نجد أن التجارة في الرقيق كانت تجارة واسعة ويجني منها من يقومون بها أرباحا طائلة . ففي القرن العاشر الميلادي ، ذكر ليونبراند (Liutprand) ، التجارة في الرقيق و « صناعة » الخصي في مدينة فردان ، ووصفها بأنها « تدر أرباحا طائلة » (16) . وما يدل

Mon. Germ. Epistol III, pp. 183 et 185.

15 - راجع :

Antaprodosis. Mon. Germ. Hist. Scriptores III, p. 196

16 - راجع :

أيضا على اتساع نطاق التجارة في الرقيق ، تلك الأرقام التي أسفر عنها تعداد العبيد الصقالية الذي أجري ثلاث مرات متوالية في قرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث (912-961) . وهذه الأرقام ، كانت على التوالي : 3750 و 6087 و 13750 عبدا . وهذا معناه ازدياد عدد العبيد بمشرة آلاف نسبة في فترة نصف قرن من الزمن . وذلك في نقطة واحدة من العالم الاسلامي .

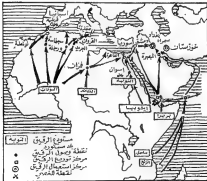
وبعد ما تفككت خلافة قرطبة في القرن الحادي عشر الميلادي ، استولى الضباط من العبيد الذين قالوا حريتهم على مقاليد الحكم في العهد المعروف باسم «ملوك الطوائف» ، وخصوصا في دالية وبلنسية .

وبينما كان الصقالية يعيشون في الغابات ، كان الترك يقيمون في سهوب آسيا الوسطى التي تمتد حتى المناطق الجنوبية في روسيا . والنقاط التي يدخل منها الرقيق الى العالم الاسلامي هي المناطق التي تقع فيها غرغانة ، والنشاش ، وما وراء النهر ، مع أسواق سمرقند ، وبخاري الواسعة ، من جهة ، وخوازرزم التي تصل اليها ، كما رأينا ، واحدة من أكبر الطرق التي ينقل فيها العبيد الصقالية والتي تسيطر عليها دولة السامانيين (القرن العاشر الميلادي) من جهة أخرى .

ومن هذه المناطق ، يناد توزيع الرقيق الصقلي الى جميع الأسواق الايرانية وأسواق ما بين النهرين ، وغيرها من أسواق العالم الاسلامي .

والهمة الأولى التي تناط بالعبيد الصقالية والأتراك في العالم الاسلامي هي تشكيل حرس الأمراء والملوك . وكذلك نرى أن الخلافة العباسية التي ولدت في خراسان ، قد اتجهت الى الاعتماد كثيرا على المالك ، ويكفي لكي ندرك أهمية هذا الاعتماد ، أن نعرف أن الخليفة المتصم

والعالم الأسود ، يشكل المورد الثالث والكبير للعبيد . وهذا المورد يشتمل على عدة مناطق : فالنوبيون يستوردون من أعالي النيل عن طريق أسوان التي هي المدخل الجنوبي للبلاد المصرية والتي كانت مركزا للخصي ، ولا سيما في الأديرة المسيحية التي تقع فيها . ف هؤلاء هم سكان بربرا الذين يوجهون خصوصا الى الخدمة في المنازل . وأما الرقيق الحبشي ، فيستورد عن طريق النيل الأزرق ، أو عن طريق موانئ البحر الأحمر الى مصر وشبه الجزيرة العربية . والعبيد الصوماليون يأتون عن طريق الزيلع الى عدن حيث ينقلون لتوزيعهم الى سوق زيد الكبيرة التي أنشئت في القرن الثامن الميلادي .



الشكل رقم ٢٣ - تجارة الرقيق الاسود

وأما الزنج الذين يأتون من شواطئ افريقية الشرقية ، أي البنطوس . فيشكلون موردا هاما لتوفير اليد العاملة في حقل التجارة الاسلامية التي عرفت ازدهارا وتوسعا كبيرا في المحيط الهندي . وهؤلاء العبيد السود ، يقعون في الأسر أثناء الغزوات أو يشترون في مقابل بضائع زهيدة القيمة من الملوك ورؤساء القبائل الزنوج . ومن شواطئ افريقية الشرقية تمر هذه البضاعة البشرية الى جزيرة سقطرة وإلى عدن ، حيث يحتشدون استعدادا لاعادة تصديرهم الى مصر عن طريق البحر الأحمر ، أو الى ما بين البحرين عن طريق الخليج . ونحن سبق أن تحدثنا عن ثورة الزنج الفظيعة في الفترة بين 868 - 883 ميلادية . وكانت كثرة العبيد الزنوج من أهم الأسباب التي أدت الى هذه الثورة .

والمورد الأخير للعبيد ، كانت هي المناطق القريبة في السودان . وهذه الأراضي كانت تستغل لتوفير العبيد خصوصا بفضل تنظيم تجارة القوافل في الذهب والعبيد عبر الصحراء . وأهم ثقات رقيق السودان ، هم التكرور السينغاليون ، والصونكي الغانيون ، والصونفاي من جوا ، والصابو ، من الكانم الذي تمتد أراضيه غير بعيد من التشاد فهذا الرقيق يصدر الى نولمة وإلى سجناسة ، ومن هناك يتجه الى المغرب الأقصى والأندلس ، أو الى ورجلة والجريد ثم الى المرسية وفزان وطرابلس وبرقة ومصر ، وما وراءها من البلدان الاسلامية في الشرق .

والى جانب الصقالية والترك والزنوج ، توجد شعوب أخرى تساهم بحظ في توفير الرق . فان العبيد الأنجلوساكسن ، يوجهون عن طريق البجول ، الى شفاف الرون وإيطاليا الشمالية والبنديقة ، أو مباشرة عن طريق إيرلاندا والمحيط الأطلسي الى سوانزه الأندلس ؛ ليصبحوا وقصر أبي دانس . وأما رقيق الهند ، فيدخل عن طريق الهند كشن ، وبلخ وسمرقند . ويضاف الى ذلك الأسرى الذين يأخذهم المسلمون في الحروب ضد بيزنطة أو في الغزوات التي يشنونها على

البلدان المسيحية في اسبانيا الشمالية والأمرى الذين يبيعهم النورمانديون
واللومبارديون الذين يشتريهم لغاسو أمالفي وغيرهم من لخاسي
إيطاليا الجنوبية ، يوجهون الى الشواطئ المقابلة للبحر الأبيض ، مثل
صقلية ، وإفريقية الشمالية ، ومصر .

والواقع أن الرق كان من أهم العوامل في الحياة الاقتصادية في
العالم الإسلامي ، فإن تدفق العبيد يسمح بشن الحرب ويساعد على
استمرار تدفق التبادل التجاري وتوسيع هذا النشاط الذي يمتد بين
آسيا الوسطى والغابة الشمالية الكبرى والسودان الغربي وشواطئ
إفريقية الشرقية والجزر البريطانية والهند . ولكنه ابتداء من القرن
الحادي عشر ، أخذ الرقيق يقل ، فإن عهد الفتوحات الكبرى قد انتهى ،
والصفائفة الذين اعتنقوا المسيحية لا يباحون للمسلمين ، وأما الأفراك
الذين اعتنقوا الدين الإسلامي ، فقد أصبحوا غير قابلين للاسترقاق .
ومن ثم ، فلم يبق سوى السود . ولكنه حتى في هذه المناطق ، تقلصت
الأراضي التي توفر الرقيق نتيجة لاتسار الإسلام في إفريقية
السوداء .

ونتيجة لهذا التطور ، نشاهد أزمة حادة في سوق اليد العاملة ،
كما حدث في عهد الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي .
وكان من نتائج هذه الأزمة ظهور ، أشكال جديدة من تنظيم اليد
العاملة .

وحركات النزوح التي وقعت في القرن الحادي عشر الميلادي (الترك
وبنو هلال والمرابطون) ، ستتحذ الطرق التي كان يسلكها الرقيق .
وقد كان فتح هذه الطرق التي تربط بين المدن الإسلامية والمجتمعات
الشوحشة التي كانت مستودعا للعبيد ، بداية جهود جديدة .



إن الانتاج الزراعي والصناعي في العالم الاسلامي خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، ينطوي على عوامل القوة وعلى عوامل الضعف في نفس الوقت . فأما عوامل القوة فمرجعها الى الفترة الزمنية نفسها . فان قواعد سيطرة العالم الاسلامي الاقتصادية ، تقوم في المكان الأول على التركة الإيجابية التي ورثها عن الحضارات القديمة التي اعتمد الاسلام طرقها التقنية وحسنها . وفي نفس الوقت ، استطاع الاسلام تفادي آثار النواحي السلبية في تلك الحضارات . وكذلك تمكن العالم الاسلامي بفضل وجود نظم للتجارة مع البلدان البعيدة ، لتتمونه ببعض المنتجات وبفضل وجود شبكة من المدن التي تحول فيها تلك المنتجات ، من الحصول على المواد التي لا يملكها أو التي لم يعد يملكها بسبب الاقراط في استغلالها في عهود الحضارات القديمة التي كانت تذر المواد الأولية .

ونواحي الضعف في العالم الاسلامي ، مرجعها ، بالضبط الى النقص في موارده الخاصة ، ولا سيما من الخشب والمعادن ، والمياه فإن المناطق التي يشملها الري ، لا يمكن توسيعها الى غير نهاية . وضيق هذه المناطق يحد من قاعدة البياعات الغذائية الشرقية . وكذلك كانت قوة الاسلام الاقتصادية معلقة على صيانة شبكة الري وشبكة الطرق التي يتدفق منها الذهب ، وعلى ازدهار الممران في المدن .

وهذا يفسر لنا كيف أن القوة التي كان مرجعها الى ظروف تاريخية معينة ، قد تحولت الى ضعف حينما اختضت امكانيات التنقل في فضاء فسيح ، أي في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر . تحسنت تأثير النزو : غزو الأتراك في الشرق ، وغزو بني هلال في المرقية الشمالية ، والموحدين في الأندلس ، والتورماتيين في صقلية والصليبيين في أسبانيا وسورية .

وأزمة العالم الإسلامي التي هي الأزمة المتكررة في بلدان الشرق
القديمة التي أقرط في استغلال مواردها وتعرضت للغزو ، زاد من
خطورتها منافسة الغرب الذي هو بلاد جديدة ، بعدما تعرض للتأثيرات
الثقافية والمعرضة على العمل والتقدم التي تلقاها من المراكز المحركة
في العالم الإسلامي نفسه . وقد استطاع الغرب بفضل تلك التأثيرات
تنظيم استغلال موارده الهائلة من الماء والخشب والمعادن — تلك الموارد
التي ظهرت أهميتها خصوصاً ، بالقياس إلى ضآلة موارد بلدان العالم
الإسلامي التي استنزفت الآن .



القسم الثالث

قوة تيار التبادل التجاري



11

12

الفصل التاسع

التبادل التجاري في العالم الإسلامي

استعرضنا في الفصول السابقة الخطوط الرئيسية لتدفق النقد ولوصول الذهب الحديث الاستخراج الذي ينعش الدورة العامة للتبادل التجاري في العالم الإسلامي ، ثم درسنا دور كبريات المدن الإسلامية بوصفها مراكز الاستهلاك والحركة الحقيقي للاقتصاد . ولكننا نحتاج الى تكميل هذه الدراسة التي تتعلق بتيارات النقد ، بدراسة أخرى عن الاتجاهات الرئيسية لتيارات السلع . وهذا البحث يضطرنا الى الحديث أولاً ، عن الوسطاء في التجارة : اليهود ، المسيحيون ، والمسلمون .

الوسطاء من اليهود

كان احترام اليهود التجار يقوم في أساسه على مجموع الجماعات اليهودية التي انتشرت في مختلف أنحاء العالم بسبب التشرذم الأول (في عهد نابوشودونوسر (Nabuchodonosor) (1)) ، ثم بالتشرذم الثاني (بعد تدمير معبد القدس) . وهذه الجماعات ، كونت صلات وروابط وثيقة بينها ، واستقرت على حافات الطرق التجارية العالمية . وهذه الطرق الدينية والتجارية ، تصل ما بين النهرين في عصر الساسانيين وأرمينيا ، وبلاد القوقاز وشواطئ بحر قزوين وبلاد الخزر (أسفل

1 - ابن خلدون يواصل (Nabopolassar) ملك بابل 605 - 562 ق.م. عن عدة حملات على مصر وغرباً مشكلة بفرطاً وجامعاً القدس في سنة 586 ق.م. ، ثم غزا مناطق من الجزيرة العربية - (الفرجاني) .

الفولجا واليهوب التي تمتد بين مملكة البونت وبحر قزوين) من
جهة ، وإيران (2) وغراسان وخولزوم وما وراء النهر ، وشواطئ
الخليج ، وأخيرا الهند « شواطئ ملبار » .

ومن سورية ومصر البيزنطية ، خرج اليهود في المرحلة الأولى الى
شمال الجزيرة العربية والى المناطق الجنوبية الشرقية فيها (اليمن) .
والحيثية وانتشروا في جميع البلدان الواقعة على البحر الأحمر ، وفي
مرحلة ثانية ، هجروا الى الواحات الواقعة على خط القصور ، من
مصر حتى المغرب الأقصى على طول الأطراف الشمالية للصحراء .
والهجرة التي وقعت في المرحلة الثانية سببها فيها اليهود تأثيرا عميقا
الأبعاد على العالم العربي البدائي ، وعلى البلاد الواقعة على شواطئ
البحر الأحمر ، وعلى العالم الصحراوي ، حيث تمسزو الأساطير الى
اليهود ادخال عدد من الطرق التقنية الى المناطق الواقعة في جنوب
جزيرة العرب .

وفي المرحلة الثالثة ، اتجه المشردون من اليهود من القسطنطينية ومن
آسيا الصغرى الى شواطئ البحر الأسود وشبه جزيرة القرم وروسيا
الجنوبية ، حيث تصل اليهودية التي تنتشر من ضفاف بحر قزوين -
بلاد الخزر - (3) وفي المرحلة الأخيرة انتشرت اليهودية من ايطاليا واسبانيا
الجنوبية ، وهي منطقة تضم كثيرا من المدن التجارية القديمة وتعتبر من
ضمن المناطق التي شملها النفوذ الفنيقي ، أي السامي في القديم ، وعن
طريق مضيق جبل طارق كان اليهود يتوغلون أيضا في الغرب المسيحي

2 - كان يوجد في إيران بلدان تسمى كل منها « اليهودية » انصاعا لبيرجان ،
والأخرى باسبيجان ، (الترجمة) .

3 - ذكر أحمد أمين في كتابه فحش الاسلام ، نقلا عن بنياشين ، أحد المرحلة اليهود الذين
دخلوا في سنة 1105 م (560 هـ) ان عدد اليهود في المملكة الإسلامية غير العرب ،
كان نحو المائتين الف . وهذا بطبيعة الحال مجرد تخمين ، وأهميته في أنه صابر
من يهود رحالة يقرض له معرفة احوال قومه . (الترجمة) .

الذي يسيطر عليه البرابرة ، وخصوصا الى لانجدوك ، ووادي الوار ،
والرون ، والصاوم ، والوز ، ووادي الراين . ومنذ العصر الليرفنجي :
لجند جريجوري دوتور (Gregoire de Tours) ، يتحدث عن «السوري»
أي ، اليهود والمسيحيين الشرقيين .

هذه المناطق كلها ، ستكون مسرحا لتجارة اليهود في العصور
الوسطى . على أن الجماعات اليهودية التي استقرت في بعض المناطق ،
كانت أكبر عدد وأوسع نشاطا من جماعات تقع في مناطق أخرى .

وأقوى الجماعات اليهودية وأكبرها عددا ، كانت هي الجماعة التي
استقرت في الشرق الساساني ، ولا سيما بلاد ما بين النهرين حيث كان
للمستعمرة اليهودية رئيس سياسي يسمى « راش جالوت » أو رئيس
المنفى ، وحيث كان نفوذ الرؤساء الدُينيين « جيونيم ، مفرد : جان »
قويا جدا . وهؤلاء الرؤساء يمثلون مدرستين دينيتين يمثلن قصود
أحدهما في سورا ، قرب الأنبار ، وقصود الأخرى في بومبيديتا
(Pombedita) التي تقع في الجنوب : ونحن نعرف أن النص الذي
يسمى بالبابلي من التلمود ، قد خرج من مدرسة سورا .

وفي الامبراطورية البيزنطية ، كانت فلسطين المركز الأكبر لليهودية .
ومن مدينة القدس ، ثم من طبرية ، بعدما طرد اليهود من القدس ،
خرج النص الذي يحمل اسم مدينة القدس من التلمود . وكذلك كانت
مصر مركزا حيا لليهود . ونحن نعرف أن أقدم نصوص الانجيل (4) .
قد خرج من الوسط اليهودي في الاسكندرية .

4 - هو النص الذي يحمل اسم « سيبين » (Sibin) ، ويمثل الترجمة الافريقية
للنسخة القديمة ، وهذه الترجمة التي وضعت في القرن الثاني والقرن الثالث الميلادي ،
هي أقدم وأشهر ترجمة الانجيل - بالترجمة .

وأما في الغرب المسيحي : فنحن نلاحظ بصفة خاصة نشاط الجماعة اليهودية القيمة في جنوب آسيايا : ذلك النشاط الذي تمت أنظار القوط الى اليهود وعرضهم للإضطهاد .

وفي صقلية وإيطاليا الجنوبية كانت تقيم جماعات من اليهود نجد آثار نشاطها واضحا في التواريخ اليهودية ، ولا سيما في أوروبا . وباري . ورومانو .

على أن المراكز التي تقيم فيها الجماعات اليهودية . لم تكن الاتصالات بينها محكمة . وهنا أيضا : نجد انفصالا تاما بين العالم الساساني والعالم البيزنطي . اللذين يشكلان منطقتين اقتصاديتين أحدهما مستقلة عن الأخرى . وبالإضافة الى كونها قليلة التنظيم وتجد منافسة من التجار اليهود والمسيحيين الشرقيين . فإن الجماعات اليهودية في المنفى تعرض للإضطهاد . فاليهود الذين كانوا يقيمون في أراضي الامبراطورية الساسانية . سيضطرون الى الهجرة جماعات ووحدا : الى أرمينيا وإلى شواطئ بحر قزوين والمحيط الهندي .

وأما الجماعات اليهودية التي يسلمها حكم بيزنطة ، فقد عانت السلطات البيزنطية على غني كثير من أعضائها خصوصا من القدس . وعهدت الى حمل آخرين على اعتناق المسيحية بالقوة . بعد ما رحبوا بالغزاة الفرس في القرن السابع الميلادي . وهنا أيضا . سيتقوم اليهود بهجرة في اتجاه البحر الأسود وإلى شواطئ بحر قزوين .

وفي الاسكندرية كانت روح المنصرية والتمييز ضد اليهود تسود منذ أقدم العصور . وكذلك كان اليهود القيمون في صقلية يفرون من سيطرة القسطنطينية المحصورة في المدن البحرية ويعبرون البحر الى إيطاليا .

وأما ممالك القوط الغربية ، فإنها لم تكن أكثر رحمة باليهود ، حيث أدى اضطهادهم العنيف في الجنوب ، وخصوصا في مالقة وثرمودة إلى هجرة واسعة النطاق إلى المغرب الأقصى حيث ستؤوي تيارات التهويد .

وهذه الاعتبارات تفسر لنا ترحيب الجماعات اليهودية بالفتح الإسلامي . وهذا الترحيب بلغ في كثير من البلدان ، ولا سيما في سورية ومصر ، درجة التواطؤ مع المسلمين ، مما سهل استيلائهم بسرعة على تلك البلاد .

وأما اليهود الذين هجروا إلى المغرب الأقصى ، فإن عددا كبيرا منهم ، سيقومون في مؤخرة الجيش البربري الفاتح لاسبانيا بحماية حراسة المدن المفتوحة ، بينما تتقدم الجيوش الإسلامية المظفرة في اتجاه الشمال .

وعلى الرغم من أن هذه الجماعات اليهودية لا ترتبط فيما بينها إلا ارتباطا خفيفا ، فقد بدأت في تكوين طبقة من التجار والصناع اليدويين الذين تدفعهم روح الكسب ويسلون وفقا للطرق التقنية التجارية والصناعية الشائعة في العالم السامي القديم . وكذلك كان اليهود يمارسون الحرف التي تتصل بالمعادن الثمينة والصياغة والدباغة والزجاج . وفي الوصف الذي خلقه لنا جاحظ طليطلة ، بن يامين (القرن الثاني عشر) ، للجماعات اليهودية نجد أن اليهود كانوا يعملون في التجارة وفي أعمال المصارف والطب والصياغة والصياغة والدباغة وفي صناعة الزجاج .

وعكذا ، فقد تهيأت الطائفة اليهودية غذاء الفتح الإسلامي لتوفير الاطارات ولتبارس نشاطا مهما في هذه الجالات .

وهذه القاعدة اليهودية التي كانت موجودة في كثير من البلدان قبل الإسلام ، نضرب لنا إلى حد ما ، سرعة تقدم الفتح العربي السريع وانتشار اللغة العربية ، خارج الكتل القوية الواقعة خارج مناطق اللغات السامية التي تتكون من الجزيرة العربية وسورية وما بين النهرين ، أي ، انتشارها في مصر وشمال افريقية على الأقل في المدن والمناطق التي تتوفر فيها طرق المواصلات خارج جبال البربر - وفي اسبانيا .

ولكن القاعدة اليهودية ، نضرب لنا بصفة خاصة ظاهرة ازدهار التجارة اليهودية التي ترتبط بالتيارات التجارية السائدة في العالم الاسلامي في الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي . وبعد ما اتخذ العالم الاسلامي شكل كتلة اقتصادية موحدة ، تكونت شبكة متجانسة منسقة من الجعاعات اليهودية التي تعمل في حقل التجارة .

وهذه الشبكة تستند لتشمل الجعاعات اليهودية القديمة المنعزلة والتي تقع على الطرق التجارية . وستلتحم هذه الجعاعات وتنظم إلى مراكز التوسع والتوغل اليهودية الرسمية . واثر ذلك ، سيقوم اتصال بين الجعاعات اليهودية في خوارزم والقوقاز والبحر الأحمر والواحات الصحراوية وبين مجمع الأخبار الرسمي ، وبين هذه الجعاعات وبين جعاعات التلمود البابلي في بلاد ما بين النهرين وجعاعات التلمود الفلطيني ، ومركز اليهودية المصرية في الاسكندرية .

ولما قام بنو العباس في القرن الثامن الميلادي ، بتأسيس بغداد التي ستكون عاصمة لخلافتهم وقطب النشاط الاقتصادي للعالم الاسلامي أخذت مراكز اليهودية في أسفل ما بين النهرين ، تعمل لتدعيم كيانها الديني ولاتبات حقوقها الفذهني .

كانت الجماعة الرئيسية اليهودية في بلاد ما بين النهرين تقطن في حي الكرخ في بغداد (5) . وكان رئيس هذه الجماعة ، كما ذكرنا ، هو الرابي جالوت الذي كان من كبار الشخصيات المقدمة في الحملات الرسية في بلاد بني العباس .

والمدرستان الدينيان اللذان تقع احدهما في سورا ، والاخرى في بومبيدينا ، غير بعيد من بغداد (والاولى يربطها بعاصمة بني العباس ، نهر اليهودية) كانتا قد اشتهرتا بسكانة رؤسائهما ، مثل جالوت سعية ، في القرن التاسع الميلادي ، الذين كانوا يعثون برودهم على أسئلة اليهود في مختلف الأماكن .

وفي مقابل ذلك ، لم يكن رؤساء مدارس فلسطين يردون على الأسئلة الا نادرا .

وكذلك نجد أن التسود البابلي هو الذي اعتدته الجماعات اليهودية في أسبانيا والجزول وبلاد رينان . والأموال التي تجبها الجماعات اليهودية في الشرق والغرب للاغراض الدينية اما كانت ترسل الى المدارس البابلية . وهكذا تبدو لنا مراكز اليهود في توستار ، في خوزستار ، ومراكز ما بين النهرين ، بمثابة مراكز عالمية لليهودية .

وهذه المراكز كانت تتجاوزها مختلف التيارات الدينية والفلسفية والصوفية ، وكانت تتفاعل مع تيارات مماثلة في الاوساط الاسلامية . فالي جانب سلطة الاجبار التقليدية الثرية ، كانت توجد نزعة اشراقية صوفية (كبال) تعاضدها .

5 - وكذلك كان يوجد ببغداد حزب يسمى حزب اليهود ، نسب اليه عدد من المحدثين منهم ابو محمد عبد الله بن عبيد الله بن يحيى البغدادي ، (الترجيع) .

وابتداء من سنة 762 م ، وطلعت نفسها طائفة « القرائين » ، التي تنادي بقرأة الانجيل وتخليصه مما وضع حوله من العوامش وبالانضمام عناصر اليهودية التقليدية الى هذه الحركة الاصلاحية تكونت شبكة أخرى من الجماعات اليهودية التي تبرز شبكة الجماعات اليهودية التقليدية .

وهذه الشبكة الاصلاحية تضم جماعات أكثر التحلما فيما بينها : وبالتالي ، فقد كانت فعالة على الصعيد الاقتصادي . ولا سيما حيث كانت تشكل أقلية في حضن اليهودية التقليدية ، وكانت تتعرض للاضطهاد مع مرور الزمن . وهذا الاضطهاد في صفوف الجماعات اليهودية الذي انطلق تياره من مراكز تقع في بلاد ما بين النهرين ، سيكون ذا أثر فعال وأهمية أساسية في تنظيم العلاقات التجارية .

وهكذا التحمت الجماعات اليهودية في مختلف المناطق في الشرق والغرب بعمل الأعيان الراسخين الذين كانوا يمارسون نشاطهم في داخل العالم الاسلامي . وقد كان كثير من علماء الدين اليهود البابليين خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، ينتسبون الى بلدان تقع على شواطئ البحر الأبيض المتوسط وهذه هي حالة الطغام معدية الذي ينتسب الى أسرة من شمال افريقية .

ولكن رسم شبكة التبادل الثقافي والديني بين الجماعات اليهودية ، يساوي رسم طرق التجارة العالمية اليهودية ، بل وفي بعض الحالات ، تحدد هذه الطرق بدقة ووضوح . ومركزية النفوذ الديني كانت ظاهرة موازية لانطلاق العلاقات التجارية من المراكز الاقتصادية الحركة في بلاد ما بين النهرين في العصر العباسي وهذه العلاقات تمتد لتشمل مناطق تقع خارج حدود العالم الاسلامي ، عن طريق الجماعات اليهودية التقليدية والجماعات الاصلاحية التي تقيم في بلاد السود ،

أو في بلاد الخزر أو في مناطق الأنهار الروسية أو في الغرب المسيحي
الخاضع لسيطرة البطريركية .

وتنظيم الجماعات اليهودية . هو الإطار الذي يجري فيه النشاط
التجاري اليهودي . وهذا التنظيم يقوم على أساس المسؤولية والنظام
الضروري لكسب الثقة في المعاملات التجارية وفي عمليات الاعتماد
والائتمان . وسواء أكان الأمر يتصل بالقوانين والمراسلين والشركاء ،
أو بالبيوت التجارية التي تملك فروعا في مختلف البلدان ، فإن تنظيم
الجماعة اليهودية المحكم ، قد وفرت له السلطات الإسلامية التي تجد
فيه فائدة لحفظ الأمن العام وموردا للضرائب ، أفضل الظروف وأكثرها
ملاءمة .

ولننظر نعرف أن نظام الحكم التقليدي في الشرق يقوم بصفة عامة
على اعتبار رؤساء مختلف الجماعات : الدينية مسؤولين عن أتباعهم .
فاليهود والمسيحيون يسكنون أحياء خاصة بهم ويمكن مراقبتها
بسهولة . والجماعة اليهودية لها رسول خاص ينحسب الي وصول القوافل
والى أهمية شحناتها ونوع السلع التي تنقلها . كما تحتفظ الجماعة
بكيس للأمانة ، وتربط بعلاقات مع الضائنين الذين يقومون بإيواء
المسافرين ، ولها قاض خاص يحكم في المعاملات التجارية ، ومراقب
للمعاملات والأسواق ، ومأمور مهتة فدية الأسرى من أبناء الجماعة ،
على أساس تعرفه معمول بها في جميع شواطئ البحر الأبيض
المتوسط .

والتجارة المربوطة بالبحر والبحر ، من اختصاص اليهود الرذائية (6)
الذين نعرفهم بفضل نص مهم لابن خردادبة « 748 م » (7) ويبدو أن

6 - راجع الخريطة 24 من 320 أسفله .

7 - كتاب المسالك والممالك ، تطبيق ديوجيوس BGA ، لندن ، 1889 ، من 114 - 116 .

كلمة راداني ، مشتقة من كلمة «نهر» وودنو : الرون . وهذا التفسير أقرب الي الواقع من الاشتقاق الذي اقترحه العالم الهولندي ، دوخويه ، منذ نحو قرن من الزمن ، والذي يقول بأن الكلمة مشتقة من الكلمة الفارسية «رهذانه» ، أي «المارء بالطرق» أو «الدليل» (8) .

فهؤلاء التجار اليهود ، يشكلون عدة جماعات موزعة على شفاف أنهار الموز والصلوم والرون ، من فردان وسان جان دولوسن وليون ، حتى آزل ، ونربونه ، الميناء الكبير الذي تمكس ذكره أسماء بعض الأسر اليهودية ، مثل «النربوني» ، وهو اسم — لا يزال منتشرا بين اليهود في حوض البحر الأبيض المتوسط .

ولكن نص ابن خردذبه الذي أثره اليه ، اذا كان عظيم الأهمية ، فهو ليس النص الوحيد الذي بين أيدينا ، لأن عددا من المؤلفين العرب والفرس يؤيدونه كما تؤكدونه تواريخ اليهود والتواريخ السلافية في المغرب المسيحي .

ومما يكن من شيء ، فإن نسبة مهمة من التجارة كانت محتكرة في يد اليهود وفي البيوت التجارية اليهودية التي لا تخصص في سلعة واحدة ، كما جرى العمل في المصور الوسطى . فإن اليهود يشترون ويبيعون جميع المنتجات التي يجنون منها فائدة : ويأتي في المكان الأول ، الأقمشة ، ومنتجات الحرير في العالم الإسلامي ، والنسيج المقصب والدباج الذي يستورد من يزنطة والذي كان يباع في أسبانيا

8 - راجع بشأن معنى كلمة راداني من التجار «الرومانيين» :

L. Rabinowitz « The routes of the radinites, the Jewish Quarterly review, 55 1944, pp. 331-380 et the Jewish », Merchant Adventurers, London, 1948.

ومن التجار الذين يشكلون هذه الطرق :

C. Cachon, Revue historique, 203, 1931, pp. 113-120 et B. Hanekeas, Juifs et Chrétiens dans le Monde occidental (430-1096) Paris - La Haye, 1960, pp. 13-15, et y-a-t-il eu des Radanites ? Revue des Etudes Juives, 1964, pp. 499-506.

في القرن العاشر الميلادي . وفي المكان الثاني ، تأتي التجارة في الحبوب — تجارة الجملة — التي تصدرها مصر الى شواطئ البحر الأحمر الخليج العربي وبنّاد ، والتجارة في السكر الذي تنتجه مناطق خوزستان والأهواز . والتجارة في هذه المادة : تسمح بتحويل الأموال الى بنّاد بامضاء بسيط ، كما يضمن اليهودي بالكتابة للخليفة ربح الضرائب في هذه الولاية . وإلى جانب ذلك ، توجد التجارة في التوابل والمقايير الطيبة ، وتجارة الذهب والمصوغات والتحف الصينية . وبالاختصار ، التجارة في كل ما هو غالي الثمن يأتي من البلدان النائية . ونحن لا ننسى خصوصا التجارة في الرقيق ، ولولايه مثل « صنع » الغصيان ، وتعليم وتدريبهم . وأخيرا ، يمارس اليهود التجارة في العملة ، وهي عملات مصرفية .

وأهمية هؤلاء التجار اليهود ظلت في ازدياد مستمر في عهد بني عباس وبلغت أقصاها في عهد الفاطميين في القاهرة (9) . فقد كان اليهود صفة عامة يحتلون مكانة مرموقة في بلاط المعبيدين . وجوهر المعروف بالصقلي ، الذي هو من إيطاليا الجنوبية والذي غزا مصر وبني القاهرة ، ولحق من هؤلاء اليهود (10) . وكذلك يعقوب بن

9 - J. Mann, *The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid* Califs, Oxford 1920-1922, I, pp. 116 et suiv.

10 - جوهر بن عبد الله الرومي ، أبو الحسن ، كان من سوالي القز المعبيدي « سيرة من القروان الى مصر » بمشفا أخصج كثيرا من ولايات الغرب الافريقي وغير ذلك مع زيري بن حداد ، الى مصر فدخلها في سنة 358 هـ . ولا يستطع الله الأمر أرسل التجار الى فتح بلاد الشام وبعثها الى ملك الفاطميين . وقد ظل حاكما على ولايات الفاطميين في الشرح ، حتى انتقل القز الى مصر في سنة 362 هـ . فعمل محله وبني جوهر في مدينة عطفه القراء ورجل الدولة وكان بناء جوهر لشاهرة في سنة 368 هـ ، وسماها « القصورية » ولكنه بعد ما قدم القز اليها سماها القاهرة ، وأما الخليج الأحمر ، فقد فرغ من بنائه في سنة 361 هـ ، وبنى جوهر في القاهرة في سنة 992 . « الفرج » .

كلس (11) وزير العزيز بن المزم الفاطمي ، والتتويج اليهود ذوي النفوذ في عهد المستنصر بالله الفاطمي .

والجدير بالإشارة أن عددا من الرسائل وضعت تتحدث باليهود وينفذهم الفاطمي في عهد الفاطميين . بل أن البعض ذهبوا إلى أبعد من ذلك واتهموا الفاطميين بأنهم من أصل يهودي . وقد كان التجار والصرافون والجماعة اليهودية التي تتمتع بثروة طائلة في الاسكندرية والقاهرة ، موضح حد خاص في المملكة .

وهكذا نرى أن المراكز التجارية الخطيرة الشأن والتي كان اليهود يحتلونها قبل الفتح الاسلامي ، قد سمحت لهم بإبقاء بدور في العصر الاسلامي في غاية الأهمية . فإن اليهود قد حلوا تدريجيا محل منافسهم من المسيحيين السوريين في التجارة في الغرب في العصر الكارولنجي ثم في عهد الملوكيين (Ottoman) . فأما المسيحيون السوريون ، فقد كانوا يقومون خصوصا باستيراد سلع الترف الشرقية إلى الغرب المسيحي . وقد كانت مراكزهم التجارية في الشرق ، بينما كانت أسواق ترويج بضائعهم في الغرب ، وأما اليهود الرادالية ، فقد كانوا ، كما يؤكد ذلك نص ابن خلدون ، يصيدون الرقيق والفراء والسيوف ، وهي تجارة مركزها في الغرب المسيحي (على سبيل المثال والبروز

11 - يعقوب بن يوسف بن ابراهيم بن حنون بن كلس ابن الفرج 930 - 940 حيا وزير من الكشاح الحساب . وقد يشهد : وسافر به أبوه إلى الشام ، ثم انتقل إلى مصر ، وعمل في العمل بتجارة الاشقيدي ، صاحب القلبي ، فراء ديوانه يصر والشام وكان من الرب المستشرقين إليه ، وفي أيام كافور أسلم ابن كلس 356 حيا الذي كان يهوديا ، وقد ذكر صاحب التيجم الزاهرة أنه بعد موت كافور ، ولي الوزارة يصر يعقل ابن الفرات الذي لبس على عهد من الأنطاكي ، منهم يعقوب ابن كلس ، وقد حرب الأخير إلى الغرب حيث حصل بالقصر ودخل في خدمته ، وقد قبله الفرس في سنة 368 ح . بالوزير الأجل ، ولكنه اعتقله في سنة 373 ح . ثم أطلق سراحه بعد شهر ، ولا خلف الوزير والده ، ولا وزيره وعملت ممراته حده ، وليعقوب بن كلس رسالة في الفقه على مذهبه الباطنية يعرف بالرسالة التورانية . (الترمذ) .

والصاوم والروث وفي الجدوك) ، واسواقها تقع في الشرق الاسلامي .
وتفسير اتجاه التجارة بين الغرب والشرق - يعود خصوصا الى ظهور
اهمية العالم الاسلامي الاقتصادية - وهو عامل سيج مبرحا واسما
لنشاط الشبكة اليهودية ويقدم لها النموذج المثالي للشود للتجارة .

على ان دور اليهود في التجارة العالمية ، سيميج ثانويا في القرن
الحادي عشر الميلادي حيث أخذت منهم هذا الدور في الغرب البيوت
التجارية والمصارف الايطالية ، وفي الشرق ، التجار الأرمن . وكذلك
كان اليهود يطردون مع مرور الزمن من الأسواق بطرق مختلفة . مثل
انشاء الشركات (في المدن الايطالية) ، وبردود العمل العنيفة لسيطرتهم .
وبمنعهم من ممارسة الأعمال ، وبالمذايح التي تعرضوا لها (بلاد رينان
خلال الحملة الصليبية الأولى) . ولما أبدعهم البندقيون عن تجارة البحر .
ثم تيق لديهم سوى التجارة بالطرق الداخلية التي تربط أعالي الدنوب
ببلاد الصقالية . وحتى في هذا المجال . سيطف دورهم ويصبح ثانويا
بحيث لا يبقى أمامهم سوى تجارة التفصيل وممارسة عمليات الأقراض
بالربا الفاحش .

ولكن اليهود تمكنوا خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي
عشر الميلادي ، من السيطرة التامة على طرق التجارة وعلى أسواق
العالم القديم . وإذا لم يكن اليهود محتكرين للتجارة العالمية في تلك
العصور ، فقد كانوا على الأقل أهم الطوائف التي تمارس التجارة ،
وكانوا موجودين ويسلمون في كل مكان .

الوسطاء المسلمون والمسيحيون

كان السوربون المسيحيون حتى العصر الاسلامي سادة التجارة بين
الشرق والغرب . ولكن اليهود أبدعهم تدريجيا عن التجارة البحرية

(البحر الأبيض والمحيط الهندي) ، فلم تبق لهم أهمية إلا في العلاقات التجارية في البر ، في مصر وسورية وما بين البحرين وأرمينيا وإيران وآسيا الوسطى . وهذه المراكز ، إنما احتفظوا بها بفضل جماعات البطانية والناطرة المنتشرة في هذه المناطق .

ونحن قد رأينا المكانة التي يستحق بها رئيس الطائفة النسطورية في بلاط الخلفاء العباسيين ، والمجمع الكنيسي كان يمتد اجتماعاته في بغداد . ولكن الشيء الذي يستحق التنويه أكثر من كل شيء في هذا السياق ، هي وظيفة الأديرة الاقتصادية ، حيث كانت الأديرة تقوم بدور المستودعات للمال وبدور المصارف ، كما كانت الشخصيات الكبيرة كثيرا ما تلجأ إليها لإخفاء الثروات التي يكتسبونها بطريقة غير شرعية . وكذلك كانت الأديرة تقوم بدور الفنادق للمسافرين ومحللات لشرب الخمر . وأخيرا ، كانت الأديرة مراكز لخصي العبيد ، وخصوصا في أرمينيا والصعيد .

والمعلومات التي نستقيها من مصادر قبطية وسريانية وعربية ، تسمح لنا بوضع الخطوط الرئيسية لشبكة العلاقات التجارية التي تربط المراكز المسيحية بعضها ببعض . تلك الشبكة التي تتصل اتصالا وثيقا بالبحر إلى بيت المقدس وزمارة الأماكن الدينية فهنا أيضا ، نجد المناخ ملائما للعمليات التجارية . وهذا المناخ نجم خصوصا ، عن طابع الاتقليات الذي يسود الجباغات المسيحية ، والثقة المتبادلة بين هذه الجباغات . على أن هذه الشبكة تنحصر في الطرق التجارية الداخلية .

والأمرن لهم مكانة خاصة في عالم التجارة (12) . وتجارهم تشمل خصوصا منطقة الاتصال بين العالم الإسلامي والامبراطورية البيزنطية .

12 - راجع اسفله الخريطة رقم 25 ، ص 322 .

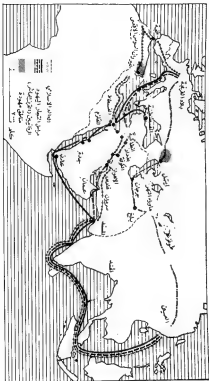
ولا سيما التجارة التي تمثل الطريق الكبير المتعددة بين أعالي ما بين النهرين وأطراف لفة ، والتوسع الذي شهده الأرمن ، يذكرنا بعض الشيء بما حققته الجناعات اليهودية التجارية فقد هاجر الأرمن الى ما بين النهرين ، ثم الى بغداد حيث شكلوا جالية مهمة ، وكذلك دخلوا الى آسيا الصغرى وإلى القسطنطينية ، حيث سيعملون جنودا مرتزقة ، ومهندسين معماريين وتجارا . بل أن الأميراطور البيزنطي ، بازل الأول (أواخر القرن التاسع الميلادي) نفسه ينحدر من أصل أرمني . وكذلك هاجر الأرمن الى سورية الشمالية حيث سيصبحون سادة التجار في عصر الحروب الصليبية . وأخيرا ، نزح الأرمن الى مصر ، حيث أصبح أحد الأرمن ، بشر الجبالي (13) في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي وزيرا للفاطمين . وقد جمع لنفسه حرسا من الأرمن ، كما كان يشجع هجرة المهندسين المماريين والتجار الأرمن الى القاهرة .

وأما المسلمون ، فإن العبارة التي يستعملونها في مستهل رسائلهم في الممانات والتي هي دعاء للخياط بأن يوفقه الله ويوفقه بقية المسلمين (التجار) ، تدل على أنهم يشعرون بخطر منافسة الطائفتين اليهودية والسيحية (14) .

ونحن نعرف نمط التجارة الخاصة بالمسلمين والتي يارسونها في أسواق مكة في موسم الحج . وهذه التجارة تستهدف تزويد الحجاج بما يحتاجون اليه ، ولكنها أيضا تنصب على السلع التي يحملها الحجاج

13 - بدر بن عبد الله الجبالي ، أبو النجم « 450 - 487 هـ » : « أمر الجيوش المصرية » ووالده الملك الأفضل فاضلشاه . أملا من أرمينيا ، اشتراء جنات القوة ملأها من ثمرى حنظل ونسب اليه ، وقام في المنطقة حتى ولي إمارة دمشق المستعصر صاحب مصر سنة 459 هـ . ثم استعدها الى مصر وقتله وإزالة « السيف والقلع » وأصبح الحاكم في دولة المستعمر وصاحب الرأي القوي . « الترجمة » .

14 - داجم - J. David Weill, Papyrus arabe d'Éfrou, Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, XXX, 1931, pp. 33-44.



معهم ، وخصوصا الأحجار الكريمة التي تغذي متاجر الصياغة والتي أشهرها الحجر المعروف باسم « الكتي » ، لأنه كانت تباع كميات كبيرة منه أثناء موسم الحج . ولكننا نجد ، هنا أيضا ، أن الجماعات المتحولة والتي تقوم على الطائفة ولا تسيطر التيار العام للدين الرسمي المنتصر (الإسلام) ، هي التي تشكل شبكة من الاتصالات التي تقوم عليها العلاقات التجارية .

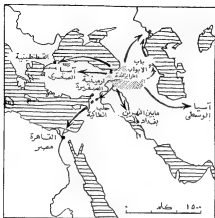
والنموذج الذي يصلح ذكره لهذه الجماعات ، هم الخوارج (15) في إفريقيا الشمالية . والمعروف أن الخوارج الذين انقسموا على أنفسهم إلى الصورية والأباضية ، قد استطاعوا تأكيد استقلالهم في وجه حكومة الخليفة المركزية . وكذلك أسس الخوارج الذين كانوا يسعون لإيجاد ملجئ لهم في الصحراء ، مدينة سجلماسة في سنة 757 ميلادية .

وقد أصبحت سجلماسة مركزا لدولة محلية (بومدار) (16) منذ أواخر القرن الثامن الميلادي ، كما تحولت بسرعة إلى ميناء صحراوي وسوق كبيرة للفخف والعبيد .

وفي نفس الفترة ، وفي المغرب الأوسط ، سطع في تيارت (تيهت) نجم الرستميين الذين هم من أصل فارسي . وقد التجأ الرستميون إلى إفريقيا الشمالية حيث اقتطفوا ثمرة حركات الخوارج التي هزت هذه البلاد خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي . وقد احتل

15 - راجع : الخريطة رقم 26 ، ص 323 .

16 - من المؤسف أن الملاحظات التي لدينا عن دولة بني مغوار ، من الصنقرية ، لليلة العايدة ، والذي ذكره ابن خلدون عنها يدل على أنها دولة يصنع النصب في احتفالها بعمرة القروان بالديمقراطية اليونانية في شكلها ، حيث أن أتباع الطائفة من حشم عليق الأمير الحاكم ، « وأهم مصنف لدينا عن بني مغوار » هو أبو عبيد البكري الذي ذكر أصلهم كما نرى في أبنائهم سجلماسة « راجع : كتيب القرب في تفسير بلاد المغرب والمغرب - تحقيق دوسلان الطيبة الثانية ، باريس 1965 ص 148 - 152 ، الترجمة » .



الشكل رقم ٢٥ - تجارة مصرية

الرومانيون جميع الغرب الأوسط والواجهة الصحراوية : في الاتجاه الجنوبي ، وفي الجنوب الشرقي من أراضي دولة الأغالة في إفريقية . وهي دولة شتية تابعة لبغداد . وكذلك كانت أراضي الدولة الرستمية تمتد من الغرب الأوسط في اتجاه جبل نفوسة ، وواحات غدامس . وفزان ، وطرابلس ، وجزيرة جربة (وفي وقت ما ، كانت تشمل جزر قابس) ، وفي الاتجاه الجنوبي الغربي ، تشمل الأراضي الواقعة في جنوب أراضي دولة الإدارة التي مقرها فاس والتي قامت في أواخر القرن الثامن الميلادي . بل أن سلطان الرستميين قد امتد حتى

سجلامة ، حيث كان يتوعدرون بمرقون بسلطهم ، وحى السوس
الاقصى ، ونولقة وشوالىء المحيط الاطلى .

وهكذا تكون خط مهم من طرق التجارة التى يساوسها الفوارج
يمشد من فزان ، حى جنوب المغرب الاقصى . وهذا الخط يحكم فى
الجنوب (عن طريق واحة الحفنة وواحة ورجلة) فى التجارة مع بلاد



الشكل رقم ٢٦ - تجارة بواحات الفوارج

السودان بواسطة القوافل عبر الصحراء وتسمح بتوغل تجارة الخوارج نحو الجنوب حتى قلب المغرب .

وأما تيمرت ، فقد كانت عاصمة الرستميين المتشددين في الأمور الدينية . ولكنها كانت أيضا مدينة لرجال يتصلون بالعزق والبراعة والإقامة في المعاملات . وهؤلاء هم الذين وسعوا أبعاد طائفة دينية منفصلة على نفسها ، لتصبح دولة تسيطر على الطرق التجارية وتنظيم العلاقات التجارية مع الخارج على أساس من الطائفة . وهذا التنظيم من جهة أخرى ، لا يخلو من بقايا نفوذ اليهودية البربرية والصحراوية القديم .

وفي أوائل القرن العاشر الميلادي ، حل الفاطميون العبيديون محل الأغلبة في إفريقية . وفي سنة 909 ، زحف جيش الفاطميين على سجلماسة ، وفي طريقه إلى هذه المدينة ، غرّب مدينة تيمرت الخارجية . وقد اضطّر آخر الأمراء الرستميين إلى الانسحاب من تيمرت إلى الجنوب ليؤسس مدينة سدراثة ، غير بعيد من ورقلة .

وفي وقت متأخر (في القرن العاشر الميلادي) ، تعرضت الخوارج للاضطهاد ، فتوغلوا في واحات مزاب ، حيث سيحفرون آبارا وينبئ مدنا . وهذه المدن تحتل موقعا عظيما وتستخدم محطات لطرق القوافل الآتية من البلاد التي تصدر الذهب والعبيد السود .

وفي المصور الحديثة ، سيتوغل بنو مزاب في اتجاه الشمال ويشربون إلى الساحل ، حيث ستظهر منهم طبقة من التجار الأثرياء الذين يمارسون خصوصا تجارة الأقمشة . وكذلك نجدهم في جيبس مدن إفريقية الشمالية يدبرون حوالمات وبقالات ، فهؤلاء التجار

يستنزفون الذهب من المناطق الشمالية ويوجهونه الى مزاب حيث يكتنزونهم ويطلقون عليه الخزائن فيقل الذهب في الأسواق وكذلك تعتبر بلاد مزاب ضمن البلدان التي تكتنز (أو « تبتلع ») الذهب .

تسللات التبادل التجاري

تستند تيارات التبادل التجاري على طول شبكة من الطرق التي تنتهي عند مراكز العمران الكبيرة في بلاد الاسلام . ففي الواجهة الشمالية بإيران وآسيا الوسطى ، ثم ببلاد الترك ، ثم بالصين أو المناطق الشمالية الغربية للهند ، وفي الواجهة الجنوبية الشرقية تستند الطرقات البحرية في المحيط الهندي من بلاد ما بين النهرين والخليج العربي ، من جهة ، ومن مصر والبحر الأحمر ، من جهة أخرى ، في اتجاه شواطئ الهند الغربية وملايو ، ثم في اتجاه سيلان واندونيسيا والهند الصينية وجنوب الصين ، أو في اتجاه بلاد الزنج « شواطئ افريقية الشرقية » وجزيرة مدغشقر .

وفي الواجهة الجنوبية الغربية ، تستند طرق القوافل عبر الصحراء بين بلاد افريقية الشمالية وبلاد السودان .

وأما الواجهة الشمالية الغربية ، فتستند فيها طرقات الملاحة النهرية والبحرية والطرق البرية التي تؤدي إما الى ما بين النهرين وأرمينية وخراسان بحر قزوين والأنهار الروسية وما وراءها في اتجاه بلاد البلطيق وأوروبا الوسطى ، وإما الى الموانئ الاسلامية في البحر الأبيض ، أو الموانئ الايطالية وموانئ لنجدوك ، وأما الى موانئ آسيا والممالك الواقعة في شمال آسيا وما وراءها ، عن طريق الممرات الجبلية في البيرينيز ، في غربي بلاد القزفة ، وإما الى بلاد الأندلس الاسلامية ، عن طريق للمحيط الأطلسي وإلى الجزر البريطانية .

الواجهة الشمالية الشرقية (17)

الخط الرئيسي في هذه المنطقة ، هي « طريق الصين » القديمة . والتي ايمتد الحياة فيها في العصر الاسلامي وازدهر النشاط التجاري فيها بقوافل الخيل ، وخصوصا قوافل الجبال (الجبال الكبيرة ذات السنامين) التي تسلكها غاذية ورائحة . وهذه القوافل تصعد من بلاد ما بين النهرين وتمر بالبحر الابيض حتى تصل الى المناطق الشمالية الشرقية : خراسان ، وتجتاز نهر جيحون (آموداريا) لتصل الى ما وراء النهر ، ثم الى الشاش وقرقانة . وبعد ذلك ، تمتد ثلاث طرق مختلفة : فالطريق التي تمتد في اتجاه الشمال الشرقي ، تمر بالسهبوب التي يستخرجها الأراك الزحل . والطريق التي تتجه الى الشرق وتمر في جنوب بلخاش ثم تصعد مع مجرى نهر ائل . أو تجتاز كشغار وتقطع حوض نهر آروم (18) حتى تصل الى منقلب النهر الأصفر (19) ، وتر بسهبوب أرموس ثم تقطع السور الأعظم ، لتصل الى عاصمة شمال الصين . خبيدائ (Hinggan) عن طريق مرور الهند كشم : الذي كان الطريق الهندي يدخل منه الى العالم الاسلامي (وكثيرا ما كان العبيد يمتدون في طريقهم هنا من البارد والتعب) . وقد كانت القوافل تتجه من الباميان ومن كابل الى وادي السند الذي كان تحت حكم المسلمين (منطقة السند) : ومن هناك تنطلق الى مختلف مناطق الهند الشمالية .

17 - راجع الخريطة رقم 3 ، ص 54 .

18 - نهر في الصين في ولاية سين - كينج ، طوله 2000 كيلو متر ، وهو يتدفق من قوقم ، ثم يتجه ويصطف كلها الهند من متناهية حتى يتصبغ في منقشحات لوب - سور - والترجيح .

19 - أو خوانج - هسو (Hsiao-Ho) نهر من انوار الصين الشمالية فتح متناهية في البيت ، ويمتد البحر الأصفر ، جون يوهي ، بيهامه - ويبلغ طول مجراه 5,200 كيلو متر ، ويمر في النهر في منقشحات الهند ، وفيه شلال كبير الأشجار ، وطبيعة جميلة الى الصلابة - والعديد بالذات ، ان سلطات الصين الشعبية تقوم في الاموال الأخيرة بأعمال كبيرة لترميم هذا النهر ، لتصبح الملاحة فيه والاستغلال مياهه الري والقوليد الكهربائي . والترجيح .

وهكذا تتضح لنا أهمية ثلاثة مراكز : خراسان (في جوانب مرو ، وحرارة ، وبلخ ، وخصوصا نيسبور التي كانت تنافس بغداد في القرن العاشر عشر الميلادي) . وخراسان تقع عند مفترق الطرق التي تنفوخ عن الطرق التجارية الكبيرة المؤدية من بغداد الى الهند ، وخوازم والصين . وخوازم ، المركز الثاني المهم ، هو منطقة دلتا جيحون (الأكسوس) على بحر آرال . وهذه المنطقة التي يقع فيها عدد من المدن الكبيرة ، مثل أورتاش (المدينة التجارية الخطيرة الشأن) ، تعتبر قطب الدائرة في التجارة مع الأتراك والهند والصين ، وهي في نفس الوقت مفتاح المداخل الى الطرق المؤدية الى ضفاف بحر قزوين وبلاد البلغار (أي وادي الفولجا) وأوروبا الشرقية .

والمركز الثالث المهم ، هي منطقة الواحات الواقعة فيما وراء النهر ، والتي تسيطر على الطرق التجارية المؤدية الى بلاد الترك والصين .

لهذه المناطق التي حددنا أهميتها ، تقع تحت سيطرة الدولة السامانية (875 - 999 م) التي كان سلطانها يمتد على خراسان ، وخوازم ، وما وراء النهر ، أي من حافة بلاد الأتراك في الشرق ، حتى شواطئ بحر قزوين . وقد كانت بخاري وسمرقند ، العاصمة السامانية ، تسيطران على الطرق المؤدية الى آسيا الوسطى ، وتشهد هذه الحقيقة تلك الكمية الكبيرة من النقود السامانية التي عثر عليها على جنبات الطرق المؤدية للأنهار الروسية ، وفي بلاد البلطيق ، وبلاد بحر الشمال والبلاد الواقعة على شواطئ البحر الأسود . وهذه النقود ، كانت محمولة متداولة قانونيا في أسواق ماينس (Mayence) (20) في القرن العاشر الميلادي . ونحن نلاحظ خصوصا كثرة النقود المكتشفة

20 - ذكر الرحالة العربي الطبرقي ، الذي ينتمي الى المدينة الاندلسية طرطوشة ، انه شاهده في سنة 973 ميلادية في أسواق ما بين دارم فريوت في سمرقند سلاخ النقود بين 913 - 915 ميلادية . راجع : الفروني عجائب الفاروقات وغرائب الموجودات تحقيق : (الفرغم) : 1848 Göttingen, Wittenfeld - 9 - 4

في المناطق التي تشكل حدود العالم الاسلامي وهي مناطق يشته الاقبال فيها على الاستيراد : منطقة خوارزم ، وخراسان ، وما وراء النهر وكل واحدة من هذه المناطق تلتقي سلعا مستوردة من المناطق المجاورة لها . فمن بلاد الترك وبلاد الصقالية : ثمر المنتجات عبر مدينة بلخار . من البلاد الواقعة على شواطئ بحر قزوين ثم الى البلاد الواقعة على الضفاف الغربية والجنوبية لبحر آرال (في جوانب مدينة أورجاش) فهذه البلاد ، تستورد القراء (قراء السهوب وخصوصا ، قراء غابات سيبريا) ، والرقيق (ونحن قد رأينا الاقبال الشديد في بلاط الخلفاء العباسيين على الماليك ، والمعادن : الحديد الخام والأسلحة) التي كان الأتراك يعتبرون خيرا في صنعها (والنحاس الخام والأواني المصنوعة من النحاس والبلد (من اختصاص النورمانديين) .

وفي مقابل هذه المنتجات ، كان العالم الاسلامي يصدر الى بلاد الأتراك أنواعا من الأقمشة الحريرية وبعض المنتجات الزهيدة القيمة ، ولكنه كان يصدر خصوصا قطع النقود .

ومن الصين ، كانت تستورد المنتجات الحريرية (حرير الصين وخيطان) ، ولو أن انتشار الطرق التقنية لثروة دودة الحرير في العالم الاسلامي سرعان ما جعل هذا المورد بدون فائدة . على أن المنتجات المصنوعة من الحرير ، سيستمر الاقبال عليها وتستورد باعتبارها من منتجات الترف والصينيين بدورهم . على الرغم من درجة التكامل التي الذي وصلت اليه صناعتهم . وعلى الرغم مما تنافس به منتجاتهم من الجودة الفنية . كانوا يقبلون على شراء الأقمشة الرخيصة التي ينتجها العالم الاسلامي . وهذه الحقيقة تثبتها المصادر الصينية . ويشهد بها تأثير الزخارف المطبوعة الإيرانية - الاسلامية على بعض التصاميم من الأقمشة التي لا تزال محفوظة لدينا من نسج الحرير الصيني .

ثم ان منتجات الحرير ، ليست هي السلعة الوحيدة التي تصب عليها التجارة بين العالم الاسلامي والصين . فانه الصين كانت تصدر الى العالم الاسلامي أيضا القطار الصيني ، والورق المذهب ، والتحف الصينية . والتجارة بين الصين والعالم الاسلامي عن طريق آسيا الوسطى ، تتميز بدخول وخروج العملة بصورة يبدو الميزان التجاري فيها متوازنا .

ومن شمال الهند ، أي ، أعالي نهر مهراڻ ، وادوية جبال الهملالا والتبت ، كان العالم الاسلامي يستورد الرقيق الهندي والتبتي ، وأقمشة الكشمير ، وشعر الماعز ، والروائح العطرية ، وخصوصا ، المسك الذي يأتي من بلاد التبت (وهو من أفراز الأيل الأسمر) .

وتجارة العالم الاسلامي مع الهند ، مثل تجارته مع بلاد الترك تسم بتأرجح الميزان التجاري في صالح البلدين الآخرين . وباستزاف عملة الذهب (ومن هنا اكتسب الذهب في الهند) وعملة القطة الإسلامية (الهند كانت تدير على نظام النقد الذي يقوم على القطة . والروبية معناها باللغة السنسكريتية « القطة ») .

الواجهة الجنوبية الشرقية

الأنق التجاري هنا ، هو المحيط الهندي ، وهي منطقة للبلادة من القرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب . وتنظيم الملاحة في الاتجاهين يخضع خصوصا للرياح الموسمية (Moussons) بالفرنسية (Monsons) بالبرتغالية ، والكلمة من أصل عربي) . وأما في جنوب خط الاستواء فبأن الرياح تهب من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي . والفاصل بين منطقة الرياح الموسمية والمنطقة الواقعة جنوب خط الاستواء هو الفاصل بين منطقة استكشفت ويجري فيها نشاط الملاحة ، ومنطقة خالية لم تستكشف بعد .

المحيط الهندي منطقة كان العرب والفرس يمارسون فيها نشاطاً ملاحياً قوياً منذ أقدم العصور . وكذلك عرفها الملاحون الإسكتنديون ابتداء من القرن الأول بعد الميلاد . كما عرفها ملاحو ماليزيا الذين كانوا يسرون فيها بالسرقاص . والرأي متفق على وجود هجرة من ماليزيا إلى جزيرة مدغشقر في عصر قديم نسبياً (21) .

وفي غضون الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي كان البحارة المسلمون يسيطرون على نشاط الملاحة في المحيط الهندي وفي هذه الفترة وقع حدث هام : ظهور الشراع المثلث الأضلاع الذي كان من خصائص الملاحة في المحيط الهندي ، في البحر الأبيض المتوسط؛ حيث أصبح يعرف باسم « الشراع اللاتيني » .

وقد سمحت الملاحة في المحيط الهندي بقيام تبادل تجاري مهم ، كما سمحت بنقل مزروعات هندية إلى شواطئ الخليج العربي وإلى سورية ، من جهة ، وإلى شواطئ أفريقية الشرقية ، وجنوب الجزيرة العربية ، والبحر الأحمر ومصر ، من جهة أخرى : فإن الوثائق ، مثلاً ، تشهد باستعمال التنبول في اليمن منذ القرن التاسع الميلادي . وكذلك سمح طريقان ، طريق الخليج وطريق البحر الأحمر ، بالتحام منطقتين ، المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط ، وبالتالي الطرق البحرية والتجارات والمعادن في إحدى المنطقتين بشيأتها في المنطقة الأخرى .

21 - المصدر الوحيد الذي يصرح بذكر هذه الهجرة ، فيما نعلم ، هو ابن سعيد المغربي (القرن السابع الهجري) ، « حقا يحدث من جزيرة القمر (مدغشقر) ، ولاندنيا » قرية - والنص الذي يصرح بهذه الهجرة من كتاب الجغرافيا ، « أخبار » بعض العلماء الأروبيين القاطنين في طريق آسيا الجنوبية الشرقية من عبر الولايت التي شكلها البنا العرب من أصول الأندلس وانتقلت القديسة (راجع : ابن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل المغربي ، طبع بيروت 1970) من 86 - 87 ، وطريق المشرق على هذا النص ، من 222 - 223 ، « الأفريقية » .

ولكن سيطرة العالم الاسلامي على المحيط الهندي تطوي على بعض التحفظ . فقد أدى ازدهار بندق والبصرة والمجارات التي نجمت عنه الى السلع والمنشآت في العصر العباسي ، خلال الفترة بين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن العاشر الميلادي ، الى ظهور أهمية الخليج العربي . ولكن الفاطميين كونوا سلطنة منافسة للعباسيين في نهاية القرن العاشر ، ونتيجة لذلك ، ازدهت التماس بين الخليج العربي والبحر الأحمر . قد كان ميناء القلزم وخصوصا ميناء عيذاب ، حلقة وصل بين هذا البحر ، من جهة ، والنيل والبحر الأبيض المتوسط ، من جهة أخرى .

ومهما يكن من شيء ، فإن الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، كانت فترة نمو وتوسع للتجارة الاسلامية على جميع شواطئ المحيط الهندي ، وفي الطرق المؤدية الى الصين . وهذا التوسع ، كان يعتمد على الجاليات الاسلامية التي استقرت في مختلف البلدان ، وعلى السفن الاسلامية التي كانت تبني بخشب الداج . وعلى النقود الاسلامية ، حيث كان الدينار الاسلامي يسير في كل اتجاه مع طرق التجارة العالمية .

ونتيجة لهذا التوسع ، أخذت تظهر مدن على شواطئ افريقية الشرقية (بلاد الزنج) ، وفي مقدمتها مهبدة وبراوة . حيث وجدت قبوش بالخط الكوفي يعود عهدها الى القرن الثامن الميلادي . وأما مسجد زنجبار ، فيرجع عهده الى القرن الحادي عشر . ووراء هذه السواحل التجارية ، تمتد الخطوط التي انتشر الاسلام عن طريقها الى داخل افريقية ، وهي الطرق التي كان السود ينقلون بواسطتها منتجاتهم الى منشآت المسلمين التجارية على الشواطئ .

وكذلك اتسعت التجارة الإسلامية بالتوسع على شواطئ ملبار (حيث بنى المسلمون مسجداً ، وكان للتجارية الإسلامية فيها فاضليهما الخاص الذي يسمى : هوارمان) وفي سيلان (سرديب عند المؤلفين العرب ، وسري لانكا حالياً) ، وفي جزر الهند (حيث لم ينتشر الإسلام حقيقة إلا في وقت متأخر ، ولكن قشوشا عربية وجدت فيها ويرجع عهدها إلى سنة 1082 ميلادية) ، وفي الهند الصينية (حيث وجدت نقوش عربية يعود تاريخها إلى القرن العاشر والقرن الثاني عشر للميلادي) ، وأخيراً في الصين ، في ذروة عهد سلالة الطانج وأباطرة الصونج الأوائل (بين القرن السابع والقرن العاشر) : حيث كان المسلمون يترددون على ميناء قانتون المشهور والذي يسميه الجغرافيون العرب ، خاشو .

وأما طريقة التبادل التجاري في المحيط الهندي ، فيمكن تحليلها كما يلي : يشحن التجار في مصر سلماً زهيدة القيمة (المرجان وأمشاط العظم وقضبان الحديد) ، أو حبوباً ، ويصلونها إلى شواطئ المحيط الهندي حيث يبادلونها بمنتجات تلك البلدان (البخور والعاج وقرون وحيد القرن ودروع السلحفاة والكافور والعود السقطري) التي ينقلونها إلى الصين ، وهناك يشتدلون هذه المنتجات بدورها بمنتجات صينية عالية القيمة (الحرير والقنار الصيني ، والتحف الخ) ، يصلونها إلى مصر ، ومن هناك يبعثون تصديرها إلى الأسواق العالمية الكبيرة .

ولكن التجار المسلمين يمتدنون العالم الإسلامي أيضاً مباشرة بالتصدير الذي تنتجه ماليزيا ، وبالخشب والثيلة والبقم الهندي والأحجار الكريمة، والمؤلوف الذي يستخرج في سيلان وفي الخليج العربي والبحر الأحمر . والكهرمان والأسلحة ودروع السلحفاة التي تنتجها البحار الجنوبية والتي تزود بها أسواق الصنائع في مدينة القسطنطينية .

وأخيرا ، فإن شواطئ المحيط الهندي تمثل المورد الرئيسي بل الوحيد ، للتوابل والمطور والطيب والأعشاب الطبية . وقد أصبحت التجارة في العقاقير بصفة خاصة خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي . نتيجة للتقدم الذي حققه الطب العربي . وقد كان ميناء الاسكندرية هو المركز الذي يصاد فيه توزيع العقاقير على مختلف المناطق الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولا سيما إلى قرطبة وإلى الغرب للسيحي ، من جهة ، وإلى بيزنطة حيث حاول ليون الأرميني ، امبراطور بيزنطة (813 - 820 م) وقتا ما وضع حد لهذه التجارة بمنعه رعاياه من السفر إلى مصر وسورية ، بينما أمر بأن تعرض في الأسواق أعشاب (مشابة للأعشاب التي ترد إلينا من الهند) .

الواجهة الجنوبية الغربية

وعنا أيضا ، نشاهد استمرارا وازدهارا : فإن العالم الإسلامي قد استحوذ على تيار العلاقات التجارية القديمة ووسع لمعاتها توسيعا كبيرا . وهذا التيار هو الذي دفع بالبربر الرحل أصحاب الجبال في غضون الفترة بين القرن الرابع والقرن الثامن الميلادي إلى التوغل إلى الجنوب ، عبر الصحراء الكبرى ، وإلى الشمال ، في اتجاه الساحل الجزائري .

وهذه الظاهرة البالغة الأهمية في المصور الوسطى العليا . لا تزال مع الأسف ، مجهولة التفاصيل التاريخية . كما أن تقدمها في الرقعة الجغرافية غير معروف ، بسبب عدم وجود مصادر معاصرة للأحداث .

ومعنا يمكن من شيء ، فنحن نشاهد منذ القرن الثامن الميلادي (وسجلت أسست في سنة 757 م) تجارة العالم الإسلامي تضم هذه الشبكة من طرق القوافل إلى الشبكات التي تمتد في الشرق أو على

خلفاء البحر الأبيض المتوسط ، وتفتح بذلك آفاقا واسعة في العلاقات التجارية العامة بحيث تفسح عالم السود ، أو بلاد السودان ، والساحل الجديدة التي ينصب عليها التبادل التجاري في هذه المنطقة . هي : كما رأينا ، الذهب والعبيد والعبر الذي تتجه شواطئ افريقية الغربية على المحيط الأطلسي ، والصنغ الذي يستعمل لتسليح منتجات الديدج في الأندلس والطرق التي يسلكها التجار ، هي أيضا طرق من دالة نولطة لها .

ومن هاتين المدينتين الواقعتين في شمال الصحراء ، تنطلق ثلاثة طرق تجارية ، يسير أحدها شواطئ المحيط الأطلسي حتى السينغال (التكرور ، سيلا ، جاديارو) . التي تصل إليها القوافل : بعد سفر يستغرق شهرين . والطريقان الآخران يفترقان عند سجداسة أحدهما يؤدي إلى النور ، والآخر إلى تغازي : ثم يلتقيان عند محطة القوافل الكبرى ، أودغست . وأودغست ، على اتصال بسلكة غامة . والمدينة عبارة عن مدينتين : يسكن أحدهما للسلمون التجار والوسطاء ، ويسكن الأخرى السود الصولكيون . وهي مدينة مشهورة بالتراء وبالعدد الكبير من الحارين الشجعان من أبنائها .

وهذان الطريقان الأخيران هما أقصر من الأول ، حيث لا يستغرق السفر لهما سوى شهر ونصف الشهر ، ولكنه أكثر تكاليف للمسافرين (22) .

والشبكة الثانية من الطرق ، تتكون من الطرق التجارية المؤدية إلى المغرب الأوسط : تيمرت وجنوب الجزائر . وهذه الطرق التي تنطلق

22 - انظر بحداسة هذه الطرق دراسة مفصلة لماخرا الملائق :

D.S. Robert et J. Devisme

Tagdoust I, Recherches sur Aoudagost, T.I. Paris 1970.

في كتابهما :

من ملجأ الخوارج في ورجلة وسدراثة ومناب ، تؤدي اما الى تمنازي وأودغست ، أو الى تدمكة (السوق حاليا) ، في أدرار إفريقية ، وراء كاوكاو (جاو - Geo) في بلاد السوناي . وتدمكة تتكون ، هي الأخرى ، من مدينتين ، على غرار أودغست .

والشبكة الثالثة من الطرق . هي الطرق التي تمتد لنشر النفود الثقافي وغيره ، من الشمال الى الجنوب . وهذه الطرق ، هي التي انتقلت بواسطها زراعة القمح والقمح وأنواع جديدة من الحيوانات (الجبل والفرس) ، وطرق جديدة للصناعة ، والباط جديدة للتنظيم الاجتماعي (المدينة والدولة) .

وهذه الطرق التجارية الكبيرة تنفرع عنها ثلاث شبكات من طرق القوافل ، حفرت على أطرافها آبار وتشد عليها ولحات النخيل . انطلاقا من جزيرة المغرب ، حتى ساحل الشيفال .

والشبكة الأولى ، تنطلق من جنوب المغرب (السوس الأقصى) ومن فاس في اتجاه المدينتين الكبيرين الى الصحراء ، وهما نولطة الواقعة عند مصب نهر نون (بين وادي سوس ووادي درعة) وسجلماسة . قاعدة القوافل الكبرى الجديدة التي يمكن مقارنتها من حيث الأهمية . يبدن القوافل في العصور القديمة ، مثل تدمر والبراء (سلع) ، ومكة وسجلماسة التي تقع وسط حدائق النخيل في منطقة تافيلالت (وادي زير) ، كانت دائما موضع نزاع بين الرستميين والفاطميين ، وقد بلغت سجلماسة أوج عظمتها في القرن العاشر الميلادي ، وهي الفترة التي تتعرف فيها على جالية كبيرة من أبناء سجلماسة في أودغست ، التي كانت محطة لقوافل البربر في الجنوب .

وقد بلغ ما كان يجنيه الفاطميون من الضرائب على تجارة القوافل الآتية من السودان في القرن العاشر ، 400,000 دينار سنويا .

ولكن وضع سجل دراسة سينائر في القرن العاشر عشر في الانجباء
الشرقي وتصل بإفريقية . وخصوصا بمدينة القيروان الواقعة في الجنوب
التركي . ونقطة الانطلاق . هي مدن الجريد « تسوزر » قابس ،
ونقطة () ، وهي منطقة تقع على البحر الأبيض وتفتح على الصحراء
الكبرى في نفس الوقت ، من جهة ، وطرابلس . وربة التي تقع على
طريق مصر ، من جهة أخرى .

ومن هذه المراكز ، تطلق الطرق في اتجاه النيجر ، عن طريق غدامس
ونمسكة ، أو في اتجاه الكانم (التشاد) مارة بفزان وكوار .

هذه هي الطرق التي تستنزف ذهب السودان في اتجاه بلاد المغرب .
ومن هذه البلاد يوزع الذهب على مختلف بلدان العالم الإسلامي .

والبيوت التجارية المغربية في محطات القوافل في الجنوب تحتفظ
بشبكة من المراسلين والوسطاء الذين يطلون لشراء الذهب لحسابها .
بالمقايضة الصامتة ، مع قبائل السود التي تشتغل في التقاط الذهب .
وهذه التجارة هائلة الحجم والنطاق . فان ابن حوقل (القرن العاشر
الميلادي) يذكر انه شاهد بنفسه وثيقة تجارية تبلغ قيمتها 400000
دينار . وهذا المصدر تزوده مصادر أخرى وتنوء بالشراء الفاحش الذي
كان من حظ التجار الذين يعملون في التبادل مع السودان .

والمادة الاساسية ، هي التبر الذي يستبدل بسلع من مختلف
الانواع : منتجات زراعية وصناعية من المغرب ، ومن مصر . وكذلك
تستبدل بالتبر بضائع زهيدة القيمة تنتج خصوصا للتبادل التجاري مع
السود ، تماما كما سيصنع التجار الأوروبيون فيما بعد (في الفترة بين
القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر الميلادي) للتبادل مع سكان
شواطئ أفريقية المغربية .

ونحن نعرف أنه كانت توجد في سبته في العصور الوسطى سوق يعمل الصناع المتخصصون فيها لإنتاج الفلاذ ، والمصوغات الزجاجية ، وفلاذ الحمار ، وغير ذلك من التوافه التي تدفع مقابل الذهب السوداني. ولكن التجار المغاربة يقومون أيضا بتصدير القمح ، والقمشة الزهيدة القيمة ، وأواني النحاس والفضة التي كان تجار أشير يصدرونها في منتجات النحاس والفضة التي كان تجار أشير يصدرونها في القرن السادس عشر في اتجاه إفريقيا الغربية .

وكذلك كان التجار المغاربة يصدرون إلى هذه المناطق الجلد المدبوغ الذي تنتجه زوطة ولنداس والقيالات وأنصات ومراكش ، والصدود الصمغي والقصار (لقرب ولاستعماله لمعالجة الجرب في الجبال) ، ومنتجات دبغ الجلود التي كانت تنتج في جنوب المغرب الأقصى ، وأخيرا، منتجات الملح الذي يستخرج من منجم تافزي والذي يشتد إقبال السود عليه كثيرا .

لهذه السلع كلها ، ليست ذات قيمة في حد ذاتها ولكن قيمتها تزداد بسبب المسافات الطويلة والسفر المصني الذي يتطلبه نقلها إلى البلدان التي تحتاج إليها ولا تملكها . وقد تمرض أحد الجغرافيين العرب للتبادل التجاري بين بلاد المغرب والسودان فقال إن التجار البربر يحملون معهم سلعا لا قيمة لها ولكنهم يمدون من السودان بجبال مثقلة بأحمالها من التبر .

وهكذا نجد أن الواجهة الجنوبية الغربية حيوية للاقتصاد الفسدي في العالم الإسلامي . فمن هذه الواجهة يتدفق الذهب الذي يسمح بضرب السكة وينشط تداول الدينار الإسلامي . وقد أقيمت في سبيلياسة ورجلة دور لضرب السكة (ومن هذه الكلمة اشتقت الكلمة الإيطالية : Zecca) . ومن هاتين المدينتين تطلق طرق الذهب السوداني إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

الواجهة الشمالية الغربية :

يجب أن نبرز هنا بين ثلاثة أفاق مختلفة : يزنطة ومنطقة الانهار الروسية ، والغرب المسيحي .

الأفق الأول : يزنطة . يعتبر الميزان التجاري الاسلامي مع هذه المنطقة أيضا ايجابيا ، مع ملاحظة أن الذهب الذي يدخل إلى العالم الاسلامي من يزنطة ليس بالذهب الخام ، بل هي نقود الذهب البيزنطية . وأهمية التجارة مع يزنطة ، تعود إلى موقع الامبراطورية بالقياس إلى العالم الاسلامي الذي يحيط بها من الشرق والجنوب وبسطرها إلى الانتحاء اليه ليكون وسيطا في تجارتها في الكماليات والمواد الخام الثمينة الضرورية لصناعات الشرق في يزنطة . وهذه المنتجات والمواد كلها ، تأتي من آسيا أو من افريقية .

والصلات التي تربط العالم الاسلامي بيزنطة ، هي من نوع العلاقات التي تربطه بالصين : انها علاقات بين عالمين متقدمين يعيش كل منهما في ظل حضارة في أوج عظمتها . والتجارة بين الدولتين ، تخضع لمعاهدات وتوجيه ومراقبة (23) وتنازل التجارة في القسطنطينية جالية من التجار السوريين الذين يعيشون في حي خاص وكان لهم مسجد يقع بجوار كنيسة سانت ايرين . ووضع الجالية السورية في القسطنطينية ، مشابه لوضع الصقالبة الذين كانوا ، هم الآخرون يعيشون في حي خاص يقع في ضاحية سانت ماماس . ولكن جماعات من التجار العراقيين والایرانیين والأذمنين (خصوصا في أطرازنده) والبلغار والایطالین كانوا يقومون أيضا بدور الوسطاء التجاريين للعالم الاسلامي .

23 - داجع قسطنطين الثالث ، بور فوردجانی Porphyrogenete 912 - 959 م :
De Ceremoniis aulae byzantine Libri II. نشر : الترجمة الانكليزية
A. Vogt, Paris, 1967 والترجمة الفرنسية G. Monod
De Administrando Imperio نشر : R. J. H. Jenkins, Budapest, 1949
الترجمة الانكليزية Nicole, Genève 1893 نشر : Le livre du Préfet

وكذلك كانت معارضي ايرازنده وأسواقها ، مثل معارضي لاموس
على الحدود البيزنطية توفر ملتقيات عظيمة الفائدة التجارية ، ولا سيما ،
إنشاء تبادل الأسرى في المدينة الأخيرة بين الطرفين .

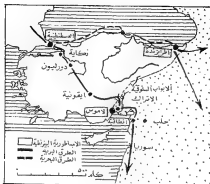
ومن جانب بيزنطة ، نلاحظ وجود تجار يونانيين متخصصين في استيراد
(Lamoa) الواقعة على النهر الذي يحمل نفس الاسم في الثغور الإسلامية
الحرير الغشاء (Metanoprosal) ، وفي استيراد — الديباج (Pseudoprosal)
وفي استيراد الروائح العطرية (Myroprosal)

والقواعد التي تسيطر التجارة ، تضمن ، مثلاً ، للتجار المسلمين تسويق
جميع سلعهم ، مهما كانت درجة جودتها ، ومهما كانت كمياتها . وإذا
رفضت البيوت التجارية البيزنطية شراء جزء من السلع التي يرضى عليها
التجار المسلمون ، فإن والي المدينة مضطر إلى أن يأمر بحمل تلك السلع
المتبقية إلى الأسواق لبيعها بطريقة ملالة .

وهكذا نرى أن تجارة بيزنطة ، تجارة سلبية : لمن حيث هي تجارة
تستند على الوسطاء ، يتوقف ميزان المدفوعات فيها على قيمة وارداتها
من العالم الإسلامي . وأما صادرات بيزنطية ، فهي تنجّه خصوصاً عن
طريق الهندية وأمالقي .

وفي مقابل ذلك ، تقوم القسطنطينية ، بدور الوسيط بين الشرق
الإسلامي والغرب المسيحي . وكذلك تقوم بيزنطة بدور الموزع والمنتج
المصدر . وهذا الدور الأخير ، إنما تقوم به على أساس المواد الأولية

والسلع التي تهم التجارة بين العالم الإسلامي وبيزنطة هي (السلع
الآية من العالم الإسلامي) : الحرير ، والديباج ، والأعجاز الكرمية ،
والسؤلؤ ، والعاج ، والتوابل ، والعطور ، والطيب ، والأبانوس ،
وعرق النمل .



الشكل رقم ٢٧ - طرق ومراكز التجارة مع بيزنطة

والسلع الآتية من بيزنطة الى العالم الاسلامي ، هي : أنواع معينة من الأقمشة الرقيقة التي احتفظ البيزنطيون بسر صنعها وذلك ، مثل الأقمشة الحريرية التي تغير ألوانها بأنكباس الضوء والتي تسمى هيبوكلامون (Hypoclammon) وحرف العرب اسمها الى «بوقلمون» وكذلك نلاحظ في هذه القائمة الكتان ، الذي يستورد من «لراس» ومن مقدونية ، والمواشي التي تستورد من أرمينيا البيزنطية . وهي منطقة مشهورة بتربية الحيوانات ، ولاسيما الأنعام الكبيرة والغنم الذي ينتج الصوف واللحم لتموين القسطنطينية في المكان الاول . ولتصدير الى سورية الشمالية الاسلامية .

وعلى الجملة ، فإن التبادل التجاري في هذه المنطقة . كان سببا لاستنزاف الذهب من بيزنطة لصالح العالم الاسلامي . وما يرد من خطورة المعجز الذي يعاني منه الميزان التجاري البيزنطي أن الإباطرة البيزنطيين كانوا يدفعون ضريبة ثقيلة الى الخلفاء على أن تحسبوا بيزنطة من نفود الذهب . تمويضا ما يبيحه في أسواقها للإيطاليين والصقالية .

والآن التالي : منطقة الأنهار الروسية التي يتجه اليها الايرانيون وهي تمتد من بحر آرال ، حتى بحر قزوين ، ومن خوارزم ومدينة أورتاش ، حتى أران (ما وراء القوقاز) ومدينة برضة وباب الأيراب (Derbent) وهذه هي بلاد السهوب التي تحيط بها من وراء القابة الشمالية الكبرى التي تشكل أطرافها ما يشبه أهلة واسعة من الأرض المكتشفة . وهي منطقة الأنهار الروسية الطويلة والبطيئة الجري . وبالتالي فهي قابلة للملاحة . وهذه الأنهار ، تنزل من منطقة القابة وتنصب في بحر قزوين والبحر الأسود والقولجا ، والفون ، والدنيبير . ومن جهة الشمال ، تسبح أنهار أخرى مثل لوفات (Lova) وعدد من البحيرات ، بالاتصال ببحر البلطيق . والروور بين حوض نهر الى حوض نهر آخر سهل . وبحر قزوين ، والبحر الأسود ، وبحر البلطيق ، تتداخل شواطئها ، حتى أن الخريطة التي رسمها الادريسي لهذه المنطقة تمثلها وهي تربط بينها أنهار .

والقوارب مهمة للملاحة في هذه الأنهار . وهي أحيانا مصنوعة من قطعة واحدة من الخشب ، وأحيانا عبارة عن قوارب كبيرة من نوع القوارب التي يستعملها التجار السكندنافيون والتي تصنعها المصادر العربية .

وفي هذه المنطقة يقع اتصال بين تجارة العالم الاسلامي وتجارة
البلدان السكندنافية . والتجار المسلمون السفين يقومون بالعمليات
فيها ينتسبون الى الحضارات القديمة التي تمرست عن فنون التجارة ،
من الايرانيين او التي تأثرت بالنموذ الايراني ، من خوارزم وجرجان
والذريجان .



الشكل رقم ٢٨ - التجارة في منطقة الانهار الروسية

وصف ابن حرداذبة في منتصف القرن التاسع الطرق التي يسلكها
التجار الروس ، فقال : « فلما سلك تجار الروس ، وهم جنس من

الصفالية ، فانهم يحملون جلود الفز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صفلية الى البحر الرومي ، فيشترهم صاحب الروم ، وان ساروا في نيس نهر الصفالية مرورا بخليج مدينة الفز ، فيشترهم صاحبها ، ثم يصيرون الى بحر جرجان فيخرجون الى سواحلها . وقطر هذا البحر ، خمسمائة فرسخ ، وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الابل الى بغداد وترجم عنهم الخدم الصفالية ، ويدعون أنهم نصارى ، فيؤدون الجزية » .

« فاما مسلكهم في البر ، فان الخارج منهم يخرج من الاندلس ، او من فرجة ، فيسير الى السوس الأقصى ، فيصير الى طنجة ، ثم لفرقية ثم الى مصر . ثم الى الرملة ، ثم الى دمشق ، ثم الى الكوفة ، ثم الى بغداد ثم الى البصرة ، ثم الى الاهواز ، ثم الى فارس ، ثم الى كرمان ، ثم الى السند ، ثم الى الهند ، ثم الى الصين . وربما أخذوا خلف رومية في بلاد الصفالية ، ثم الى خيبر ، مدينة الفز ، ثم نحو جرجان ، ثم الى بلخ وما وراء النهر ، ثم الى ورت تغلر ، ثم الى الصين » .

وهكذا ثبت لدينا أن التجار الروس — السكالدينافين كانوا يصلون الى بغداد . ولكن المصادر العديدة والوثيقة التي بين أيدينا ، تدل أيضا على وجود التجار المسلمين على طول الطرق التي تربط العالم الاسلامي وشبكة الطرق التي تمتد في أحواض الأنهار الروسية ، فهم يسلكون طريقا تؤدي من خوارزم عبر السهوب ، حتى مدينة بلغار الواقعة عند ملتقى نهر الفولجا بنهر كاما . وبلغار ، هي عاصمة بلغاريا الكبيرة التي تقع تقريبا في المكان الذي بنيت فيه ، فيما بعد ، مدينة كازان . وفي مدينة بلغار كانت تعيش جالية مهمة من المسلمين الذين كان لهم مسجدهم ودار للسكة تضرب فيها النقود باسم الخليفة العباسي في القرن التاسع الميلادي ،

والى جانب ذلك ، توجد طريق أخرى يسلكها التجار المسلمون تنطلق من جرجان ونهر باذويجان وأران وبحر قزوين ، وطريق برية أخرى

نهر برزغنة وباب الأبواب متجهة الى عاصمة الخزر ، خلمينج (اتل) عند مصب نهر الفولجا (24) . وفي هذه المدينة أيضا نجد أن للمسلمين أحياءهم الخاصة وقد كان المسلمون يمثلون ثلث سكانها .

ومن مدينة اتل ، يقصد التجار المسلمون الى مدينة بلغار عن طريق نهر الفولجا ، ثم يرون بيلاد البرطاس التي تبتدع عند ملتقى الفولجا نهر الأوكا (Oka) ، حيث تقع مدينة نيجني نوفجورد (Nijni-Novogard) الحالية .

ولكن التجار المسلمين ، يمكنهم أيضا أن يسلكوا طريقا تطلق من أسفل الفولجا وتوجه نحو نهر الدون ثم نحو كيافة (كييف (Kiev) ، ومن هناك يتخذون الطرق الشمالية المؤدية الى البلطيق ، أو الطريق الجنوبية المؤدية الى البحر الأسود ويزنطة ، أو الطريق الغربية للسايرة ليجبال الكريمات (Carpates) (25) ونهر بيراغ وبأطالي الغالوب لتصل الى بلاد رمان ، حيث نجد ذكرا لنقود السامانيين في القرن العاشر الميلادي .

ولنغن تشير في هذا السياق ، الى أن الطريق الأخيرة هي التي كان يسلكها اليهود الرادانية ، الذين كانوا يأتون ، كما أشرنا من قبل ، من

24 - كيرا ما الفرج الشريف على موقع اتل في المكان الذي يحفظه مدينة استراخيف حاليا ، ولكنه لم يبق المتون على أي اثر المدينة القديمة التي كانت عاصمة شعب الخزر . وقد اخرج جوميليك (L.N. Gumilev) مؤخرا فرضا للتفسير اعتمادا على يقول بأن ذلك مرجه لارتفاع مستوى مياه بحر قزوين ، ابتداء من القرن التاسع الهجري وقرن الثاني للمدينة الذي نجم عن ذلك . راجع : S. Seysman + Decouvrir se De Khazarie Annales E.S.C. 1970, p. 820.

25 - سلسلة جبال أوروبا الوسطى ، وتمتد في شكل قوس في تسيتوسلوفاكية ورومانيا واكرانيا ، في الاتحاد السوفيتي ، - يوغوسلافيا - وهذه الجبال اقل ارتفاعا من الوسط من جبال الالبس ، وهي كيفة القبايل ومشهورة منذ القدم باستغلال البساتين وربية الحيوانات ، وباعتها فني القبايل ، وخصوصا بالنسبة والفنار العظمى الذي يستغل حاليا في يوغوسلافيا . الترجيم .

ضفاف الرين والدانوب الى براغ وجبال الكوربات . وكيف : وأخيرا الى بلاد الخزر الذين اعتنقوا اليهودية في أواخر القرن الثامن الميلادي .

وهذه الطرق لم تكن موضوعا لوصف الرحالة والجغرافيين فحسب . بل أن جنباتها تحتوي على آثار متنوعة اكتشفت مؤخرًا ولا سبب من قطع النقود الإسلامية التي يرجع تاريخها الى الفترة بين القرن السابع والقرن الحادي عشر الميلادي « وخصوصا . نقود الدولة السامانية » . وبعد القطع عبارة عن دولهم مضروبة من الفضة . وهي ظاهرة تدل على أن نظام النقد المتداول كان يقوم على أساس معدن واحد « الفضة » . ومع ذلك فإن قطاع من الذهب اكتشفت أيضا . ولا تزال محفوظة في المتاحف الروسية والسكاندينافية . أو أعيد تصديرها الى القسطنطينية في مقابل شراء منتجات من المصنوعات البيزنطية .

ومن بلاد الصقالية ، يستجلب الى العالم الإسلامي الرقيق السفي يصنع منه الخصيان ، والقراء ، والسل وشبح العسل : وهي من منتجات غابة الشمال الكبيرة . ومن الغرب المسيحي . في عهد الكارولانجين ، كانت تستورد الى بلاد الصقالية السوف التي يصاد تصديرها الى العالم الإسلامي ، وكذلك الفيول والجلد البلقاري المدبوغ . وجميع هذه المنتجات تمر بخوارزم . أو بباب الأيواب . في اتجاه المدن الكبيرة في إيران وما بين النهرين .

وفي مقابل هذه السلع ، كان العالم الإسلامي يصدر الى تلك البلاد منتجات : مثل الأقمشة النخاعة ومختلف الألوان . وخصوصا قطع النقود المضروبة من الفضة ، وبدرجة أقل : النقود المضروبة من الذهب .

وأزمة الفضة - بصفتها معدن النقد - التي واجهتها آسيا الوسطى وإيران في القرن الحادي عشر الميلادي : لا تضر بالطرود الجديدة

التي نجت عن توسع السلجوقيين التجاري فحسب ، بل وأيضا بالنزول الذي نتج عن التجارة مع منطقة الأنهار الروسية وفي هذه المنطقة نجد أن ميزان العالم الاسلامي التجاري ، يشكو من عجز مزمن .

والثاني الثالث والأخير ، في الواجهة الشمالية الغربية : المغرب المسيحي . والمقصود هنا ، هو التبادل التجاري الذي يجري مع البلدان الواقعة خلف بيزنطة والتي اندمجت شبكة علاقاتها التجارية في العالم الاسلامي .

والتجارة مع البلدان الأوروبية التي كان مستواها الاقتصادي مختلفا تقوم على تلبية طلبات المراكز المصرفية في الأندلس والمغرب . وفي مقدمة المنتجات التي تصدرها البلدان الأوروبية الى العالم الاسلامي ، منتجات النسيج : القراء وخشب البناء لأحواض السفن ، والرقائق ، والمعادن : والأسلحة التي سبق أن ذكرنا أنها تصدر أولا الى الشرق ، عن طريق أوروبا الوسطى ، وبلاد البلطيق ، والأنهار الروسية في اتجاه العواصم الاسلامية ، وخصوصا ، بغداد . ولكن هذه المنتجات تتجه أيضا الى الغرب ، سائكة الطرق التي تمر بآلمانيا وبحر الشمال والجنوب الكارولانجي لتصل الى المدن الاسلامية في الأندلس وخصوصا الى قرطبة .

وفي مقابل المنتجات الأوروبية ، يقدم العالم الاسلامي ، قطع النقود من الذهب والفضة ، وبعض منتجات الترف — وخصوصا ، الأقمشة التي تلت من صناعة بيزنطة . وفي هذه الواجهة أيضا : يتسم الميزان التجاري الاسلامي بسميز مزمن .

والوسطاء في التجارة بين العالم الاسلامي وأوروبا الغربية هم في المكان الأول اليهود : وخصوصا ، جهود تربية الذين تطلن جماعاتهم

في المنطقة التي تمتد من بلاد رينان والموز حتى منخفضات الروديانان (أي وادي الرون ، بين سلسلة الجبال الوسطى ، والجبال التي تسبق امتداد جبال الألب) . وهؤلاء اليهود النرويجيون ، يقصدون الى الأندلس ساكنين الممرات الجبلية التي تقطع جبال البرنيز ، أو عن طريق البحر ، حتى طرطوشة ، ومن هناك يتجهون الى افريقية الشمالية ، ولكنهم قد يقصدون الى العالم الاسلامي أيضا مباشرة عن طريق موانئ الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط .

والى جانب اليهود . كان تجار المدن البحرية الإيطالية يقومون بدور متزايد الأهمية في الوساطة التجارية بين العالم الاسلامي وأوروبا الغربية . والمدن التي كانت مراكز للوسطاء على شواطئ بحر الأدرياتيک هي : باري ، وخصوصا ، البندقية . وفي المنطقة الغربية : سلرن ، وقابلي ، وجايت ، وخصوصا ، أمالفي ، التي كان تجارها منذ القرن العاشر الميلادي ، يترددون على مختلف المدن التجارية الإسلامية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط : المرية ، وتونس ، والاسكندرية ، والطاكية ، بل والقسطاط - القاهرة ، والقدس ، أيضا . وقد كان ترددهم على المدينة الأخيرة مرتبطة بحركة الحج الى الأماكن المقدسة ، حيث كانت تقام معارض وأسواق سنوية تجري فيها معاملات في غاية الأهمية .

وفي إيطاليا نفسها ، كانت تقام معارض وتنظم أسواق مشهورة وغيرهم من الإيطاليين تجار من مختلف البلدان ، ولا سيما من الأنجلوساكسن الذين يصلون اليها عن طريق الممرات التي تقطع جبال خصوصا في بافي (Pavia) ، كان يقصدها ، الى جانب البندقيين الألب . وكانت الضرائب والمكوس تفرض في هذه الأسواق : خصوصا ، على التجارة في الرقيق والسيوف ، والتصدير .

وفي الاتجاه الآخر ، كان الشرقيون ، ولا سيما اليهود ، ينزلون في الموانئ الإيطالية وفي أبغلي لتجسوك . ونحن قد رأينا أن جوهر الذي غزا مصر لحساب الفاطميين ، كان يهوديا من إيطاليا الجنوبية . وهذه الحقيقة نستقيها من مصدر عبري مهم ، وهو تاريخ الحاخام أخياس من أوربا (Orta) وهي مدينة تقع بين برستديري (Brindisi) وطارنت (Taranto).

ومن طريق هذه الجماعات الشرقية ، انتقلت فنون التجارة وبعض الطرق التقنية الصناعية (مثل صناعة أقمشة الترف والصباغة وصناعة الجلد) التي مكنت التجارة الإيطالية من الازدهار ، وسهت لبندن الإيطالية ، ابتداء من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، بتسجيل تقدم في الاتاج . هذه الجماعات الشرقية ، لعبت دورا خطيرا في التعليم والتدريب التقني في إيطاليا الجنوبية ، قبل أن يطردها منها منافسوها من المسيحيين .

والطريق الأخيرة التي ينبغي الإشارة إليها ، هي طريق المحيط الأطلسي التي تطلق من المنطقة التي يسميها الجغرافيون المغرب ، « بريطانيا » ، وهي نسبة يقصدون بها إنجلترا وبلاد السيات . ومن بريطانيا تصل إلى الاموريك (26) وخليج بكسوية (27) ثم إلى الموانئ الإسلامية الواقعة على المحيط الأطلسي : لشبونة ، وقصر أبي دالس ، حيث ينزل العبيد الأنجلوساكسن ، وحيث تفرغ شحنات القصدير والقراد والسيوف .



26 - L'Amérique في المنطقة التي تشكل حاليا في فرنسا ، بروتانيا Brestagne

27 - إسكنونية بالترجمة ، Le Golfe de Gascogne

وهكذا نرى في أعقاب هذه الدراسة التي عالجنا فيها الواجبات التجارية ، أنه يوجد عدد من شبكات الطرق التي تدخل الى العالم الاسلامي وتتوغل فيه حتى تصل الى المراكز المحركة للاقتصاد . وهي المدن الكبيرة التي تربط بينها شبكة من العلاقات النشطة .

والخط الرئيسي ومركز القوة في هذه العلاقات ، هي طريق القوافل الكبيرة التي تربط آسيا الوسطى ، انطلاقا من سمرقند وبخاري ونهر نيسبور والري ، لتصل الى بغداد . ومن هذه المدينة ، تنبع عن طريق نهر عيسى والقرات الى حلب ، وانطاكية واساكن المشرق وفي الاتجاه الجنوبي الغربي ، تؤدي طريق فرعية الى دمشق فمضيق بعلبك . فالى منطقة بورسيه ودلتا النيل : الاسكندرية والقسطاط - القاهرة . ثم برقة والقيروان وهضاب المغرب ثم قاس أو مضيق جبل طارق وتنتهي الى مدن الأندلس : انشيلية وقرطبة .

وهذه الطريق الكبيرة ، تلتقي بشبكات أخرى مهمة من الطرق البرية والبحرية والنهرية : طريق الأنهار الروسية التي تربط شوانطيه بحر قزوين بالري ، وطرق المحيط الهندي والخليج العربي (البصرة - بغداد) ، وطريق البحر الأحمر وعيذاب ، أو القلزم ووادي النيل والقاهرة ، والطرق العابرة للصحراء الكبرى متجهة الى المغرب ، والطرق المؤدية من الغرب المسيحي الى الأندلس والموانئ الاسلامية المحركة الاقتصادية في الغرب المسيحي الى الأندلس والموانئ الاسلامية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط .

صحيح ، أن المسلمين لم ينشئوا جميع هذه الطرق . فان الفتوحات الاسلامية كثيرا ما سارت في شبكات من الطرق القديمة أو في طرق عرفها القدماء ولكنها محيت معالمها ، أو قطعت بسبب غزو البرابرة . ولكن المؤكد ، هو أن تكوين العالم الاسلامي قد لهم بين مختلف المناطق التجارية في العالم . وأبرز ما حققه الاسلام في هذا المجال ، هو

ضم منطقة الصحراء - السودان - التي خلق البربر التيارات التجارية فيها منذ القرن الرابع الميلادي ، الى مناطق التبادل التجاري العالمية الكبيرة . وكذلك ضم الاسلام الى تيار التبادل التجاري العالمي ، منطقة الاتهام الروسية التي كانت عناصر من العقالية والفيلانيين والكاتينيين منذ وقت تحاول تنظيمها .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن الطلب المتزايد في مراكز العمران الاسلامية للاستهلاك ، قد أيقظ النشاط وبعث الحياة في الحركة الاقتصادية في الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة حيث انطلقت تجارته واشتد نشاط تبادل السلع واتعمشت مراكز العمران فيه تحت تأثير النفوذ الاسلامي .



مكانة العصر الإسلامي في التاريخ العالمي

قررة في عدة مناسبات في الفصول السابقة ، أن العالم الإسلامي ينقسم إلى ثلاث مناطق متميزة : بمنطقة البرلرخ ، وإيران وآسيا الوسطى ، والغرب الإسلامي . وهذا التقسيم ضروري لفهم وضوح العرض ، ولكنه أيضا يقوم على أسس معقولة . فإن كل واحدة من المناطق الثلاث المدروسة ، تمثل اطارا جغرافيا لا يزال موجودا ومؤثرا ، كما تمثل مراحل مختلفة في النمو الاقتصادي ، وحظا من تركية الحضارات القديمة ، يختلف عن حظ كل واحدة من المنطقتين الأخريتين .

فهل ينبغي أن نبحث في نهاية هذه الدراسة عن الخطوط العامة والاعمار الذي يجمع بين هذه المناطق ؟

يجب أن نقول أن العالم الإسلامي ، لم يكن خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، مجرد نقطة انطلاق لتاريخ طويل : تاريخ الحضارة الإسلامية . لأن العالم الإسلامي كان في هذه الفترة أيضا ، نقطة وصول ، وهو لا يزال حتى الوقت الحاضر قرة تاريخ طويل : تاريخ الحضارة التي تقوم على المدن في الشرق القديم الذي شهد أقدم الحضارات البشرية المعروفة ، والتي تجتمعت خلال لحظة من التاريخ في امبراطورية الاسكندر الكبير .

وإذا كان العصر الإسلامي على اتصال بتاريخ العالم من حيث الزمن ، فهو يتصل به أيضا من حيث المكان .

فإن العالم الإسلامي ، بفضل موقعه في قلب العالم القديم ، وبفضل سيطرته على منطقة البرازخ الواقعة بين بحرين عظيمين - المحيط الهندي والبحر الأبيض - وبفضل امتلاكه للطريق البرية الكبيرة - طريق السهوب والصحراء والولحات التي تنطلق من آسيا الوسطى الى افريقية الغربية ، كان على اتصال مباشر مع مراكز للعمران القديني والعصري . وقد كان العالم الإسلامي على علاقات تجارية ، علاقات اند للند ، مع الهند والصين وبنزطة . ولكنه كان أيضا على اتصال بالعواالم الجديدة ، عالم النبات الذي يخضع للريارة أو لنفوذهم ؛ عالم السهوب التركية ومناطق الأنهار الروسية والعالم الأسود ، والغرب المسيحي الذي سيره الاسلام بانتشاع حضارته في الوقت الذي يستعير منه قوى حيوية .

لقد كان العالم الإسلامي بمثابة جسر يجمع بين العواالم الجارية ومن هنا أهمية الطرق التي تشهد بالتقدم السريع أو البطيء ، المستمر أو المتقطع ، للنفوذ الذي يخترق المنطقة الميزة التي يشهد فيها العالم الإسلامي حتى القرن الحادي عشر الميلادي ، فمن قلب هذه المنطقة انتشر التأثير الحضاري ليشمل الغرب الإسلامي والمناطق التي تقع خلفه ، وهذه الحضارة تقوم على النتائج التي استخلصتها من عملية تطورها بلدان الشرق القديمة وحوورها ثم أضافت إليها تراثه بالقطبالات والاتصالات التي وقعت في داخل المنطقة نفسها ، وبفضل ألوان النفوذ الجديدة التي وصلت إليها سائكة الطرق التجارية التي تربطها بالبلدان البعيدة ، من الصين والهند وآسيا الوسطى .

الرجال والسلع والأفكار بحرية وتمتد فيها الرواسب الحضارية
الريفة أو التي تعود الى أصل مجتمع الرحل

وأخيرا ، ومن هنا أهمية الاقتصاد النقدي الاسلامي : التوسع في
ضرب الدنانير ، نتيجة لتدفق الذهب الجديد على العالم الاسلامي
وازدهار الائتمان والاعتقاد ، مما يضاعف تيار التبادل النقدي . فقد
لاحظ ابن خردذبة في القرن التاسع الميلادي ، أن نمو الثروات وازدياد
المعاملات التجارية ، بلغ حدا من الاتساع ، بحيث يجري تداول قطع
النقد حتى في القرى النائية التي كان نظام المقايضة دائما أساسا
للتبادل التجاري فيها . وهكذا يلتقي نمو نفوذ المدن الكبيرة على
القرى والأرياف ، بانساع نطاق تبادل النقد والعلة .

ولكن الاقتصاد الاسلامي الذي يقوم على العنبر ، له جوانب قوة
وجوانب ضعف . فهو في المكان الأول ، يتوقف على التبادل التجاري .
ولذلك ، فهو مرتبط بالاحتفاظ بالطرق ، كما يرتبط بالسيطرة على
شبكة العلاقات مع البلدان البعيدة التي يمكن للعالم الاسلامي بسل
وتحتم عليه ، الحصول منها على المنتجات التي تنقصه والتي هي
ضرورية لاقتصاده وازدهار حضارته — الذهب أولا ، ثم الخشب
والمعادن والأسلحة — ذلك الاقتصاد وتلك الحضارة اللذين تعودا على
شراء كل شيء ، وينقود الذهب ، من البلدان البعيدة .

وإذا ارتخت العلاقات مع البلدان البعيدة ، بتحويل الطرق أو انقطاعها،
وإذا كان وصول الذهب غير منتظم ، فإن الاقتصاد سيتعرض للاضطراب .

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ، أخذ العالم
الاسلامي يواجه أزمات عديدة واضطرابات خطيرة ، قامت حركات للغزو
في مختلف أطرافه . وقد كان من نتائج ذلك تدهور مراكز العمران وانقطاع

التيارات الاقتصادية : فإن أحياءا في بغداد وفي القاهرة أصبحت خرابا ،
والتيروان هجرها بنو زيري الذين التجأوا الى المهدي . وكذلك هجر
بنو حماد مدينة القلعة ليجئوا الى بجاية . وأما مدينة فاس ، فقد سقطت
في يد المرابطين .

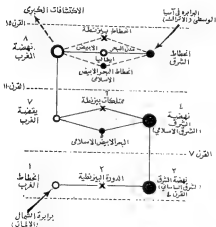
وفي الأندلس ، مزقت مملكة غرناطة الى امارات ، هي التي تعرف
باسم « ملوك الطوائف » .

وبانقطاع طرق التجارة والمواصلات ، تعظم العالم الاسلامي واتخذ
الاسلام اشكالا اقلية ، واصبح الناس يسمون بالاسلام التركي ،
والاسلام المصري ، والاسلام المغربي ، والاسلام الأندلسي . وهكذا
انبعث الترات والميزات الاقليمية التي كانت شرارتها لا تزال حية ،
كما تحولت الحضارة الاسلامية التي صهرت التراث الحضاري القديم
في جميع هذه المناطق الى « حضارات » اسلامية .

وبعد القرن الحادي عشر الميلادي ، تحول مركز الثقل من العالم
القديم . فان المراكز المحركة والنشطة للازدهار والتوسع الاقتصادي
المستمر ، لم تعد في الشرق وفي المدن الاسلامية الكبيرة ، بل هي انتقلت
الى الغرب ، في المدن التجارية الايطالية وفي الفلاندر وفي أسواق
الشامبان ، حيث يجري تبادل منتجات البلدان الشمالية ومنتجات بلدان
البحر الأبيض المتوسط . وبعد تشر ومصادمات وفترات من الانتصار
وأخرى من الانكسار ، أصبحت القوة الاقتصادية والتوسع المادي
والنشاط الخلاق — لمدة قرون — من خلال أوروبا الغربية .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من تدهوره الاقتصادي سيستمر الاسلام وقتا
طويلا مصدر اشعاع ثقافي في العالم الذي سيكون مدينا له بطومه ،
وخصوصا علم الطب ، وفلسفته . وسيلعب العالم الاسلامي بعلم الطب

دورا خطير الشأن ، ليس في عصر النهضة فحسب بل حتى في القرون التاسع عشر الميلادي . ولكن معظم أمهات الكتب التي استمرت قيمتها ، كانت قد وضعت خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي .



الشكل رقم ٣٠ - مخطط عام لانتشار القوى من القرن ١١ إلى القرن ١٥

بين الصين والهند ، بين ميزنطة وبلاد البرابرة ، في العصور الوسطى ،
منذ نهاية الامبراطوريات القديمة ، حتى قيام الدول الحديثة ، كانت
الحضارة الاسلامية في مجدها الاول ، بوتقة زمنية وجغرافية - كانت
نقطة تقاطع ، ولحظة تاريخية مواتية ، وموعد لقاء خطير الشأن في تاريخ
البشرية .

يلاحظ القاريء القويم ان التواريخ الواردة في الكتاب كلها بالتقويم
الميلادي . وتحويل هذه التواريخ الى التقويم الهجري امر في غاية الصعوبة ،
بل ويكاد يكون مستحيلا ، ما لم يعرف الشهور واليوم الذي وقع فيه
الحادث . ولما ساعد القاريء الذي يهتم الامر على التيقن بنفسه بعملية
التحويل اضع تحت تصرفه جداول للمطابقة بين التاريخ الهجري والتاريخ
الميلادي للتواريخ الواردة في الكتاب ، وهي تعطى بكل دقة الفترة التي
يعالجها الكتاب (القرن الثامن - القرن الحادي عشر الميلادي) .

(المترجم)

جدول الطائفة بين التقويم الميلادي والهجري

القرن التاسع

القرن السابع القرن الثامن

هـ	م	هـ	م	هـ	م	هـ	م	هـ	م
262	875	184	800	149	766	81	700	8	629
263	876	195	801	151	768	86	705	13	634
265	878	190	805	152	769	88	706	16	637
270	883	194	809	153	770	91	709	18	639
273	886	195	810	156	772	9	711	21	641
279	892	198	813	158	774	94	712	22	642
280	893	199	814	159	775	96	714	23	643
		201	816	161	777	101	719	24	644
		205	820	164	780	108	726	25	645
		212	827	166	782	110	728	27	647
		214	829	167	783	112	730	32	652
		216	831	169	785	113	731	40	660
		218	833	170	786	124	741	50	670
		222	836	173	789	131	748	66	685
		224	838	178	794	132	749	74	693
		226	840	179	795	133	750	75	694
		228	842	180	796	134	751	76	695
		231	845			135	752	77	696
		233	847			137	754	78	697
		236	850			138	755		
		249	863			139	756		
		253	867			140	757		
		259	872			144	761		
		254	868			145	762		
		257	870			146	763		
		259	872						

جدول المطابقة بين التقويم الميلادي والهجري

القرن الحادي عشر وما يليه

القرن العاشر

هـ	م	هـ	م	هـ	م	هـ	م
720	1328	398	1007	361	971	288	900
786	1384	401	1010	362	972	290	902
919	1513	405	1014	366	974	291	903
921	1515	411	1020	367	976	293	905
963	1555	416	1025	368	977	296	908
1032	1622	422	1030	369	978	297	909
1306	1888	427	1035	337	979	298	910
1380	1960	428	1036	380	987	300	912
1391	1971	539	1044	384	990	301	913
		440	1048	386	994	303	915
		439	1047	387	996	315	917
		446	1054	389	997	320	932
		447	1055	389	999	324	935
		449	1057			325	936
		452	1060			325	940
		453	1061			329	942
		461	1068			331	943
		468	1075			332	944
		470	1077			333	945
		475	1082			334	946
		478	1085			335	948
		482	1089			337	949
		487	1094			338	954
		539	1144			343	961
		561	1165			348	962
		567	1171			350	967
		642	1244			367	968
						358	970
						360	

فهرست عام للأعلام

حرف الالف :

ابرة (نهر) 100 - 111

ابرة (المدينة) 211

ابلة 62

اقل (مدينة) 344 - 345

اليويضا 249

اجادير 102

اجسطين (سانت) 83 - 145

احمد (بن طوانون) 173 - 295

اخلاط 51

ادريس (الاول) 109

ادريس (الثاني) 109

الاندياليك (بحر) 348

أفرييجان 51 - 52 - 55 - 341 - 343 - 344

اوران 51 - 52 - 55

اورال (جبال) 136 - 163 - 261 - 262

اورل 294

أوروبا 250 - 292 - 308 - 326 - 347 - 348 - 357

أرغانة 267

أرمينيا 41 - 44 - 50 - 51 - 52 - 63 - 163 - 165 - 187 -

191 - 229 - 261 - 267 - 287 - 292 - 305 - 308 - 317 -

327 .

ارسطوطاليس 286

الأردن 43

أرشفول 108

أزيلة (أصيلا) 102

أسياتيا 15 - 18 - 19 - 80 - 85 - 89 - 94 - 95 - 97 - 99 -
113 - 116 - 17 - 121 - 134 - 146 - 300 - 306 - 326 .

أشفاق الموصل 126

أسفى (أليناء) 102

أسطرخان (مدينة) 344 - 345

الإسكندر (الكبير) 353

أستقفاوة 21

الأسكندرية 19 - 22 - 33 - 34 - 95 - 110 - 157 - 183 - 222 -
224 - 278 - 307 - 308 - 310 - 316 - 334 - 348 .

إسماعيل بن أحمد 71

أسوان 32 - 35

أسيبرامنتو (جبال) 131

أشبونة (لشبون) 211

أشيبيلة 19 - 22 - 102 - 107 - 111 - 115 - 121 - 123 -
124 - 211 - 243 - 350 .

أشير 107

أصهان 64

أطرابرندة (مدينة) 51 - 52 - 319 - 338 - 339 - 340

أطلس (جبال) 83 - 87 - 102 - 185

أطنه 202

أفصات 83 - 87 - 102 - 165

الفرقة الشمالية 10 - 18 - 19 - 28 - 78 - 79 - 80 - 85 - 89 -
94 - 182 - 242 - 251 - 263 - 267 .

- الفينيون (مدينة) 258
- الكونيون (مدينة) 12 - 46 - 64 - 192 - 227 .
- اللاتي (جبال) 136 - 163 - 261 - 262 .
- اللب (جبال) 257 - 264 - 291 - 248 - 348
- اللب (نهر) 118 - 128
- اللبا 128 - 131 - 347
- اللبا 133 - 340 - 348
- امريكا اللاتينية 161 - 164
- ام ربيع (نهر) 270
- امريكا الشمالية (279
- اموداريا - راجع : جيخون .
- الامين (بن هارون الرشيد) 231
- الانيل (جود) 256
- الانيل 349
- الاندلس 10 - 12 - 19 - 97 - 100 - 111 - 116 - 117 - 118 - 119 - 120 - 123 - 132 - 146 - 211 - 300 .
- الدوميا 149 - 325
- الطائفة 22 - 45 - 157 - 183 - 201 - 243 - 274 - 348 - 350
- الاموار 195 - 224 - 319 - 344
- اودنست 334 - 335 - 336
- اوراس (جبال) 83 - 104
- اولي 108 - 109
- اورجاش 293 - 328 - 329
- اوكا (نهر) 345
- اوريسا 349
- ايران 10 - 14 - 19 - 28 - 41 - 44 - 45 - 46 - 48 - 49 - 51 - 52 - 55 - 56 - 57 - 63 - 64 - 66 - 67 - 69 - 70 - 79 - 159 - 165 - 184 - 191 - 229 - 245 - 268 - 269 .

أيراندا 399

أيسثري (جبال) 257 - 259 - 264

إيطاليا 131 - 134 - 233 - 250 - 278 - 285 - 299 - 306 -
308 - 315 - 349 .

حرف الباء :

باب الأيواف 51 - 52 - 292 - 341

بابليون 203 - 204

بابك (الدار) 228

بالس 45 - 57 - 71

بارز جاد 63

البرز (جبال) 52 - 53 - 55 - 255

باري 308 - 348

باريس 175 - 194

بامر 55 - 56 - 196 - 279

باميان 56

بابلوس 50

بجاية 93 - 95 - 101 - 108 - 355 - 357

بجعة (نوتس) 241

البجعة (النوبة) 249

البحرين 241

بخاري 48 - 57 - 71 - 72 - 74 - 76 - 197 - 198 - 293 -
295 - 328 - 350 .

براوه 331

بدر الجمالي 319

البربر 9 - 10 - 12 - 13 - 17 - 18 - 79 - 81 - 83 - 84 - 93 -
119 - 120 - 121 - 149 - 153 .

براغ (مدينة) 294 - 345

برقعة 332

برقعة 52 - 53 - 341 - 344

البرق (جبال) 52 - 53 - 55 - 255

برشلونة 117 - 128 - 134

بردي (نهر) 200

برقة 11 - 241 - 242 - 247 - 255

بركوب 45

برمكا 56

برنديزي 348 - 349

بريطانيا 349

ابن بسام 125

بسكونة (جليج) 112 - 348 - 349

البشرات (جبال) 212

البصرة 29 - 32 - 40 - 62 - 64 - 66 - 169 - 170 - 189 -
190 - 191 - 210 - 232 .

بنداد 22 - 29 - 30 - 31 - 32 - 40 - 49 - 51 - 57 - 60 -
64 - 73 - 122 - 175 - 178 - 186 - 191 - 124 - 223 - 229 -
230 - 259 - 241 - 272 - 286 - 289 - 310 - 311 - 315 -
327 - 331 - 344 - 350 - 355 .

البطائح 37 - 40 - 85 - 89 .

البقاع 43

البكري (ابو عبيد) 99

بلنج 48 - 50 - 51 - 56 - 58 - 79 - 197 - 299 - 327 - 344 .

بليس 34

بكين (بن زيري) 101 - 107

البقمي (ابو علي) 87

بناربا (البلد) 344

بنار (الدينة) 68 - 147 - 293 - 328 - 329 - 339 - 344

الباطن 21 - 151 - 291 - 326 - 328 - 342 - 347
 بطر 22 - 131 - 133 - 217 - 218 - 270 - 353
 بنسبة 121 - 295
 بسجن 31
 بلو خستان 51
 وحياتي 78
 بويه (بنو) 72
 البوات (مملكة) 255
 بوسعيد 350
 الهندقة 134 - 167 - 247 - 259 - 279 - 294 - 299
 - 440 - 347 - 394
 البيرنير (جبال) 291
 البيرنير . (جبال) 291
 بوردبوليس 63
 بيت راس 245
 جسر الف التاء :
 تاجو (نهر) 261
 تادلة 270
 تافيلالت 164 - 335 - 336 - 338
 تارا 104 - 108
 تالاس 71
 تهريل 52
 تبة 240
 التت 64 - 226
 تدمر 202 - 336
 تركستان 262 - 271 - 284 - 291

سائري (الاخوة) 225

الشاد 128

طيلة 111

تريست (جبل) 107

تيلزي (معدن القح والقرية) 338 - 335 - 281

التكرور (بلاد) 335

تكريت (جزيرة) 40

السمان 108

تل مهري 220

تبيكتو 130

تبيس (نهر) 344

تبيس (المدينة) 101

توزر 337

توشار 186

تولسي 15 - 22 - 83 - 94 - 95 - 98 - 100 - 101 - 241 -

248 - 272 - 251

توماتان 263

تيزي تلافمت 88

تيزي تلويت 88

تيفس 79

تيمورلنك 59

تيمورت 78 - 88 - 105 - 324 - 335

حرف التاء :

تبودور (الزاهب) 218

حرف الجيم :

جابت 288

الجبال 65 - 64 - 63

جبل طارق 19 - 94 - 102 - 116 - 124 - 128 - 130 - 281 -

306 - 350 - 365

جدة 27 - 29

جزيرة (جزيرة) 322

جرجان 72 - 228 - 343 - 341 - 344

الجريد 88 - 100 - 164 - 240 - 270

جزولة 122

الجزرات 78

جاوة 288

جعفر اليرمكي 283 - 285

جندیسپور 286 - 287

جوا 299

جوهر الصقلي 92 - 315

الجيلان 53

جيجون (نهر) 51 - 56 - 57 - 326 - 327

حرف الحاء :

حاسدي بن خسروط 117 - 118

الحبشة 29 - 30 - 306

الحجاج (بن يوسف) 190

الحجار 28 - 191 - 249

حرمون (جبل) 43

حران 270

حسان (بن النعمان) 98

حضر موت 249

الحكم (الثاني) 145 - 213

حلب 270 - 350

حماء 201

حمص 201

ابن حوقل 133 - 217 - 243 - 337

حرف الخاء :

الخاويو 270

خانقور 333

خراسان 28 - 48 - 50 - 51 - 55 - 56 - 60 - 63 - 64 - 65 -
67 - 71 - 73 - 75 - 127 - 144 - 175 - 186 - 190 - 195 -
223 - 228 - 229 - 246 - 295 - 327 - 328 .

الخور (مدينة) 344

ابن خرداذبة 53 - 64 - 65 - 168 - 194 - 313 - 314 - 341 -
343 - 356

غبرو (ناصري) 36 - 93

ابن خلدون (عبد الرحمن) 84

خليج امير المؤمنين 203

خمدان (نهر) 327

خوزستان 39 - 40 - 51 - 65 - 246 - 275 - 285 - 293 - 311 -
315

دوخوية (المستشرق) 314

حرف اللام :

لالاية 227 - 259

لأفستان 263

اللاتوب (نهر) 293 - 294 - 345

دالية 295

دجلة (نهر) 19 - 40 - 41 - 50 - 187 - 190 - 191 - 200 -
201 - 240 - 259

دمشق 14 - 28 - 30 - 43 - 45 - 121 - 166 - 170 - 175 - 176 -
184 - 190 - 208 - 247 - 265 - 277 - 344 - 355

دمياط 33 - 276

الدون (نهر) 292 - 341

الدينير (نهر) 292 - 341 - 342

ديار بكر 40

الديلم 53 - 55 - 72 - 86

ديالي (اولي) 48 - 51

الديبول 59

حرف الراء :

راشسون (مدينة) 294

راش جالوت 139 - 211

رامس بونه 131

الراين (نهر) 293 - 316 - 346

الرباط (مدينة) 102

رقادة 209

الرصانة (الاندلس) 214

الرملة 344

روما 13 - 14

روميا 295

روسانو 308

الردون (نهر) 117 - 118 - 267 - 293 - 299 - 307 - 314

درو دریاٹ 120

دریان 264 - 294 - 347 - 348

الري 51 - 53 - 64 - 70 - 72 - 350

حرف الزاي :

زاراتح 60 - 298

زريد 30 - 298

زرد شسترا 197 - 290

زردباب (الفنى) 126

الوط 38 - 229 - 230 - 254

زغروس (جبل) 37 - 61 - 63

زنانة 91 - 108 - 124

زنجان 51 - 53

زنجبار 331

زيادة الله (الاطلي) 131

الزهراء (مدينة) 92 - 177 - 214 - 215 - 216 - 276 - 278

زير (وادي) 335 - 336

الزيتغ 298

حرف السين :

سامان (مدينة) 71

ساحل الطالع (غلة) 262

سبتم (سبت) 79 - 102

سبتمانية 117 - 120

سبو (نهر) 109

سجستان 58 - 59 - 60 - 70

مجلدنامه 88 - 91 - 335 - 92 - 110 - 129 - 164 - 167 -
 207 - 299 - 321 - 323 - 335 - 336 - 338
 سدرانه 88 - 93 - 106
 سر نقطه 100 - 111 - 124 - 211
 سر قوسه 131
 سر من رای 184 - 194 - 208 - 278 - 296
 سرت 95
 ابن سعید (علي) 122 - 330
 سطيف 242
 سكبجده 101
 سفالة 164
 الساج (ابو العباس) 45 - 190
 سقاني 243 - 277
 سارون 133 - 286 - 348
 سابع 41 - 336
 سليم (بنو) 28
 سمرقند 23 - 48 - 66 - 71 - 72 - 197 - 198 - 282 - 295 -
 299 - 328 - 349 - 350
 السند (البلد) 221 - 326 - 327 - 343
 السند (النهر) 39 - 59 - 60 - 327
 السنيغال 128 - 262 - 281 - 334 - 335 - 336
 السودان 19 - 83 - 85 - 92 - 249 - 299 - 251
 سورية 10 - 14 - 19 - 27 - 28 - 29 - 31 - 34 - 36 - 38
 41 - 44 - 45 - 55 - 64 - 66 - 79 - 81 - 96 - 108 - 119
 137 - 157 - 184 - 199 - 214 - 285 - 294 - 301 - 317
 319 - 331
 السوس الأقصى 87 - 110 - 118 - 270 - 335 - 336 - 344
 سوسة 97 - 100

سوق حمزة (البويرة) 109

السويدية 201

سوزان 269

سبيبريا 329

سيدونة 121

سيراف 60 - 62 - 72

السيفت (بلاد) 349

سيلان 222 - 280 - 332 - 334

سيلوسي 192

سيمون ميت 286

سيناء (صحراء) 11 - 12 - 28

سييرا ليغادا 122

سييرا اللان 122

حرف الشين

الشارات (جبل) 263

الشراس (مملكة) 269

الشاش 166 - 295 - 327

شرشال 101

شرمان 15 - 94 - 208

الشميان (ولاية) 264 - 357

شهرستان 48 - 49 - 192 - 199

شيراز 51 - 60 - 62 - 63

حرف الصاد

الصادوم (نهر) 293 - 307 - 314

صبيرة المنصورة 104 - 209

الصقالية (بلاد) 68

صقالية (جزيرة) 10 - 19 - 79 - 86 - 94 - 95 - 100 - 130
 131 - 132 - 133 - 134 - 146 - 178 - 207 - 211 - 222
 232 - 242 - 276 - 247 - 255 - 270 - 272 - 281 -
 285 - 287 - 301 - 308 - 344

الصند (جزر) 332

صندجة 17 - 89

الصومال 30

صومال 201 - 278

صيدا 201 - 222 - 278

الصين 52 - 56 - 69 - 70 - 84 - 142 - 151 - 221 - 250
 252 - 270 - 271 - 284 - 325 - 327 - 328 - 329 - 330
 332 - 333 - 344 - 352 - 354 - 359

حرف الطاء

طارنت 349

الطائف 27

طانيج (مملكة) 70

طارق (بن زياد) 120

طاهر (بن الحسين) 75

طبرستان 53 - 71 - 76 - 293

طينة 106

طبرية 307

طخارستان 69

طرابلس (الغرب) 88 - 91 - 201 - 255 - 259 - 992

طرقونة 117

طرطوسة 100 - 111 - 165 - 348

طريف (جزيرة) 120

طليقة 265 - 309

طهرت 51

طوس 56 - 71 - 76

طودوس 202 - 270

الطوارق 50

ابن طولون 206 - 290 - 296

حرف العين

العاصم (نهر) 230 - 254

العباس بن فرناس 279

العباس (بنو) 48 - 55 - 171 - 190 - 283 - 311 - 315

العسبة 208

عبد الرحمن (الرستمي) 78 - 91

عبد الرحمن (الاول) 125 - 214

عبد الرحمن الثالث 118 - 178 - 214 - 225 - 289

عبد الملك (الخليفة) 28 - 168 - 169 - 204

عبد العزيز (بن مروان) 171

عبدان 62

عبيد الله (الهدي) 99

عدن (مدينة) 222 - 299

العراق 10 - 14 - 29 - 38 - 40 - 108 - 156 - 229

عربستان 195

عسقلون 245 - 349 - 350

العسكر (مدينة) 204

عقبة (بن ناعم) 87 - 103 - 207

الخرابين (جبل) 256

علي (بن أبي طالب) 169

عمان (بحر) 59 - 141

عمان (البلد) 27 - 60 - 249

عمر (بن الخطاب) 172 - 189

عمرو (بن العاص) 204

عتابة 281

عذاب 332 - 350

حرف الفين

فلة 334 - 335

فداسي 87

فرامة 117 - 118 - 120 - 122 - 257

فرقة 51 - 69 - 247

الفرقة 43

حرف الفاء

فباسي 22 - 52 - 61 - 62 - 63 - 64 - 71 - 75 - 86 - 88

فارس 61 - 62 - 63 - 71 - 108 - 110 - 129 - 184 - 210 -

322 - 240 - 350 - 355 - 357

الفسرات (نهر) 19 - 37 - 40 - 41 - 185 - 190 - 241 -

243 - 270

فرنسا 240 - 285

الفرديوسي 48 - 77 - 118 - 144

فرساي 194

الفسطاط 11 - 32 - 33 - 104 - 184 - 185 - 202 - 203 -

204 - 207 - 208 - 222 - 277 - 282 - 290 - 333 - 348 -

350

فردان 294 - 314

قرطاجنة 66 - 70 - 71 - 73 - 295 - 327

الغرماء 222

فلسطين 137 - 138 - 166 - 255 - 307 - 311

فلاندر 357

الفلولجا (عوز) 68 - 291 - 292 - 293 - 327 - 328

فولوييليس 82 - 86

حرف الفصاف

فارس 100 - 116 - 272

فارس 79 - 124 - 211

الفساهر 22 - 29 - 30 - 32 - 93 - 163 - 175 - 203 -

206 - 224 - 225 - 258 - 315 - 350 - 355 - 357

فانطون 70 - 147 - 332 - 333

فبرس (جزيرة) 166 - 270 - 271

القدس 45 - 201 - 307 - 308 - 348

فرطجنة (اسبانيا) 116 - 241 - 259

فرطجنة (تونس) 13 - 79 - 86 - 98 - 132 - 145 - 263 -
277

فرطجة 19 - 22 - 23 - 79 - 93 - 102 - 104 - 110 - 112 -

115 - 116 - 117 - 119 - 124 - 125 - 126 -

127 - 128 - 133 - 177 - 185 - 211 - 212 - 213 - 214 -

216 - 289 - 290 - 295 - 306 - 334 -

فردوين (بحر) 21 - 51 - 52 - 53 - 68 - 71 - 72 - 156 -

228 - 255 - 227 - 292 - 293 - 305 - 308 - 326 - 327 -

328 - 329 - 342 - 344 - 350

الفرم (جزيرة) 66

فسطون 121

القسطنطينية 9 - 12 - 14 - 132 - 147 - 157 - 172 - 306 -

308 - 319 - 338 - 339 - 341 - 346 -

شبتينة 241 - 263

قصر أبي داني 102 - 112 - 120 - 211 - 299 - 349

قصر مصبودة 102

القطايع 32

القلل 281

القنزم (بحر) 350

قلعة بني حماد 107 - 108 - 355 - 357

قناة الويس 28 - 29

قنديبل 58

قنبرين 272 272

قندمار 51 - 52 - 58

لومي 32

لوصرة (جزيرة) 131

القوفا 19 - 51 - 163 - 261 - 262 - 263 - 305

قوربة 111

القيسرون 22 - 92 - 99 - 100 - 103 - 104 - 105 - 207 -

208 - 315 - 336 - 350 - 355 - 357

حرف الكساف

كبل 36 - 72 - 327

كالان (مدينة) 344

كالور (الاخشيدي) 290

كاوكاو (جاو) 336

كتامسة 145

الكتشي 58 - 196

الكريوات (جبال) 345

كوساك 50

كومن شاء 51 - 64

كرت (جزيرة) 110

كرمان 59 - 60 - 61 - 70

كريستين 75

كسرى (انوشروان) 76

كشغارية 68

كشمير 330

كوميو (المدينة) 222

الكلج (نهر) 144

الكونة 11 - 29 - 37 - 189 - 190 - 200 - 208

كيش (ميناء) 60 - 62 - 72 - 299 - 327 - 344

حرف اللام

لاموس 440

لاتجدولك 120 - 307 - 325 - 326 - 348 - 349

لبنان 43

لبنونة 299 - 349

لومبار (موريس) 3 - 6 - 7

لورستان (جبل) 37 - 50

ليون (اردون) 115

ليون (مدينة) 117 - 294 - 314

لويي (سانت) 100

حرف الميم

الامون (الخليفة) 36 - 71 - 73 - 119 - 171 - 229 - 231

ماركوبولو 61

مائة 102

- ماطة 146 - 246
 ماطة 116 - 121 - 124 - 211 - 240 - 247
 المادن (مدينة) 164
 مسالي 67
 مالوزيا 167 - 267 - 333
 مايورقة 278
 ماينس (مدينة) 328
 مجردة (نهر) 241
 محمد صلى الله عليه وسلم 11 - 27
 محمد (بن عبد الرحيم) 37
 محمد بن القاسم (الثقفي) 59
 محمود الغزنوي 77
 مخلد (أبو يزيد) 92
 المدينة (النورة) 27 - 29 - 31 - 188 - 289
 مدينة سالم 111
 مدغشقر 326 - 331
 مراكش 88 - 110 - 130 - 210
 مرسى الخرز 81 - 331
 مرسية 115
 مسرة 48 - 51 - 58 - 65 - 72 - 327
 المرية 111 - 124 - 128 - 211 - 212 - 245 - 348
 موندوران 53
 مولان 102
 المسعودي 70
 أبو مسلم (الخراساني) 228
 مشمس 57

مصر 10 - 14 - 19 - 27 - 31 - 32 - 33 - 34 - 35 - 38 -
40 - 63 - 73 - 79 - 92 - 99 - 100 - 108 - 110 - 119 -
127 - 132 - 143 - 150 - 157 - 163 - 171 - 175 - 199 -
202 - 203 - 209 - 233 - 247 - 285 - 319

مصحفة 202

مصاروة 35

المنصم (العباسي) 73 - 172 - 194 - 229 - 295 - 296

المنعمد (العباسي) 194

المغرب (الأندلس) 50 - 80 - 83 - 87 - 94 - 96 - 102 - 108 -
110 - 118 - 129 - 167 - 241 - 242 - 254 - 267 - 285 -
299 - 309 - 344

المغرب الأوسط 80 - 86 - 105

المقدسي (الجغرافي) 201

المقطم (جبل) 203

ابن المنعم 76

مكران 40 - 59

مكناشي 79 - 243

مكة 27 - 29 - 31 - 140 - 188 - 318 - 336

ميسر 167 - 257 - 326

المشايخ 59

مليانة 107

مبجيه 331 - 332

المنصور بن أبي عامر 216

المنصور (بن توج) 76

منفوليا 20

المنصور (الخليفة العباسي الثاني) 150 - 192

المنصور (الفاطمي) 225

الهدية 92 - 95 - 99 - 259 - 257

المورد 264 - 293 - 316

الموصل 40

مونبيلسي 286

موسى ابن ميمون 119

حرف النون

نابلي 133 - 348

نابو شونو نوسر 305

نجد 28 - 249 - 25

نريونة 111 - 117 - 147 - 294 - 309 - 314 - 347

نصر الثاني 75

نفوسة (جبل) 83 - 91

النوبة 93 - 249

نوح (الاول) 77

نوح الثاني 77

نوجن 264

نولطة 88 - 323 - 335 - 336

نوميديا 250

نوفوجرود (مدينة) 345

نون (نهر) 336

نهلولد 49

نهر عيسى 45 - 190 - 191 - 193 - 241 - 350

نيسبور 56 - 57 - 60 - 62 - 72 - 327

النيل 19 - 31 - 32 - 33 - 35 - 143 - 403 - 274 - 280 -

298 - 332 - 350

حرف الهاء

هارون الرشيد 178 - 194 - 228 - 231 - 284

هجرة 51 - 64

هرمز 60 - 62

هشام (الثاني) 213

هلال (بنو) 16 - 128 - 145

هملابا 330

الهند 52 - 56 - 58 - 62 - 72 - 84 - 149 - 150 - 196 -

222 - 242 - 251 - 261 - 263 - 265 - 270 - 271 -

273 - 282 - 286 - 299 - 300 - 327 - 328 - 330 - 334 -

352 - 354

الهند الصينية 325 - 333

هنبون (ميناء) 108

هوزان 137

هيباليس 79

هيت 40

حرف الواو

واذي القملة 122

واذي العاص 201

رجلة 210

ورجلة 88 - 93 - 106 - 164 - 207 - 299 - 324 -

وهران 101 - 108

حرف الياء

يشرب 27

يحيى البرمكي 73

يزيد (بن حاتم) 103

يعقوب (بن كلس) 315

يعقوب بن الليث 60 - 76

يعقوب (ابو يوسف) 139

اليمن 27 - 306 .

فهرست الرسوم والخرائط

صفحة	
36	الشكل رقم 1 : الأراضي المصرية
42	2 : أراضي ما بين النهرين
54	3 : الأراضي الإيرانية
90	4 : الأراضي الفريجية تحت الدول الإسلامية
106	5 : طريق التجارة والتفوذ في المغرب (القرن 8 - 11)
112	6 : الأراضي الأسيابية
135	7 : الحالة اللغوية قبل الفتح الإسلامي
	8 : التبادل التقني فعاء الفتح الإسلامي عملة التجارة العالمية :
160	منطقتان تقديتان
176	9 : ذهب السودان
179	10 : التيارات التقنية عقب الفتح الإسلامي
188	11 : معنى تطور عمران المدن بعد قيام العالم الإسلامي
193	12 : بغداد
195	13 : المساحة المقارنة لمواسم العالم (القرن 9 - 11)
205	14 : الفسطاط / القاهرة
213	15 : قرطبة
215	16 - قرطبة : ازدهار عمران المدن
244	17 : تجارة الزيتون في البحر الأبيض الإسلامي
252	18 : انتقال أنواع الحيوانات وتكييفها
255	19 : تزيين العالم الإسلامي بالخشب

264	» 20 : انتقال حديد افریقیة الشرقية وفولاذ الهند	»
296	» 21 : التجارة في الرقيق الصقلي	»
297	» 22 : التجارة في الرقيق التركي	»
298	» 23 : التجارة في الرقيق الأسود	»
320	» 24 : مراحل طرق تجارة اليهود الرادانيين	»
322	» 25 : تجارة ارمينية	»
323	» 26 : تجارة جماعات الخوارج	»
340	» 27 : طرق ومراكز التجارة مع بيزنطة	»
342	» 28 : التجارة في منطقة الانهار الروسية	»
	» 29 : امتداد الملائك التجارية	»
353	» 29 : والاشعاع الاقتصادي في العالم الاسلامي	»
	» 30 : مخطط عام لانقلاب القوى من القرن الرابع الى	»
356	القرن الخامس عشر	

لبيت عام في آخر الكتاب باسماء الدول الإسلامية وعهد كل منها .



فهرس عام بأسماء الأشخاص والأماكن

1	مقدمة الكتاب
9	عرض تهيدي
16	- النشر الاسلام والفة العربية والعنصر الساسي
18	- لقاء الفتوحات : العالم الاسلامي
26	القسم الأول : اراضي الاسلام
27	الفصل الأول : منطقة البرازخ
	- دور الجزيرة العربية
31	- دور مصر
37	- بلاد ما بين النهرين وسورية
47	الفصل الثاني : العالم الايراني
49	- البلاد الايرانية
55	- خراسان
58	- سجستان
59	- مكران
60	- كرمان
61	- فارس
63	- الجبال
	التخوم والطرق
65	- ملحق الطرق الاسبورية
69	- علاقات العالم الاسلامي بالهند

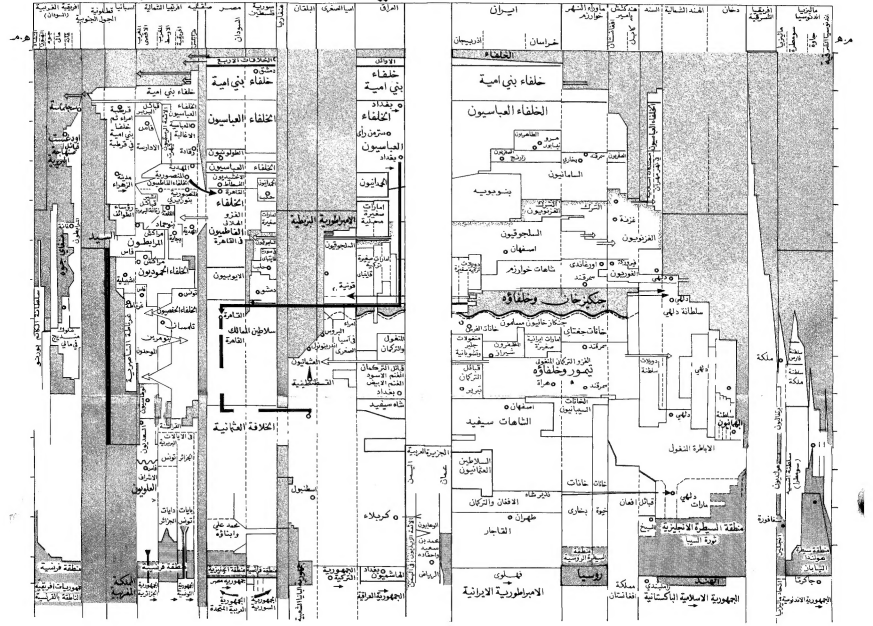
70	— دولة السامانيين
75	— استمرار الضمون الحضاري الإيراني
79	الفصل الثالث : القرب الإسلامي
80	— اقربقية التسامية
86	— البلاد القريبة
91	— الواحية الصحراوية
94	— الواحية البحرية
103	— طرق الهضاب العليا
111	الأندلس :
113	— خلاصة التأثير الإسباني
120	— القرطبة : البربر والعرب
124	— التأثير الشرقي في أسبانيا : قرطبة
	الفصل الرابع : الوضع القوي :
135	— العاربة والعربية الفصحى
147	— لغة التجارة
153	القسم الثاني : فترة نظام النقد الإسلامي وعمران المدن
155	الفصل الخامس : مشكلات النقد
161	— معادن النقد في العالم الإسلامي
168	— الضرب وتداول النقد
181	الفصل السادس : ازدهار العمران في المدن والاستهلاك
184	— حركة العمران
185	— امبراطورية الساسانيين
199	— مشكلات بيئة القديمة
119	الفصل السابع : تنظيم العمل والحركات الاجتماعية
220	— طبقة التجار

226	— الضعفاء اقتصاديا في المدن والارياف
235	الفصل الثامن : الإنتاج وسلع التبادل التجاري
238	— النباتات الغذائية
248	— تربية الحيوانات
255	— الخشب ومنتجات الغابات
268	— الأنصبة
260	— المعادن
276	— منتجات الحجر والأرض
280	— منتجات البحر
283	— دعامة الكتابة
285	— المنتجات الطبية
288	— الرقيق
303	القسم الثالث : تيارات التبادل التجاري
	الفصل التاسع : التبادل التجاري في العالم الإسلامي
305	— الوسطاء اليهود
317	— الوسطاء المسلمون والمسيحيون
325	— تيارات التبادل التجاري
326	— الواجهة الشمالية الشرقية
329	— الواجهة الجنوبية الشرقية
333	— الواجهة الجنوبية الغربية
338	— الواجهة الشمالية الغربية
353	— مكانة العصر الإسلامي في التاريخ
358	— جدول المطابقة بين التواريخ الميلادية والهجرية
	— فهرست الأعلام
	— فهرست الرسوم والخرائط

1. The first part of the document is a title page. It contains the title of the document, the author's name, and the date of publication. The title is "The Role of the State in the Development of the Economy". The author is "Dr. [Name Redacted]". The date is "1990/903".



الممالك الإسلامية ومناطقها



هذا الكتاب

يعالج موضوع الأتمس المادية التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب والأندلس، فيتناول الدورة الاقتصادية كلها ويعرض صورة عامة للمواد الخام وطرق استخراجها ومعالجتها لتوزيع الانتاج الصناعي والشبكة طرق المواصلات وبصفة خاصة طرق القوافل التي هي الشريان الذي تدفق منه الثروة، والتقنيات الأساسية للتوزيع، وذلك في الوقت الذي يعرض فيه صورة للحضارة الإسلامية في أزهى وأعظم مظاهرها، على خلفية سياسية وإقليمية تشمل رقعة العالم الإسلامي كلها. والعلاقات الخارجية في داخل العالم الإسلامي نفسه (بين المشرق والمغرب والأندلس الخ.) ومع بقية الكتل الدولية المعاصرة للأمبراطورية الإسلامية، تشكل سدى ولحمة هذا الكتاب.

Bibliotheca Arabica



0397455